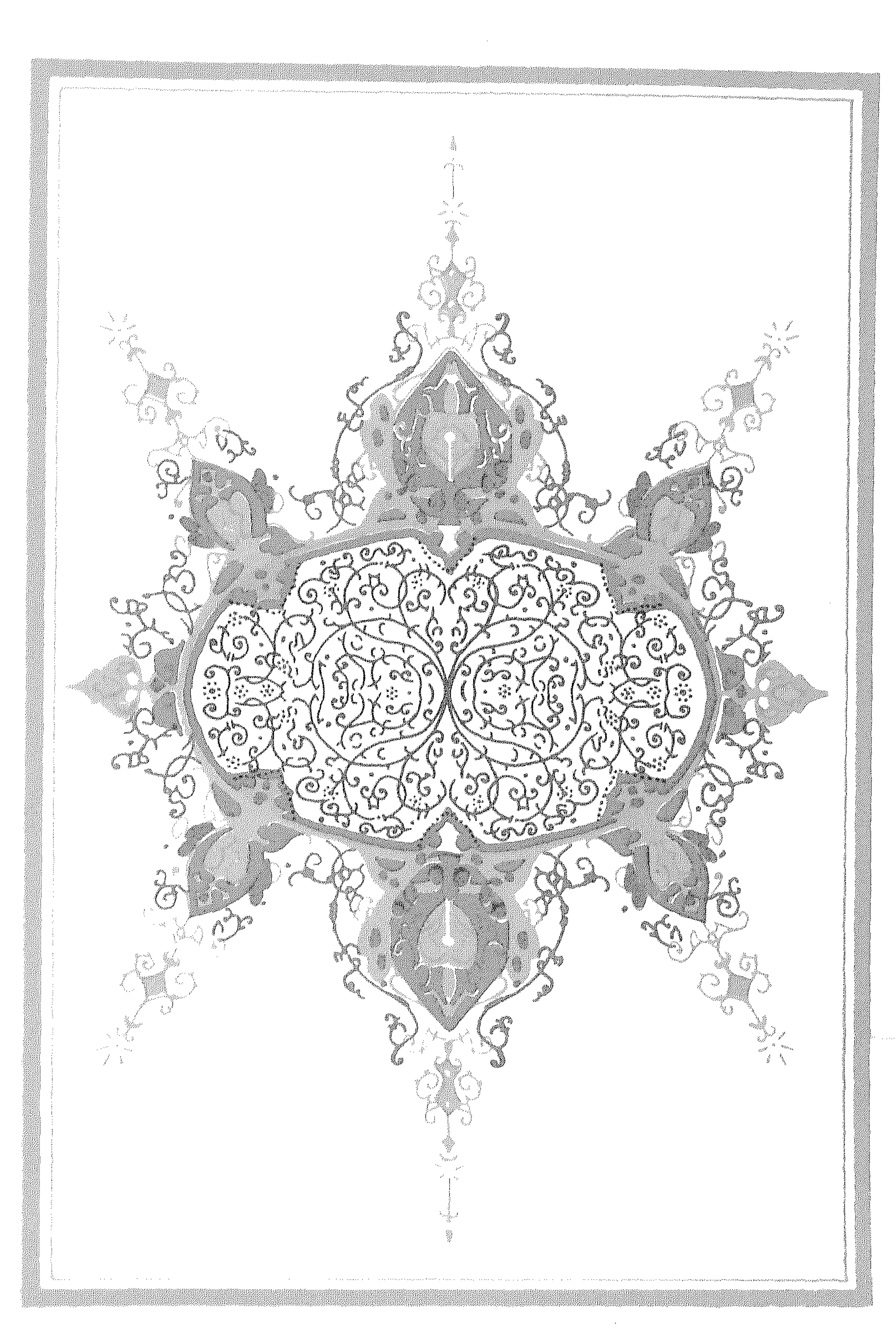
مجلة مجمع اللغة العربية



الجزء السابع والسبعون
جمادى الأولى سنة ١٤١٦ هـ
نوفمبر سنة ١٩٩٥ م



مجمع اللغة العربية بالقاهرة
١٥ شارع عزيز أباظة
(المعهد السويسرى سابقا) بالزمالك

اهداءات ٢٠٠٣

أ.د / شوقى ضيف
رئيس مجمع اللغة العربية

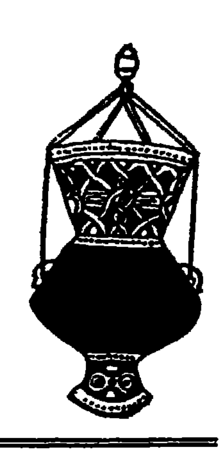
مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين في السنة)

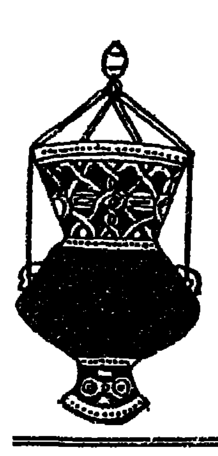
الجزء السابع والسبعون

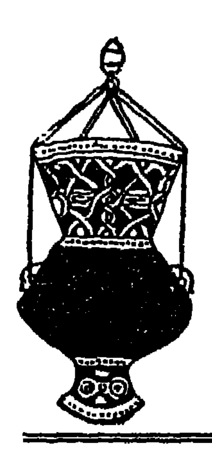
جمادى الأولى ١٤١٦ هـ - نوفمبر ١٩٩٥ م





الفهرس







بحوث ومقالات



بواكــيـر حَـركــة التجــديد

فى الشـعـر العـربى

للأســتاذ الدكتـور / بدوى طبانة

لا أعرف قـضيـة من قـضايـا الأدب شغلت الناس فى هذا الـقرن العشرين كما شغلتهـم قضية التجديد فى قـوالب الشعر وأشكـاله المـوروثة حـتى أصـبحـت هذه القضية الـشغل الشاغل للشـعراء والكتاب والنـقاد الـذين ملأت كـتابـاتهـم جداول الصحف وصفحات المجلات ، وألفت فيها كتب مستقلة كثـيرة ، كما كانت موضوعاً لبـحوث ورسـائل جـامعـية عـنيـت بهـا الجامعات فى أرجاء الوطن العربى .

وقد أفاضت تلك الكـتابات والبحوث والدراسات فـى تناول أبعـاد تلك القـضية وسبر أغوارها ، وشرح أهدافها .

ونشـبت مـعارك قلـميـة شعـواء بين المجـددين وأنـصارهـم والرافـضين ومـن يشايعهم من أهل الحفاظ على المثل المأثورة الذين لم يجدوا سببًا يدعو إلى العدول عن ذلك القديم ، أو النـفور منه ، أو الخروج على سننه وتقاليده .

وليت ذلـك الحوار وقف عنـد الأبعاد الفنـية التى تقـتضيهـا طبيعة الـفن الأدبى والخصائص الـتى يتميز بها كـل جنس من أجناسه كمـا يعرفها الخبـراء العليمون بهذه الصنـاعـة ، وبمـدى تقـبلها للـتعـديل أو التجديد . ولكن ذلك الحوار تطاول وامتدّ واتسع ، حـتى تجاوز حدود الحوار الـفنىّ حول قضية أدبية إلى سباب ومهاترات عمد أصحابها إلى النيل مـن كرامات مخالفيهم فى الـرأى ، وحسبـوا أن المخالفـة عداوة يجب أن يشهر فى وجهها كل سلاح !

ولو أن واحدًا من المتـتبعين استطاع أن يحصى ما كتب حـول هذا الموضوع لملأ به

مجلدات ضخاما تنوء بها مكتبة الأدب فى العصر الحديث

وفن الشعر هو أبرز الفنون الإنسانية عند العرب ، وهو أصلها وأعرقها ، حتى لو أن قائلا قال إن الشعر هو فنّهم الأوحد لم يبعد عن الصواب ، فقد احتفوا به وبقائليه احتفاء منقطع النظير ، وهو السجل الباقى الذى نقرأ فيه تاريخهم البعيد ، ونعرف منه أحوال بيئاتهم وأسلوب حياتهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، فقد وصفوا فيه ما وقعت عليه أعينهم ، وما يجيش فى صدورهم من الأمانى والآمال ، وما يشغل عقولهم من الأفكار، وما يملأ قلوبهم من المشاعر والعواطف إذ كان الشعر كما يرى فلاسفة اليونان الأقدمون فن المحاكاة الذى يحاكى الطبيعة الخارجية أو طبيعة الوجود كما يتمثلها الشاعر ، والطبيعة الداخلية كما تتفاعل فى أعماق الشاعر .

وليس يعنينا فى هذا المجال الحديث عن منزلة الشعر وأثره فى نفوسهم وتصويره لحياتهم أو مشاعرهم ، ولا يتسع المجال لشرح فكرة المحاكاة أو نظرية المحاكاة واختلافها بين أفلاطون وأرسطو ، ولا الإشارة إلى اختلاف النقاد فى إدراك مراميها .

وإنما الذى يعنينا فى هذا السياق أن نقرر أن فن الشعر جنس من أجناس الأدب يتوافر فيه ما ينبغى أن يتوافر فى سائر الأجناس الأدبية من جودة العبارة وأناقة التعبير التى تحيل الكلام إلى تعبير فنى ، ويتميز بها من لغة التخاطب بين أصحاب اللسان الواحد . ولكن فن الشعر يمتاز من بين هذه الأجناس الأدبية بخضوعه لأنساق موسيقية توارثتها الشعراء وتتمثل تلك الأنساق فى أوزانه وبحوره المعروفة التى اهتدى إليها الشعراء بفطرتهم أو بفنيّتهم ، واجتمعوا عليها بعد محاولات وتجارب كثيرة قبل أن يبلغوا بها هذا المبلغ من الوحدة والإحكام الذى ارتضته أذواق صنّاع الشعر ومنشئيه . على أن النثر الفنى قد لا يعدم هذه الموسيقى التى تأخذ بالألباب وتنشأ عن افتنان الكتاب وتأنقهم فى صوغ

الألفاظ ، ولكنها موسيقى غير ملتزمة التزامها في الفن الشعرى التى تتميز موسيقاه بجريانها وفق نظام خاص محدود .

وتحتل "القافية" فى مفهوم الشعر العربى مكاناً ملحوظاً ، ونرى منزلتها فى هذا الشعر فى اقتران القافية بالوزن فى جلّ ما أثر من حدود للشعر عند العروضيين والنقاد العرب منذ أقدم العصور ، والشعر عندهم جميعاً هو « الكلام الموزون المقفى»

وأضاف قدامة بن جعفر إلى هذه الخصائص المميزة للشعر عبارة "يدل على معنى " والمقصود بالتقفية عندهم الالتزام برويّ واحد .

وعرّف ابن خلدون الشعر بذلك التعريف « الكلام الموزون المقفى » وفسر "المقفّى" بأنه الذى تكون أوزانه كلّها على رويّ واحد ، وهو القافية .

وقال ابن رشيق فى "العمدة" :

إن الوزن أعظم أركان حدّ الشعر وأولاها به خصوصية ، وهو مشتمل على القافية ، وجالب لها ضرورة ، إلا أن تختلف القوافى فيكون ذلك عيباً فى التقفية لا فى الوزن . وقد لا يكون ذلك عيبًا فى نحو المخمّسات وما شاكلها ».

وقال فى موضع آخر « إن القافية شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر ، ولايسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية .. والمصرّع أدخل فى الشعر ، وأقوى من غيره ».

وقال على بن عثمان الإربلى فى كتابه "القوافى" :

« اعلم أن العروض مرتبط بالقوافى كارتباط البدن بالقدمين » ويستفاد من هذا وأمثاله التى لا تحصى أن القافية الموحدة داخلة فى مفهوم الشعر العربى ، وأنها لازمة فى كل أبيات القصيدة حتى إنهم لا يسمعون الكلام شعراً إلا إذا بنيت جميع أبياته على رويّ واحد ، أوقافية واحدة .

ولذلك وضعوا لكل ما خرج على هذا

النسق من وحدة الوزن ووحدة القافية اسما خاصّاً به ، فكانت هنالك الموشحات والمربعات والمخمسات والمسمّطات وغيرها مما يختلف فيه نظام القوافى ، أو يخرج عن النسق المعروف .

وإنما تحدثت فى هذا السياق هذا الحديث الموجز عن القافية ومنزلتها فى عالم الشعر العربى لأن محاولات التمرد على نظام هذا الشعر وأنساقه المعروفة كانت أولى محاولات التجديد أو التحلل من القيود فى الفن الشعرى فى نظام القوافى .

ولم يكن الشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى كما زعم أول من استحدث القافية المرسلة أى غير المقيدة أو الملتزمة فى الشعر العربى .

ذلك أن "الشعر المرسل" فيما نعلم ، وفيما سجلناه فى كتابنا « نظرات فى أصول الأدب والنقد» قد بدأت تجربته والدعوة إليه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى . وقد قلنا فى ذلك الكتاب ما نصه : « وربما كان رزق الله حسّون الحلبى الأرمني الأصل (١٨٢٥ - ١٨٨٠م) أسبق صانعى هذا "الشعر المرسل" وأقدم الدعاة إليه ، وذلك فى ترجمته المنظومة للفصل الثامن عشر من سفر أيوب الذى سماه " أشعر الشعر" "Poems of Poems" وقد طبعت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى لندن سنة ١٨٦٩م ، مع مقدمة باللغة الإنجليزية . وقد أهداه إلى « صاحب الجلالة الإمبراطور الإسكندر الثانى إمبراطور الروسيا » ثم أعيد طبع ذلك الكتاب بعد ذلك فى بيروت سنة ١٨٧٠م .

وقال رزق الله حسون فى مقدمة ترجمته « وقد سنح لى أن أنظم الفصل الثامن عشر من سفر أيوب على أسلوب الشعر القديم بلا قافية ، لأن حدّ الشعر عندى "نظم موزون" ، وليست القافية تشترط إلا لتحسينه ، فقد كان الشعر شعراً قبل أن تعرف القافية ، كما هو عند سائر

الأمم ، ولم يسمع للعرب بسبعة أبيات على قافية واحدة قبل امرىء القيس ، لأنه أول من أحكم قوافيها » !

وليس يعنينا الآن التعقيب على هذه المقالة ، وإنما الذى يعنينا فى هذا المجال أن هذه الدعوة إلى "الشعر المرسل" كانت فيما نعلم أسبق الدعوات إلى التخلص من القافية الرتيبة فى الشعر العربى ، وأن دعوة رزق الله حسون الحلبى الأرمنى وجدت استجابة لدى بعض شعراء هذا العصر ، إذ كان جوهر هذه الدعوة وغايتها التخفّف من نظام القوافى الذى يقتضى ثقافة لغوية واسعة عميقة ، تعين على تخيّر الألفاظ الملائمة للمعانى ، والملائمة لبناء القوافى بما يتوافر لها من وحدة الإيقاع الصوتى والموسيقى الذى يتكرر فى آخر كل بيت من أبيات القصيدة .

وكان الهدف الحقيقى لهذه الدعوة هو التيسير على من يحاولون صناعة الشعر قبل أن تستوى عندهم الملكة ، وقبل أن يستكملوا العدة اللازمة لها ، وهى الثروة اللغوية الواسعة ، فإن اللغة هى أداة المحاكاة الشعرية ، كما أن الألوان هى أداة المحاكاة فى الرسم ، والألحان والأنغام هى أدوات المحاكاة فى الموسيقى . . .

★ ★ ★

ثم كانت دعوة الشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى ، الذى بدأ دعوته بتأليف عدد من القصائد التى لم يلتزم فيها بما التزمه شعراء العرب من القافية الموحّدة فى سائر أبيات القصيدة ، ولكنه أرسلها "مرسلة" متحررة من ذلك القيد .

ومن أطرف ما ساقه الزهاوى ليؤيد به رأيه أو دعوته إلى الشعر المرسل الذى يتحلل من قيد وحدة القافية فى القصيدة العربية تشبيهه القوافى فى الشعر بالخلاخيل التى كان النساء إلى عهد قريب يتّزين بها فى أرجلهنّ ، وقد يضربن بها ليعلم ما يخفين من زينتهنّ . وكان النساء يتنافسنّ فى اقتناء الخلاخيل وتخيّر مادتها بحسب اختلاف قدراتهن المادية ، ومنزلتهن فى الحياة ، فقد تتخذ تلك الخلاخيل من الذهب الخالص المحلىّ بالأحجار الكريمة ، وقد

تتدلى من تلك الخلاخيل جلاجل أو أجراس صغيرة تفتن بواساسها أو بجلجاتها السامعين ، وقد تكون من الفضة أو من النحاس أو مما دون ذلك من المعادن ذات الزنين .

وإذا كانت المرأة المتحضرة قد عزفت عن " الخلخال" أو تحررت منه لأنه كان في رأى بعض الناس رمزًا لعبودية المرأة للرجل ، أو لأنه كان يشغل الناظر إليها عن التأمل فى محاسنها ، فإن الزهاوى كان يخشى أن تشغل موسيقى القافية الموحدة المتلقى للشعر عن التأمل فيه ، وعن الاستمتاع بصوره ومعانيه ، وسحر إيقاعه الموسيقى الذى يتجلى فى أوزانه العروضية .

ولذلك أرسل الزهاوى بعض شعره مطلقًا إياه من قيد الالتزام بالقوافى الموحدة. وقال إنه هو الذى استحدث هذا الشعر المرسل فى الشعر العربى . وقد تبيّن مما سبق ومما سيأتى بطلان تلك الدعوى .

ووصف الزهاوى القوافى فى الشعر العربى بأنها قيد ثقيل ، طالما تبرّم به الشاعر ، وقال إنه لم يحبّب هذا القيد الثقيل إلى الأسماع إلا ألفتها إياه ، وعدّه من " نكد " الشعر العربى ، إذ أن قيد القافية أثقل فى الشعر العربى لضرورة مراعاه الإعراب ، ومقدار الحركات قبله ، وتماثلها فوق التزام الروىّ وحركته .

وذلك فى رأى الزهاوى هو السبب الذى جعل الشعر العربىّ بطىء التطور ، عاجزًا عن تلبية متطلبات العصر ، لأنه - كما يقول - لا يمنح الشاعر الحرية الكاملة لإيراد القصص ، وبثّ الآراء ، والافتنان فى الوصف كما ينبغى ، ولأن هذا القيد - أى قيد القافية - لا أثر له فى الموسيقى التى تجعل الشعر شعرًا ، ألا وهى الوزن . قال : وحسبك دليلًا أن البيت الواحد يتمثل به الكاتب ، فيلذّه القارىء ، عارفاً أنه شعر ، من غير أن يسأل عن موافقته لرديفه فى القافية !

ثم يقول الزهاوى :

« ما أغنى أرجل قوافى الشعر عـ

خلاخيل القافية ، وما أغنى السامع عن سماع وسوستها التى تشوّش عليها موسيقى الوزن » .

على أن الزهاوى مع ذلك لا يرى رفع القافية أو إلغاءها فى كل أقسام الشعر ، لأن ذلك المطلب عسير على الأذواق العربية التى عرفت القافية وألفتها منذ عصور طويلة وأحقاب بعيدة .

وأى بأسٍ فى أن يوجد نوع من "الشعر المرسل" كما يوجد « المقيّد » ، وأن يكون هذا النوع المرسل خاصًا بالقصص والوصف والجدل والحكم ؛ حيث ينبغى أن يسير على موسيقى الوزن حرًا طليقاً فى أوسع المجالات ؛ ولا يرسف فى قيوده مثقّلا بأعباء القافية .

وقد يستطيع الشاعر العربى التخفّف من عبء القافية ؛ بأن يحافظ فى قصيدته على البحر أو الموسيقى التى تخضع فى إيقاعها للنسق العروضى الموروث ، وينتقل بعد بضعة أبيات إلى روىّ جديد ، فإن القصيدة لا تخلو من مطالب متعددة يتناسب بعضها مع بعض ، فيجعل الشاعر لكل مطلب من تلك المطالب رويّا يختلف عن سابقه ولاحقه .

ويبدو من هذا العرض لرأى الزهاوى فى قوافى الشعر أنه لم يصّرح فى أمرها برأى واحد يؤمن به ، ويصرّ عليه ، ثم يدعو إليه . ولكنه يتردّد كما ذكرنا بين اتجاهات ثلاثة :

أولها ـ (القافية المرسلة) التى صاغ عليها بعض شعره ، وهى القافية التى تحرّر فيها الشاعر من الالتزام بالقافية الموحدة .

وثانيها ـ (القافية المتنقلة) من روىّ إلى روىّ بعد كل مجموعة من الأبيات تتناسب فى غرضها .

وثالثها ـ (القافية الموحدة) فى جميع أبيات القصيدة الواحدة ، وقد صاغ أكثر شعره عليها ، والتزمها الشعر فى جل ما أثر من الشعر العربى .

وفى رأيى أن الشاعر الفيلسوف قد سجّل فيما أسلفنا مجموعة من خواطره

الشاردة فى فن الشعر ، وأنه لم يأت بجديد يحسب له فى مجالات التجديد .. حتى القوافى « المرسلة » التى زعم أنه استحدثها فى الشعر العربى سبقه إليها بعض الشعراء المعاصرين .

وكان عبد الرحمن شكرى ، واحداً من فرسان حركة التجديد فى الأدب ، وركنا من أركان المدرسة الحديثة فى الشعر العربى التى سميت خطأ «مدرسة الديوان» ، وقد سبق أن رفضت هذه التسمية ، وفنّدت حجة القائلين بها ، والمروّجين لها، وشرحت أسباب اعتراضى عليها مما لا يتسع المجال لتكراره وإعادة أسباب التحرّز أو التجاوز فى ذلك الإطلاق . وقد آثرت تسميتها بالمدرسة الإنجليزية فى الأدب العربى التى تزعمها عباس محمود العقاد ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وعبد الرحمن شكرى .

وما أريد أن استطرد إلى أكثر من ذلك ، مع اعتقادى أنها استطرادات مفيدة ، ولكننى أريد ألا أتجاوز حدود الموضوع الذى أنا بصدد البحث فيه .

ولقد جمع شكرى فى ديوانه خمس قصائد من الشعر المرسل ، وهذه القصائد هى :

(١) كلمات العواطف (ص ٨٥) ،
(٢) الجنة الخراب (ص ٢٠٠) ،
(٣) عتاب الملك حجر لابنه أمرئ القيس (ص٢٠١) ، (٤) واقعة أبو قير (ص٢٠٣) ، (٥) نابليون والساحر المصرى (ص ٢٠٥) ،

والحقيقة أن عبد الرحمن شكرى لم يلتزم الترسّل فىهذه القصائد ، بل إننا قد نجد فى القصيدة البيتين يتواليان على قافية واحدة . وقد يزيد عدد الأبيات المتوالية المقفاة على عشرة أبيات .

وللمازنى قليل من ذلك الشعر المرسل ، ومنه قصيدة عنوانها " إلى صديق " ، وفيها يقول :

لا تَزُرْ إن قضيتُ قبرى ولاتبـ
ـك عليه كسائر الأصحاب

خلّ عنك الوفاء واسمعْ لد
اعى العذر فينا فلات حين وَفاء
وقبيح أن تَسْحَبَ الذيلَ مختا
لاً وتمشى على رقاب الصحابِ
مزعجًا بالسلام رُوحَ كريم
أنتَ غَيَّبْتَه بجوف العراءِ
قد نَضَتْ منكم الليالى هواناً
ونفضْنا أكفّنا من غرامِكْ
فدع السحبُ تسحُب الذيلَ فينا
وتروِّى ثراكَ ، وامض لشانكْ

وللمـازنى قصيـدة أخرى عنوانـها : « لثمتُه » ، وقد جـعل فيها لكل بيت قافيـة ، ولـه قصيدة ثالثة مرسـلة القوافى وعنوانها : « حـواء والمـرأة » وقـد تـرجمـها عـن « الفردوس المفقـود » للشاعر الإنجليزى "ملتون" وفى أولها يقول :

وما أنسَ ذاك اليومَ لا أنْسَ طيبَهُ
وقد بَعثَتْنى من منامى المقادرُ
فألفيتنى وسنانَ تحت وارفٍ
من الظلّ فى أكنافه الظلُّ يَسْمُ
أسائل نفسى أين أنت ؟ ومن أنا ؟
وأعجبُ مما أجتلى وأشاهدُ

وقد أحـدث صنيـع شكرى والمـازنى صـدىً فى أعـمـاق العـقاد ، فـيـصفـق لصنيعـهما تصفيقـا حارًا ، وإن لم يفعل ما فـعلا كما سنعـرض لذلك بعد قليل . ولا غَرْوَ فى ذلك ، فهما صديقاه الأثيران ، وشريكاه فـى الحماسة لدعوة التـجديد فى الشعر العربى . .

وقد وصف العقاد نفسه وزميليه بأنهم « فتيـة لاعهد لهم بالجـيل الماضى نقلـتهم التربية والمطالعة أجيـالا بعد جيلهم ، فهم يشعـرون شعور الشرقى ويـتمثلون الـعالم كمـا يتمثـلـه الغـربى . وهـذا مـزاج أول ما ظهر من ثمـراته أن نزعت الأقلام إلى الاستقلال ، ورفع غشاوة الرياء ، والتحرر من الـقيـود الصـناعـية ؛ هـذا من جـهة الأغـراض والأنسـاق . وأمـا من الـروح والهوى فـلا يعسر علـى البصير أن يـلمح

مسحة القطوب للحياة فى أسارير الشاعر العصرى الحديث ، ويتغرس هذا القطوب حتى فى الابتسامة المستكرهة التى تتردّد أحياناً بين شفتيه .

ويستطرد العقاد فيقول : وحَسْبُ الأدب العصرى الحديث من روح الاستقلال فى شعرائه أنهم رفعوه من مراغة الامتهان التى عفرتْ جبينه زمنا ، فلن تجد اليوم شاعراً حديثًا يهنئ بالمولود وما نفض يديه من تراب الميت ، ولن تراه يطرى من هو أول ذامّيه فى خلوته ، ويقذع فى هَجْوِ مَنْ يكبره فى سريرته ، ولا واقفاً على المرافئ يودّع الذاهب ويستقبل الآيب ، ولا متعرضاً للعطاء يبيع من شعره كما يبيع التاجر من بضاعته ، وما بالقليل من هذه الروح الشمّاء فى الأدب أن تجهز على آداب المواربة والتزلف بيننا ، أو تردها إلى ما وراء الأستار » بعد أن كانت تنشد فى الأشعار ، وينادى بها فى صحوة النهار ! .

وينتقل العقاد من الحديث عن أغراض الشعر ومعانيه إلى بيت القصيد فيبسط رأيه فى ضرورة تجديد قوالب الشعر وأشكاله فيقول :

« ولا مكان للريب فى أن القيود الصناعية ستجرى عليها أحكام التغيير والتنقيح ، فإن أوزاننا وقوافينا أضيق من أن تنفسح لأغراض شاعر انفتحت مغالق نفسه ، وقرأ الشعر الغربى فرأى كيف ترحبّ أوزانهم بالأقاصيص المطوّلة والمقاصد المختلفة ، وكيف تلين فى أيديهم القوالب الشعرية ، فيودعونها ما لا قدرة لشاعر عربى على وضعه فى غير النثر .

ألا يرى القارئ كيف سهل على العامة نظم القصص المسهبة والملاحم الضافية الصعبة فى قوالبهم المطلقة ؟ وليت شعرى بِمَ يفضل الشعر العامىّ الشعر الفصيح إلا بهذه المزية ؟ !

ويشير العقاد بعد ذلك إلى صنيع زميليه شكرى والمازنى فى إطلاق بعض شعرهما من قيد القافية ، وهو تجديد محدود ، فيرى أن صنيعهما ليس الغاية

المرتقبة التى يطمح الثلاثة إليها من وراء تعديل الأوزان والقوافى وتنقيحها ، ولكنه يعدُّ ما كان منهما بمثابة تهيئة المكان لاستقبال المذهب الجديد ؛ إذ ليس بين الشعر العربى وبين التفرع والنماء سوى ذلك الحائل ، فإذا اتسعت القوافى لشتى المعانى والمقاصد ، وانفرج مجال القول بزغت المواهب الشعرية على اختلافها ، ورأينا بيننا شعراء الرواية ، وشعراء الوصف ، وشعراء التمثيل ، ثم لا تطول نفرة الآذان من هذه القوافى ، لا سيما فى الشعر الذى يناجى الروح والخيال أكثر مما يخاطب الحسّ والآذان ، فتألفها بعد حين ، وتجتزىء بموسيقية الوزن عن موسيقية القافية الواحدة . .

ويحاول العقاد أن يستظهر لرأيه بدليل يدل على أن العرب لم تكن تنكر القافية المرسلة فى الشعر كما يتوهم المعاصرون ، بل كان شعراؤهم يتساهلون فى التزام القافية ، ويورد لذلك مثالاً من قول الشاعر :

ألاهل ترى إن لم تكنْ أمُّ مالك
بملْك يدى أنّ الكفاءَ قليلُ
رأى من رفيقيه جفاءً وغلْظةً
إذا قام يبْتَاع القلوص ذمَيمُ
فقال أقِلاًّ واركبا الرحل إننى
بمهلكة والعاقباتُ تدورُ
فبيناه يشرى رحله قال قائلٌ
لمن جملٌ رخوُ الملاط نجيبُ

ويقول إن بعض هذه القوافى ، كما يراها ، قريبة مخارج الروى وبعضها تتباعد مخارج حروفه ، ولو أتيح لهم لتوسّعوا فى القافية المرسلة وطرقوا فى موضوعات الشعر ما تتسع له هذه القافية الفسيحة ، غير أنهم كانوا على حالة من البداوة والفطرة لا تسمح لغير الشعر الغنائى بالظهور والانتشار ، وكانوا لا يعانون مشقة فى صوغ هذه الأشعار فى قوالبهم فلم يلجئوا إلى إطلاق القافية ولاسيما فى شعر يعتمد فى تأثيره على رنته الموسيقية . .

ثم يقول إن مراعاة القافية والنغمة الموسيقية فى غير الشعر المعروف عند الإفرنج بشعر الغناء فضول وتقيّد لا فائدة منه ، ونعتقد أنه لا بد أن ينقسم الشعر على التدريج إلى أقسام ، يكون الشعر فى بعضها أكثر من الموسيقى ، فتزول أو تضعف هذه القيود اللفظية التى هى من بقايا الموسيقى الأولى فى الشعر . .

***

ذلك رأى العقاد الذى كتبه انتصارا لصاحبيه أو دفاعًا عنهما وقد رأى صنيعهما فى القليل من شعرهما الذى جنحا فيه إلى إرسال القافية ، لا يمثل الهدف المنشود من التجديد الذى كان يطمح إليه الثلاثة الأنصار ، ولكنه يراه تمهيداً يفسح الطريق إلى ذلك الهدف من التحرر من قيود القوالب والأشكال التقليدية .

وقد نشر رأى العقاد كاملاً فى صدر الجزء الأول من ديوان الشاعر : إبراهيم عبد القادر المازنى ، الذى طبع سنة ١٩١٤م . تحت عنوان : « خواطر عن الطبع والتقليد فى الشعر العصرى » ، ثم سجله فى كتابه "مطالعات فى الكتب والحياة" ، الذى طبع سنة ١٩٢٤م .

وقد أبدى العقاد كما رأينا حماسة شديدة فى الدفاع عن ذلك الاتجاه والانتصار له ، والتمس له الأدلة المنطقية المقنعة من شعر القدماء ، ومن أحدث الآراء لِنُقّادِ الغرب ، وقد تنبأ العقاد لهذا الاتجاه بالبقاء والتفرع والنّماء .

ولا بأس بهذا سواء أكان دافعه الرغبة فى نصرة الصديق ، أم كان رأيا يؤمن به ، أو أملاً فى مستقبل الشعر العربى .

ولكن العقاد يفاجئنا فى عام ١٩٤٤م. أى بعد ثلاثين عاماً كاملة ، من نشر هذا الرأى ، فى مقدمة ديوان المازنى ، عام ١٩١٤م بنكوصه عن هذا الرأى وعدوله عنه ، بعد معاناة وتجارب أخفق فيها ، ولم يصل إلى ماكان يرجو ، فقد صرّح أنه هو وصديقه المازنى كانا يشايعان زميلهما شكرى بالرأى فى إهمال القافية ، دون استطابة إهمال القافية بالآذان ، وأنه

هو نظم القصائد الكثار من شتى القوافى ، ولكنه طواها كلها لأنه لم يستسغها ، ولم يطق تلاوتها بصوت مسموع ، وإن قل نفوره من قراءتها صامتة .

ولكنه - كما يقول - أراد إفساح الفرصة للتجربة ، عسى أن نكون النفرة عارضة لقلة الألفة ، وطول العهد بسماع القافية .

وأشار إلى أنه ، يوم كتب هذه المقدمة سنة ١٩١٤م ،كان يحسب أن المهلة لانتشار القصائد المرسلة لا تطول حتى تألفها الآذان وما هى إلا سنوات عشر أو عشرون ، ثم نستغنى عن القافية ، حيث نريد فى الملاحم والمطوّلات والمعانى الروحية التى لا تتوقف عن الإيقاع ، ثم ذكر أنه اليوم - سنة ١٩٤٤م - بعد انقضاء ثلاثين سنة على كتابة تلك المقدمة لا يزال ينقبض لاختلاف القوافى بين البيت والبيت عن الاسترسال فى السماع ، ويفقد لذة القراءة الشعرية والنثرية على السواء ، إذ هى لا تطرب بالموسيقى ولا بالبلاغة المنثورة التى لا ترقب فيها القافية بين موقف وموقف ، ولسهونا عنها بمتابعة القراءة .

ثم يقرر العقاد رايه الأخير فى التقفية الشعرية ، وهو رأى يقضى برفضه النهائى لما كان قد ارتضاه ودافع عنه بحرارة منذ عهدٍ بعيد ، فيرى أن سليقة الشعر العربى تنفر من إلغاء القافية ، كل الإلغاء ، وأن الأبيات الأربعة التى نقلها عن الشاعر القديم اختلف فيها حرف الروىّ ، ولم تختلف فيها الحركة فى جميع الأبيات للزوم الضمّ فيها جميعًا ، والضم حركة كالحرف فى الآذان ، وإن لم تكن مثله عند العروضيين والنحاة .

ثم يشرح العقاد أثر الألفة والارتياح إلى سماع القافية ، فيجعله يتفاوت بين مراتب ثلاث :

فالقافية تطرب حين تأتى فى مكانها المتوقّع ، وإهمال القافية يصدم السمع بخلاف ما ينتظر حين يفاجأ بالنغمة التى تشذّ عن النغمة السابقة . والمرتبة المتوسطة بينهما هى التى لا تطرب ولا تصدم ، بل

تلاقى السمع بين بين ، لا إلى الشوق ولا إلى النفور . فانتظام القافية متعة موسيقية تخف إليها الآذان .

وانقطاع القافية بين بيت وبيت شذوذ يحيد بالسمع عن طريقه الذى اطّرد عليه ، ويلوى به لما يقبضه ويؤذيه .

إنما التوسط بين المتعة والإيذاء ، هو ملاحظة القافية فى مقطوعة بعد مقطوعة تتألف من جملة أبيات على استواء فى الوزن والعدد ، أو هو ملاحظة الازدواج والتسميط وما إليهما من النغمات التى تتطلبها الآذان فى مواقعها ، ولو بعدُ فجوة وانقطاع .

وربما زاد هذا التصرف فى متعتنا الموسيقية بالقافية ، ولم ينقص منها إلى حد التوسط بين الطرب والإيذاء ، فالأذن تملّ النغمة الواحدة حين تتكرر عليها عشرات المرات فى قصيدة واحدة ، فإذا تجدّدت القافية على نمط منسوق ذهبت بالملل من التكرار ، ونشطت بالسمع إلى الإصغاء الطويل ، ولو تمادى عدد الأبيات إلى المئات والألوف .

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن القافية ومنزلتها فى الشعر العربى ، وهو كما رأينا حديث مستنير يكشف عن المعرفة الواعية ، وينم على الإدراك العميق لأصول الفن الأدبى وأثره فى الإثارة والإمتاع .

وكان بوسع العقاد أن يركب الموجة التى يتعلق بها المبحرون عن غير وعى أو بصيرة ، يتبعون كل ناعق ، ويقلدون كل من زعم أنه من المجددين ، ولا يدرون ما إذا كانت هذه الموجة تسلك سبيل النجاة ، أم تؤدى بهم إلى الغرق والهلاك !

ولكننا رأيناه يسعى ويتأمل ويناقش ويستثير ملكاته الأدبية ، ومواهبه الفنية ، وحسّه المرهف ، ويفلسف الأدب ويكشف عن طبيعته وخصائصه ، وعن أهدافه ومراميه فى مثل ذلك البيان الرائع ، وذلك الأسلوب العلمى التحليلى الذى يبحث عن الجذور ، ولا يتعلق بالفروع .

وما رأيت واحداً من العالمين بالشعر أو بالعروض تكلم عن القافية فى الشعر العربى بمثل ما رأينا من السعة والتفصيل ، واستكناه الأصول الفنية ، وشرح أثر الحسّ والذوق فى دعم الرأى الحرّ بالمنطق العلمى السليم .

وذلك ما نراه واضحاً فى جلّ كتابات العقاد التى تناول فيها الحياة الأدبية والفنية ، وموضوعات السياسة والاجتماع ، وأصول العقائد والأديان ، وسير النابهين فى كل مجال ، واستحق بذلك أن يكون فى طليعة الأدباء والنقاد والمفكرين فى عالمنا الحديث .

بدوى طبانة

عضو المجمع

الجيولوجيا فى الشّعر

للأستاذ الدكتور / محمد يوسف حسن

* مقدمة :

الشعر وثيق الصلة بكل ما هو رائع وفخم وجميل ٠ والحق أنه ما من علم من العلوم ، أو فن من الفنون إلا وله فى عالم الشعر آثار قلّت أو كثرت من التجليات والإبداعات التى تصوّره وتحسن التعبير عنه وتخلّد روعته ٠ والجيولوجيا أو (علم الأرض) من أكثر العلوم الطبيعية اتصالا بملكة الخيال والتصور ، ذلك بحكم دراستها للردّح اللانهائى من الزمن أو التاريخ الذى هو :عُمر الأرض ، والذى يبلغ حسب أحدث الطرائق والحسابات العلمية نحو أربعة آلاف وخمسمئة من ملايين السنين (٤٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة)؛ وأيضًا بحكم دراستها لتلك الأمم اللانهائية من الأحياء التى كانت تعيش فى ثنايا ذلك التاريخ الفادح الطول ، ولم تترك لنا فى سجلاته الصخرية إلا هياكلها أو حطام هياكلها لنتخيل منها كيف كانت أشكالها ، وكيف كانت حياتها وعاداتها فى الأزمنة الغابرة ٠

وأما مايصدر عن الأرض من ظواهر وأنشطة هائلة تنم عما يعتمل فى جوفها وما يجيش فيه من قوى وأسرار دفينة حُبست فيه من سالف الدهور ، وكيف تنبعث هذه « التعبيرات » الماردة إن صحّ الاصطلاح ، كيف تنبعث على هيئة زلازل وبراكين وتصدع للجبال وطىٍّ للصخور كطى السجل للكتاب ، فذلك ما أخذ بأنفاس الإنسان ، منذ وعى ما يدور حوله فى الطبيعة ، ومازال يأخذ بأنفاسه حتى الآن فيعجز عن صدِّ أخطاره والاحتياط له، ويستحوذ على فكره وعواطفه جميعا ، فينطلق عقله بالدرس لتفهم كنه هذه

الأنشطة والظواهر ، ويسبح خياله فى تأملها وتسجيلها فى إطار فنى يعبر فيه عما يكتنفها من أسرار وغموض ، وما تثير فى نفسه من عواطف وتأملات وخيالات .

وهذا العالم الواسع الساحر من مهرجانات الصخور ذات الألوان والأشكال التى تنافس بل تفوق أحيانا فى عظمتها وجلالها وحَبكِ هندستها ماعند عالم الطيور والفراشات والزهور من أشكال وألوان وزخارف ؛ دع جانبا ما تكنزه تلك الصخور فى ثناياها الخفية من أحجار كريمة وجواهر تُفتتن بها الجميلات الساحرات من بنات حواء فيستعرنها حلية يزددن بها جمالا وسحراً يفتنّ به الرجال .

وتلك الجزر المتفردة المنعزلة فى متاهات المحيط ، منها البركانية الناتئة من أغوار القاع ، ماتفتأ بين الحين والحين تقذف بالحُمم والدخان إلى عنان السماء ، أو ترُجّ الأرض بالزلزال . ومنها ماهبط به القاع أو غمره الماء فكسته مراجين البحر حُللا وزخارف تنمو على شواطئه بنفس معدّل الهبوط أو الغمر ، آيات من السحر والجمال والإعجاز . ومن هذه الجزر البركانية الهابطة ما تحلّقَ وشىُ المَرجان حول رؤوسها المستديرة وحصر بداخلها بحيرات تامة الاستدارة كأنها أحواض سباحة مردة آيات فى الروعة والجمال ، وزينة وجاذبية لبحار الجنوب الدافئة تجعلها مزاراتٍ ومنتجعاتٍ مفضلةً عند السياح من عشاق جمال الطبيعة .

وهياكل الجليد الطافياتُ فى البحر كالأعلام ، وقارّات الجليد البيضاء ، وأنهار الثلوج ، وأنهار الماء ، بل وأنهار الصخور التى تنساب فيها الصخور بدلا من المياه ! وتلك العيون والفوارات الباردة والحارة والشافية بإذن الله . كل تلك معالم خلابة وجميلة وغامضة وساحرة تثير الخيال وتطلق أعنته بقدر ما تتحدى الفكر وتطلق أدواته للتحليل والتفسير .

هذا قُلٌّ من كُثر ، بل لمحة خاطفة فقط من مظاهر عظمة الأرض ؛ فظواهرها وكنوزها وتاريخها عوالم غنية بمقومات

المتعـة الفكرية والمتعة العاطفـية جميـعا ·

فهل ريبةٌ بعد ذلك إذا قيل إن الجيولوجيا - من بين كل العلوم الطبيعية - أوثقها اتصالا بعالم الجـمال والسحر والخيـال ؟ وأقدرُها إيحاءً وإلهـاما لبعض عـلمائها من مـحبى الجمال وعشاق الخـيال ببدائع المعانى الفنية التى تعـبر عن جـوانب تلك العظمـة التى تنطلق علـى ألسنتـهم شـعـرا يضم العلم والفن آيات فى الوصف والحكمـة والتعليم والتـسبـيح وغـيرها من الأغـراض مما يمتع القلوب ويعـجب العـقول فى آن واحـد ؟

وقد اصطلح الأوربيون على تسمية ما كتـب من شعر فى مجال علم الجيولوجيا بـ « الشعر الجيولوجى » (Geopoetry) ، والـذى يـتنـاوله هـذا الحـديث تحت عنوان « الجـيولوجـيـا فى الشـعر » · والـشعـر الجـيـولوجى مـن أجـمل المحـاولات فى وصف العـالم الطبيـعى وأكثـرها تشويقًـا وإمتاعـا لمتذوقى الفنون · وهو يمثل أكمل تفاعل حى بين عالم العلوم الطبيعية وعالم العلوم الإنسانية · وهو موضوع على جِدته - ضخم فـخم ، ومجالـه حافل لا تمكن الإحاطة بكل جوانبه فى مقال حدوده عدة صـفحـات · لذلك فحـسبنا منه لمحـات خـاطفة ونماذج مـختارة ؛ وحـسبى منه أن أكـون أولَ من يفـتح أبواب البحـث فيـه للناطقين بالضاد ، فأغـرى به من أصحاب الجيولوجيا منهم، مـن يواصل البحث فيما بدأته ، ومن أصـحـاب الخيـال والموهبـة الشعرية من هؤلاء من يدلى بدلوه فيه حتى يكون لنا فى هذا المجـال تراث كمـا لغيرنا من الأمم فيه تراث ·

** تصنيف الشعر العلمى وتعريفه

وقـبل أن نبـدأ فـى عـرض النمـاذج وتحليل بعضها ، يـحق لنا أن نتساءل : ما الشـعـر أولا ؟ حتـى نستـطيع تحت مظلة التـعريف أن نحكم عـلى ما نسـمعـه من النماذج : أشعر هو أم لا ؟ وأنَّى لشخصى المتواضع والذى كَتَبَ عليـه القدر أن يتوزع قلبُه طَوال حيـاته بين حُبَّيْن فى آن واحد : حب العلم وحب الفن ، فـيـقـسمَ عمـره كقلبه نصفين : نصف لهذا ، ونصف لذاك

على ما فى هذا من ظلم لكليهما وظلم لنفسه وقلبه جميعا ؟ أنّى لصاحب هذا القلب والعقل الموزعين الحائرين أن يسعفه التحصيل بصياغة تعريف موجز مناسب لهذا المقام يكون فى الوقت نفسه شاملا وشافيا ؟ والموضوع أصلا يتنافس فيه المتنافسون من المختصين ويختلفون وحتى فهم يتخاصمون ؟ لكنه يجرؤ أن يقول فى بساطة وتواضع ورجاءٍ حار لصفح المتخصصين يقول ،« إن الشعر كلام منظوم بموسيقى متناسقة متناسبة ، يصدر عن إحساس صادق وانفعال وجدانى بموضوع ما ويخدم غرضا إنسانيا نبيلا » ·

وإذا كان النظم هو أول هذه العناصر المطلوب توافرها فى الشعر ، فبدونه لايكون الكلام شعرا ، لكنه مع تحقيق ذلك يتفاوت فى درجاته ، ولايتكامل إلا إذا تكاملت فيه العناصر التى سبق ذكرها ، ويزيد فيه الإبداع مع كل زيادة من غير هذه العناصر مما يتضمنه ما أسماه المختصون بعمود الشعر · ومن الشعر الجيولوجى درجات فى هذا المعراج تختلف مع موهبة قائله ومع الغرض الذى عُمل الشعر من أجله ·

والنظم - وهو أولى القواعد التى بنى عليها الشعر - قد تبدّت فائدته للإنسان منذ القدم ، فاستغله وسيلة لتثبيت المعرفة بالحفظ · وعلى حد تعبير الدكتور طه حسين ، « فإن للشعر صفات تعصمه من الموت القريب ، لا نجدها فى النثر ، وتلك هى الدروع المتقنة التى نسميها الوزن والقافية والموسيقى والصور » · لذلك فقد بدأ الإنسان منذ فجر التاريخ ينظم من أفكاره وأحاسيسه ما يرجو له طول البقاء وسعة الانتشار من أمثال وحكم وأغانى للمهد وطلاسم وتعاويذ وغيرها ليسهُل حفظها فى ذاكرة الناس · ومن هذا المدخل نجد ظاهرة الالتجاء إلى النظم للاستعانة على الحفظ قد تواترت فى الماضى فى كثير من العلوم · وقد أدى هذا إلى نشوء ما أسميه (الشعر العلمى) ، وهو نوعان :

١ - الشعر العلمى التعليمى (Didac-tic Scientific Poetry) ويكاد لايتحقق فيه من شروط الشعر إلا النظم لغرض تسهيل الحفظ ·

٢ - الشعر العلمى الفنّى (Artistic Scientific Poetry) ؛ وتتفاوت درجات كماله بتفاوت ما يتحقق فيه من شروط عمود الشعر ·

ولعلم الجيولوجيا من كلا النوعين حظ وافر أكثر مما لغيره من العلوم الطبيعية ·

ومن أشهر وأقدم الشعر العلمى التعليمى على إطلاقه فى العربية ألفية ابن مالك فى النحو ، وقد تلتها ألفيات أخرى بعضها فى النحو وبعضها فى العلوم التطبيقية وبخاصة الطب ، وأشهر هذه على الإطلاق ألفية ابن سينا فى « حفظ الصحة » والتى مطلعها :

« الطب حفظ صحة ،بُرء مرض ∴

من سبب فى بدن عنه عرض » ·

وقد بلغت أهمية هذه الأرجوزة شأواً كبيرا حتى أن جيرار دى كريمونا الأسبانى فى القرن الثالث عشر الميلادى - وهو من أشهر ناقلى العلم العربى إلى الغرب وزعيم الممهدين لعصر النهضة الأوربى ، قد ترجم هذه الأرجوزة إلى اللاتينية فتداولها طلبة الطب فى أوروبا حتى القرن السابع عشر ، وكانوا يتبارون فى حفظها كسمة من سمات النبوغ فى المهنة · كما أنها ترجمت مؤخرا إلى الفرنسية والإنجليزية كإحدى نفائس تاريخ العلم ·

وقد ألف ابن سينا أرجوزته فى الطب فى القرن العاشر الميلادى وبذلك فهى أقدم من أقدم أثر مشابه فى الإنجليزية أو أى لغة أوروبية بنحو ثمانية قرون ؛ وذلك الأثر هو ديوان إيرازموس داروين فى الطب وعلوم التاريخ الطبيعى ، وقد وضعه فى القرن الثامن عشر ·

وإيرازموس هذا هو جد تشارليس داروين عالم التطور الأشهر · ولاشك أن أرجوزة ابن سينا وترجمتها اللاتينية المعروفة باسم Cantica Avicennae هى التى

أوحت إلى إيرازموس بهذا العمل . وهناك أمثلة رائعة من الشعر العلمى التعليمى فى الجيولوجيا نرجىء عرضها حتى نستوفى تعريف الشعر العلمى الفنى ، ثم نستعرض الأمثلة الجيولوجية من النوعين .

وبالنسبة للشعر العلمى الفنى ، فلابد لنا أيضاً من تعريف ؛ فالتعريف دائما هو « بوصلة » الدراس فى بحار علمه . فنقول إنه بالإضافة إلى مقومات الشعر التى ذكرناها فى صدر هذا الحديث، فإن هذا النوع من الشعر يمتاز بأنه التعبير الفنى عما يجيش بنفس ناظمه من أحاسيس وأفكار أو حكم مستوحاة من مجال تخصصه العلمى أو من مهنته . وقد يستوحيه من بيئته الطبيعية أو الاجتماعية بصرف النظر عن تخصصه . وأمثلة هذا الشعر فى العربية قديمة جدا ترجع إلى العصر الجاهلى ، ومنها ما ورد فى المعلقات نفسها . وإليك مقطوعتين طريفتين إحداهما فى البيولوجيا والأخرى فى الجبر . فالأولى لطرفة بن العبد ، وهى وصف تشريحى لأجزاء مختلفة من جسم الناقة فى ستة وثلاثين بيتا نقتبس منها البيتين التاليين فى الجمجمة والقلب.، يقول طرفه :

« وجمجمة مثل العلاة كأنما

وعى الملتقى فيها إلى حرف مِبرد

وأروع نباض أحذٌ ململِم

كمرداة صخر فى صفيحٍ مصمّد »

أما المقطوعة الثانية فللنابغة الذبيانى صاغ فيها معادلة جبرية يونانية قديمة ، حيث قال :

« واحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت

إلى حمام سراع وارد الثمد

قالت : ألا ليتما هذا الحمام لنا

إلى حمامتنا مع نصفه فقد

فحسّبوه فألفوه كما ذكرت

ستا وستين لم تنقص ولم تزد .

فكمّلت مئة فيها حمامتها

حِسبةٌ حقة فى ذلك العدد »

ومؤدّى هذه الأبيات هو المعادلة

$$س + \frac{س}{٢} + ١ = ١٠٠$$

ومن الأمثلة المستوحاة من المهنة العلمية نورد أبياتاً طريفة من الشعر العلمى لبديع الزمان الأسطرلابى من القرن الثانى عشر الميلادى ، وكان رياضيا فلكيا على معرفة بعلم « الآثار العلوية » أو ما يسمى الآن علم المتيورولوجيا . وهو شعر جيد لولا ما فيه من بعض التكلف اللفظى ، قال يمدح الخليفة :

« أهدى لمجلسك الشريف وإنما
أهدى له ماحزتُ من نعمائه
كالبحر يمطره السحاب ، وما له
مَنٌّ عليه ، لأنه من مائه »

وقال يتغزل :

« وذو هيئة يزهو بخالٍ مهندَس
أموت به فى كل حين وأبعث
محيط بأوصاف الملاحة وجهه
كأن به إقليدسٌ يتحدث
فعارضه خط استواء وخاله
به نقطة ، والخد شكل مثلث »

*** نماذج جيولوجية :

لم تكن الجيولوجيا معروفة كعلم مستقل عند العرب فى تاريخهم القديم ولا حتى فى العصور الذهبية للعلوم الإسلامية، وحتى فى أوروبا فلم تعالج كعلم مستقل حتى أواخر القرن الثامن عشر . ولكن بعض موضوعاتها كانت تأتى عرضاً فى ثنايا الكتابة عن العلوم الأخرى . وكذلك الحال بالنسبة لها فى التراث الشعرى العربى ، فهناك أبيات متفرقة تعالج موضوعاتٍ متصلةً بالأرض ومعالمها . وحتى الشعر الجاهلى لايخلو من أمثلة طريفة فى هذا المجال كان الشاعر يستعين فيها على أداء غرضه بتشبيهات رائعة من بعض مظاهر الطبيعة وأحوال الصخور ، فهى من عناصر بيئته الأصلية التى برع فى تصويرها . وإن أقدم مثال منها هو بيت امرىء القيس الشهير فى معلقته «قفا نبك»

حيث قال يصف حركات فرسه :

« مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا

كجلمود صخر حطه السيل من علِ »

وقد راح يستطرد في القصيدة بعد ذلك بأبيات أخرى هنا وهناك يتفنن فيها بتشبيهات من أحوال الأرض والصخور كقوله :

« كميتٍ يزل اللبد عن حال متنه

كما زلت الصفواء بالمتنزل »

أو كقوله :

« مِسَحٍّ إذا ما السابحات على الونى

أثرن غبارا بالكديد المركّل »

ومن معلقة عمرو بن كلثوم نرى أبياتا تناولت أنواعا كثيرة من الحجارة والأراضى ومقاسم المياه وغير ذلك ، وهي التى مطلعها :

« لخولةَ أطلال ببرقة ثهمد

تلوح كباقى الوشْم فى ظاهر اليد »

ومنها :

وتبسّم عن ألمى كأن منوّرا

تخلل حرّ الرمل دِعصٌ له نَدِ .

ومنها :

« أحلتُ عليها بالقطيع فأجذمت

وقد خبَّ آل الأمعَز المتوقّد

وأيضًا :

« ولست بحلال التلاع مخافةً

ولكن متى يسترفد القوم أرفِدِ »

وفى الأبيات من التشبيهات المستمدة من علم بطبيعة الصخور والأرض ما تحمله كلمات : البرقة والدعص والأمعز والتلاع ... إلخ .

ومن شعر كعب بن زهير يعجبنى فى هذا المجال قوله :

« شُجَّت بذى شَبَمٍ من ماء مَحنيةٍ

صافٍ بأبطحَ أضحى وهو مشمول

تنفى الرياح القذى عنه ، وأفرَطُه

من صوب غادية ، بِيضٌ يعاليل . »

فالمحنية منعطف الوادى حيث يرتطم الماء بأحد جانبيه فيرسب ما هو عالق به

من فتات الصخور فيصفو ، والأبطح : مسيل الماء به دقاق الحصى ، والبيض اليعاليل : الجبال البيضاء صخورها من المرو أو الطباشير إذا فاض منها الماء أتى نقيا ليس فيه تراب . والمجال فى القصيدة كما هو معروف استهلال غزلى للمديح ، وقد وجد الشاعر من بيئته الطبيعية وما بها من صخور وجبال وأودية ومياه مادة خصبة لتشبيهاته واستعاراته فى وصف ثغر الحبيب وظَلْمه ولؤلؤ ثناياه !

ويعجبنى أيضاً قول سلامة بن جندل:

« حتى تركُنا ، وما تُثْنَى ظعائننا

يأخذن بين سواد الخَط فاللوب »

وقول الحارث بن حلزةَ اليشكرى :

« ليس ينجى موائلا من حذارٍ

رأس طود ، وحَرَّة رجلاء »

فاللـوب والحرار جمع لابـة وحَرة ، أصقـاع من صخور سـوداء غليظة عسـيرة يتعذر المشى فيها فـيتحصن بها الهاربون ؛ وتلك ما نسـميها اليـوم الصخور الحُمَمِيّة البركانية (lava flows) ؛ وأحـدُس أن كلمة lava الإفرنجيـة مقترضـةٌ من كلمة لابة العـربية . ولكن ألا ترى مـعى مدى خبرة شاعرنا العربى القديم فى التمييز بين أنواع كثيرة من الصخور وطبـائع وجودها وصفاتها حتى أنه يستعير منها المناسب تماما للغـرض الذى يرمـى إليـه فى شـعـره ؟ وأتوسم لو جـمـعت كل الألـفـاظ ذات الدلالات الجيولوجـية من شـعرنا القـديم لتجـمع منها قامـوس لابأس به يعين على تخـيـر المصطلحـات التى تسـاعـدنا على التـرجـمـة والتـأليف الجيـولوجى .

لكن أجمل ما قيل من شعر عربى فى موضـوعات جيولوجـية حقة عند القـدماء ماورد من أبيـات قيـمة فى لزومـيات أبى العلاء المعرى وفى ديوانه « سقط الزند » ، وقـد تناولتـها فـى بـحث سابق عـن « النزعة العلمية فـى شعر أبـى العـلاء المعـرى » (مؤتمر مجمع اللغة العربية رقم ٢٤ عام ٧٤/ ١٩٧٥) . ومن شعر القدماء أيضًا المستوحى من موضـوعات جيولوجية

أقتبس هذه المقطوعة عن الزلزال لشاعر من القرن الثالث عشر الميلادى هو أحمد بن يوسف التيفاشى صاحب كتاب « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » وغيره من الكتب الممتعة ، يقول :

« أما ترى الأرض فى زلزالها عجبا
تدعو إلى طاعة الرحمن كل تقى
أضحت كوالدة خرقاء مرضعة
أولادها درَّ ثدى حافل غدق
قد مهدتهم مهادا غير مضطرب
وأفرشتهم فراشا غير ماقلق
حتى أبصرت بعض الذى كرهت
١ مما يشق به الأولاد من خُلُقُ
هزت بهم مهدهم تشأ تنهنههم
ثم استشاطت وآل الطبع للخرق
فصكّت المهد غضبى وهى لافظة
بعضا على بعضهم من شدة البرق »

ولست أعرف من بعد ذلك حتى العصر الحديث شعرا عربيا مستوحى من أغراض جيولوجية برغم ذيوع هذا العلم وانتشاره أخيرا فى العالم العربى منذ أكثر من سبعة عقود ٠

أما فى الغرب ومع حلول عصر النهضة ، فإن ما واكبها من كشوف علمية مدهشة قد فجَّر الموهبة الشعرية عند بعض العلماء الشعراء ، وفتح آفاقا واسعة موحية بالشعر العلمى بنوعيه ٠ وجاء أجمل هذا الشعر فى مجال الجيولوجيا ،ولو أنه لم يعرف قبل القرن الثامن عشر ٠ ولقد كُتبت فيه قصائد بأسرها (تعليمية أو فنية) نشرت فى بعض الصحف والمجلات ، كما كتبت فيه بعض المقطوعات التى صُدِّرت بها الكتب واستفتحت بها فصولها ٠ ومعظم هذه القصائد لها أهداف اجتماعية أو سياسية أو فكاهية ولكن بالتورية الجيولوجية ٠ ومن هذه القصائد ما هو لجيولوجيين شعراء معروفين ، ومنها ماهو لمجهولين ،ومنها ما هو لأناس شعراء عاشروا الجيولوجيين وافتُتنوا بمهنتهم ٠ ولدىّ باقة جميلة من هذه القصائد أغرمت

ببعضها فترجمته شعرا إلى اللغة العربية ، وسأعرض بعضا منه فى آخر هذا البحث.

وبعض ما يضمه التراث الشعرى الجيولوجى الحديث بالإنجليزية كتبا بأسرها ليست على هيئة دواوين كالعادة ولكنها جَمعت فى رشاقة وإتقان بين الشعر التعليمى والشعر العلمى الفنى فى آن واحد . ومن هذه عمل خالد فريد فى بابه صدر فى عام ١٩٠٥ فى ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير و ٧١ لوحة بعضها بالألوان، ويعالج التاريخ الجيولوجى للأرض بشعر علمىّ رائع من الناحيتين : العلمية والشعرية وبلوحات ورسوم غاية فى الإبداع الفنى والدقة العلمية . ذلك هو كتاب : « من السديم إلى الإنسان » (Nebula to Man) لمؤلفه الجيولوجى هنرى نايب (Henry Knipe) . ولقد أسعدنى الحظ حقا فى إحدى جولاتى بالمكتبات المتخصصة فى بيع الكتب القديمة بلندن أن أقع على نسخة من هذا الكتاب تضمها مكتبتى الخاصة بين تحفها . وتأمّل معى مبررات المؤلف فى مقدمة الكتاب عن الدافع لكتابة هذا العمل شعرا ، وأقتبس من هذا فقرة واحدة فيها يقول :

" To attempt a work of this kind in rhyme is, I know a bold experiment. But, however severly scientific in some of its respects , the story of Geology is truely the most enchanting story in the world , and rhyme may well be regarded as an appropriate form in which to present it " .

وانظر كذلك إلى إهداء المؤلف كتابه إلىْ الطبيعة بهذه المقطوعة من الشعر العلمى الرائع :

To NATURE

How fair, O Nature are thy looks
In these thy matron days,
And with what light a heart than seem'st
To tred thy thorny ways.
Man sees thee joying in thy life ,

تهنئة لصديقه (Long fellow)
رائد علم الثالج المشهور
ومستكشف الآفاق المجهولة لويز
أجاسيز (Louis Agassiz)
بالحفل الذى أقيم للأخير بمناسبة
عيد ميلاده الخمسين ، وكان ذلك
بتاريخ ٢٨ من مايو عام ١٨٥٧ ،
يقول لونج فيلو :

It was fifty years ago ,
In the pleasant month of May.,
In the beautiful Pays de Vaud,
A child in its cradle lay.

And Nature, the old nurse took.
The child upon her knee
Saying : " Here is a story-book
Thy father has written for thee "

" Come wander with me, " she said "
Into regions yet untrod'
And read what is still unread
In the mansuscripts of God. "

So full, so fresh , so free,
And if thy toil in ages past,
Had nothing been to thee.
And well may be , beneath thy spell,
Forget thy inner life.
The waste and suffering in thy breast,
And never - ceasing strife,
Or if so be he needs must think
Of all the tumult there,
He knows at least one end it has ,
To make thee grow more fair .

وعسى أن تسمح الأيام بعودة إلى هذا الكتاب فى دراسة مستقلة تقتصر عليه لإبراز قيمته العلمية والفنية وعرض لبعض روائعه من الشعر والرسوم .

والآن إلى بعض نماذج مختارة من الشعر الجيولوجى بالإنجليزية والعربية :

(أ) هذه مقطوعة رائعة من الشعر الجيولوجى الإنسانى العاطفى ، ألقاها الجيولوجى لونج فيلو

(ب) واستمع معى إلى مأثورة تنسيون (Tennyson) الرائعة عن تأملاته فى نظرية إغارة البحار وانحسارها وتبادل البر والبحر مواقعهما عبر التاريخ الجيولوجى · وتنسيون من أئمة الشعراء الإنجليز ولم يكن من علماء الجيولوجيا ، يقول :

There rolls the deep sea where grew the tree,

O , Earth what changes hast thou seen !

There , where the long street roars has been.

The stillness of the central sea

ولله درك يا أبا العلاء ، فلست تكلنى إلى الترجمة عن تنسيون عندما قلت فى لزومياتك ، قبل تنسيون بنحو تسعمائة عام :

« أجْبلَتِ الأبحُر فى عصرنا

هذا ، كما أبحرَتِ الأجْبُل »

لله درك قد ضممت كل هذا المعنى العلمى الكبير فى بيت واحد ؛ وكذلك عندما قلت فى « سقط الزند » فى نفس المعنى :

« ويقال : إن البحر غاض وإنها

ستعود سِيفاً لُجة الرّجّاف » !

وقولك أيضا :

« ويقال إن مدى الليالى جاعلٌ

جبلاً أقام كزاخرٍ موّارِ »

هل أطلع تنسيون يا أبا العلاء على تراثك العظيم ، أو أنه توارد الأفكار عند الرجال العظام ؟!

(جـ) وهذه قصيدة جيولوجية طريفة فى غرض اجتماعى وعنوانها

(The Geologist's Wife)

« زوجة الجيولوجى » ، وهى لشاعرة مجهولة من القرن التاسع عشر قالتها فى وداع زوجها وهو يستعد للقيام برحلة جيولوجية ، وقد قمت بترجمتها شعراً إلى العربية ، وهذان هما النصان :

To Her Husband Setting Off Upon

And climb the raised beaches, my own love , with thee.

★ ★ ★

Me, too , you'll remember, for love claims no less,

And all your proceedings a fondness confess;

Each level you take , be it not from the sea ,

But above the dear place where your Susan may be.

★ ★ ★

Let everything mind you of tender re·lations–

See, even the hard rocks have their in-clinations!

Oh, let me believe that , wherever you roam,

The axis of yours can be no where , but home !

★ ★ ★

And if in your wanderings , you chance to be led.

To Ross-Shire or Moray, to see the Old Red,

An Excursion :

A dieu then , my dear , to the High-lands you go ,

Geology calls you, you must not say no :

Alone in your absence, I cannot but mourn ,

And yet it were selfish to wish your return.

★ ★ ★

No , come not until you have searched through the gneiss,

And marked all smoothings produced by the ice,

O'er granite - filled chinks felt Huttonian joy,

And measured the parallel roads of Glen Roy.

★ ★ ★

Yet still as from mountain to moun·tain you stride,

In visions I'll walk like a shade by your side;

Your bag and your hammer I'll carry with glee,

Oh still , as its mail - covered fishes you view,
Remember the colour is love's proper hue.

* * *

Such being your feelings, I'll care not although
You're gone from my side - for a fort-night or so;
But know , if much longer you leave me alone,
You may find , coming back you have two wives of stone

وقد قمت بترجمة هذه القصيدة بتصرف إلى العربية ، وهذا نصها :

زوجة الجيولوجى

وَداعاً ، وَداعاً ،
شريك حياتى ، وزوجى الحبيب ،
دعتك الجيولوجيا لبحث جديدٍ
فلابد أن تستجيب !

***

غيابك عنى فراغ مُمِضٌ وجو كئيب ،
ولست - برغم شعورى هذا ، أمنى فؤادى
بعذرٍ يعوقك ؛ لابل بنُجحٍ لزوجى الدؤوب

***

فلا ، لاتعُد لىَ قبل اكتشاف مفيد
لخامٍ ثمينٍ : فإما نحاس وإما حديد ،
وإما شواهد نفطٍ وغبارٍ ،
تمنى بلادى بعيش رَغيد !

***

كأنى أراك بروحى تجوب الجبالَ ،
فأحلم أنى كطيفٍ وراءك يقفو خطاك
أقلُّ الوطاب ، وأرقى الشعاب
بكل اهتمام ، وكل حبور
أحاول ، مثلك ، جمع الصخور ،
وأنت ترانى كأنى أجنى الزهور !

***

وأنت هناك ، لفرط هواك ، ستذكر
" ليلى " بكل غرام ، وكل هُيامٍ ،
وكل افتخار فتنسب كل ارتفاع لأرضٍ
تقيم عليها الحبيبة " ليلى ....
وليس لسطح البحار !

***

تأمل حـواليك فى كل شىء جميـل ،
تجـــده ينادى بأن الـغــرام شُـكول
فـحـتى الـصـخــور تأمَّل تجــدها
كــمــثلِ الأناسىِّ ذاتَ مُـيــول !

***

تسـلَّق ، وجُلْ حــيث تبــغى
فمـهمـا ذهبتَ فليس فؤادى غـيور،
لأنى أراك كمثل الكواكب مهما تغور،
تعـــود إلينـا دوامــا سنـاءً ونور .

***

عَـرَفتك تهـوى الصخـور الجمـيلة ،
هـواك لزهــر الخـــمــــيلة ،
وورد الخـــدود الأســــيلة ،
وســحــر العــيون الـكحــيلة ،
وتلك جـمــيعـا فنون أصــيلة ،
وكل مجـال بها قد حـذقت أصوله !

***

لذا ليس يقـلقنى أن تغـيب قـليـلاً،
ولكنَّ خوفى من أن تُطيل هناك المُقَامْ،

فـتـأتى لتَلقى هنا زوجـتين تطيـقـان هذا
فواحـدة من بزلْت ، وواحدةٌ مـن رخامْ .

(د) والقـصـيدة التـــالية عنوانـــهـا (The Coal and The Diamond) «الفحم والألماس» ، وهى لشاعر أمريكى مجهول من القرن التاسع عشر كـتبها فى غرض اجـتماعى إنســانى فلسـفى ؛ فــى حـوار عـلى لســان قـطعـة من الفــحم وبلـورة من الألماس . وهـذا هو النص الإنجـليـــزى للقصـيدة :

The Coal and The Diamond

A coal was hid beneathe the grate,
('T is often modest merit's fate;)
'T was small, and so perhaps forgotten;
Whilst in the room and near of size,
In a fine basket lined with cotton,
In pomp and state a diamond lies.
" So , little gentleman in black "
The brilliant spark in anger cried,
"I hear in Philosophic clack," .

Our families are close allied :

But Know the splendor of my hue,

Excelled by nothing in existence,

Should teach such little folks as you,

To keep a more respective distance

At these reflections on his name,

The coal soon reddened to a flame :

Of his own real use aware,

He only answered with a sneer;

I scorn your taunts, good Bishop Blaze,

And envy not your charms divine;

For know I boast a double praise,

As I can warm as well a shine.

وهذه هى الترجمة إلى العربية :

الفحم والألماس

كِسرةٌ من فحمة فى موقدِ ... قد توارت فى رَمادٍ لاتبين

حظها فى ركنها النسيانُ فى الدا ... ر ، والإنكار ، والوضع المهين

***

وعلى مقربة فى الغرفةِ ... تزدهى الماسةٌ فى سلةِ

بِفِراش من نديف ناصعٍ ... تستوى فوقه كالملكة

***

قالت الفحمة للألماسة ... لا تغالى فى التعالى والصلَفْ

إن أهل العلم قالوا : أصلنا ... واحد مثل اللآلى والصدفْ

***

صاحت الألماسة فى الفحمة : ... كذب القائل إنا أقرباء

إلزمى حدك ياسوداء إنَّ ... الذى قالوا لإفكٌ وهراءْ

***

كـــــسـرة الـفـــحـم كـأن الـنار مَـسَّت مـــحـيـاها بلفـح من شـررْ

فـاسـتـحــــالت من سـواد فـاحم جـمـرةً رمـضـاءَ والوجـه أكـفـهـر

***

ثم ردّت بـاحــتــــقـــارٍ وألَمْ « ذاك جـــهل منـكِ يا الماســـةُ

نحن أخــتــان ، وإن أنكـرتنى ، أصلـنا الكـربون يا مـــغـــرورةُ »

***

قــد حــبــاك الله ومــضـاً وسناً يخطف الأبصـار أو يسـبى العيـون ؛

وحـبــانى فـوق هذا ، إن خَـمِـيـ ـتُ، شـعـاعـا يمنح الدفءَ الحنون »

***

(هـ) أما هذه فـمجمـوعة من الشـعر الچـيولـوچى الفكاهى ، ولو أن القـصـد الأول منهـا تعليـمى ، فـانظر مـعـى كـيف يهـدف الجيـولوچى الشاعـر إلى ترسيخ المعلومـات عن طبائع الصـخور وتركـيـبـهـا فى ذهن دارس الچيـولوچيا مسـتـعينا على ذلك بعاملين للتحفيظ : الأول الصياغة الشعـرية ، والثانى روح المرح ، ويظـهـــر ذلك فى عـــنوان المجـمـوعـة بجـلاء ، إذ يسـميهـا «الطهو الچيولوچى» (Geological · cookery) واقتطع لك منهامقطوعات قليلة :

To Make Granite

Of Felspar and Quartz a large quantity take,
Then pepper with Mica and mix up and bake.
This granite for common occasion-is good;
But on Saint-days and Sundays, be it understood,
If with bishops and lords in the state room you dine,
Then sprinkle with Topaz , or else Tourmaline.

Till the parts stick as Firm as if fastened by glue.

(و) وهذه قصيدة إنسانية اجتماعية مؤثرة بعنوان « فتى المنجم »

The Miner lad

Nay. don't despise the Miner-lad,
Who burrows like the mole;
Buried alive from morn to night,
To delve for household coal-
Nay, miner-lad, ne'er blush for it,
Though black thy face be, as the pit!

***

As honorable thy calling is,
As that of hero lords,
They owe to the poor Miner-lad
The ore that steels their sowrds-
And perils, too, as fierce as theirs.
In limb and life, the Miner shares!

***

Ye gayest of the gaudy world,
In gold and silver bright,
Who , but the humble Miner-lad,
Your jewels brought to light?

To Make Porphyry :

Let silex and Argil be well kneaded down,

Then colour at Pleasure, red, , grey, green, or brown;

When the paste is already, stick in here and there

Small crystals of Felspar, both oblong and square.

To Make Puddingstone :

To vary your dishes, and shun any waste,

Should you have any left of the very same paste,

You may make a plum - pudding, but then do not stint The quantum of pebbles - chert, Jasper, or Flint.

To Make A Good Breccia With A Calcareous Cement :

Break your rocks in sharp fragments , preserving the angles ;

Of. Mica and Quartz you may add a few spangles:

Then let your white batter be well filtered through,

Where would be your gold and silver,
But for yonder delver ?

***

Ye brows of pearly diadems,
Who sit on lofty thrones,
Smile gently on the Miner-lad.
Who wrought your precious stones.
And rescued from their iron bond,
The ruby and the diamond!

***

Ye instruments of brass, that pierce
The ear with trumpet sound,
Your notes, but for The Miner-lad,
He slumbered under ground-
Nor imaged bronz , nor brazen gate,
Had graced the trophies of the great!

***

Then don't refuse the Miner-lad
The crust of bread-his prayer!
Beneath the blackest face of his.
He hides a heart as fair!
The toil of his bare brawny arm ,
All, All our hearts and houses warm!

(ى) وأختتم هذه النماذج بقصيدة جيولوجية ذاتية كنت قد كتبتها فى عام ١٩٨٢ عندما عُينت للمرة الثانية عميدًا لكلية العلوم وآثار هذا بعضَ الحاقدين فتعرضتُ لحملة افتراءات ظالمة منهم فسريت عن نفسى بهذه الزفرة التى أسميتها « طلاع الثنايا » :

تخرّس حُسادي عليَّ ورددوا   أراجيف في حقي للمز مقاميا
فقالوا : « لهذا منصب ناله نحا   بيا » ، وهمُ لا يعلمون كفاحيا
وقالوا : « أيُحبى المرء قلبين ، واحدا   لعلم ، وللآداب والفن ثانيا ؟
فلا ، لا يهاتر هؤلاء جهالة   فإنى إذا أهجو أليم هجائيا
ولست بهاجٍ ، بل مبين حقائق   تدين افتراءً منهمُ وتجنّيا
فإن لهم عذراً ، ولست ألومهم   على جهلهم قدرى ، فليسوا لداتيا
أساء إلى قدرى قبولى خطابهم   وأنّى لغوغاء بفهم خطابيا ؟!
فإنى أجيد الصنعتين ، تراهما   لدىَّ أفانينا ، وطوع بنانيا
قضيت شباب العمر درسا وشيبه   لحذقهما حتى ملكت النواصيا
فكنت جُلوجيا ثلاثين حجةً   وسبعا ، دؤوبا ، لايشق غباريا
وقد دان لى علم الصخور مسلّماً   عنانا ، وفى الآداب كنت مجلّيا
دأبت أجوب الأرض أكشف خبأها   لنفع بلادى كى تحوز الأمانيا
ذرعتُ الهضاب الوعر أرقى شعابها   وأعبر آكاما ، وأطوى بواديا
وكم قدت رحلات بدشت غليظة   يعالج شاكوشى صخوراً عواتيا
وكم جبتُ أصقاعاً تجمّد ماؤها   وأخرى حراراً فى الصعيد العمانيا
وبينهما كم من جبال رقيتها   بصحراء سينا ، والصعيد النوبيا
وأخرى تناءت فى قلوب مهامه   وفى كل تيه كم ضربت خياميا
ومازلت طلاع الثنايا أرومها   وفى كل أعمالى أروم المعاليا
ففى أدبى طوراً ، وطوراً بمهنتى   لمعتُ ، وآثارا تركت بواقيا
وفى مجمع للخالدين يليق بى   مكانى ، فكرسى العميد* مكانيا

محمد يوسف حسن

عضو المجمع

---

* كرسى المغفور له الدكتور طه حسين الذى أشغله بمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ عام ١٩٧٤

الأساس الإسلامى للعلم العالمى

حضارة سَدَاها الإسلام ولُحمتها العلم

للأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمى محمد

إن أفضل وأوجب ما ينبغى على المسلمين اليوم، وهم فى مهبٍّ رياح عاتية، هو أن يجدّدوا تعرّفهم جوهرَ دينهم الذى قدَّم للبشرية حضارة نقية تقية ذات طابع فريد ، مازالت وريثتها الغربية تزدهر إلى اليوم ، ولكن بصورة جموح هوجاء وفى غير بلادهم . وحضارة الغرب تلك السائدة الآن هى حضارة علمية فى أساسها فنحن نعيش الآن عصر العلم ولا شك ، نعيش معه فى كل لحظة ،نستمتع بثماره ، ونكتوى للأسف أيضا بناره . فَلْنُسَمِّهِ عصر الطاقة النووية ، أو عصر الإلكترونيات ، أو عصر غزو الفضاء أو عصر التكنولوجيا البيولوجية ، أو البيولوجيا الجزيئية والهندسة الوراثية . . . ولكنه عصر العلم والتكنولوجيا أو التقانة المتولدة عنه ، على كل حال . .ولذلك ، وبحكم اختصاصى، سوف أقصر كلامى على التراث العلمى الإسلامى ، فى حين تجلّى الدراسات القيمة الأخرى الجوانب الزاهرة والمتعددة من حضارة الإسلام ، وهى مرتبطة كلها – على أية حال– بالعلم بمعناه الشامل العام.

والأمم ماض وحاضر ومستقبل : أصول جذورها مستمدة من ماضيها ، وجهودها مبذولة لحاضرها ، وتطلعاتها متوجهة إلى مستقبلها . وتضلّ أمة من الأمم إن هى جهلت ماضيها أو تناسَته ، فتصبح كالشجرة غير ثابتة الجذور إذا عصفت بها الأنواء . وتَعرُّفُ الجوهر وتقدير التراث ينبغى أن يقوما على أسس موضوعية رصينة ، منزهة عن التفاخر الأجوف والمبالغة الخرقاء . ولسنا – بفضل الله – فى حاجة إلى شىء من هذا ، فكل دراسة مدققة متأنية سوف تثبت ، بما لا يدع مجالا للشك ، أن أمتنا أرست القواعد والأصول ، وأننا كنا صناع علم ، بل كنا قادته لعدة قرون ، ومِنْ ثَمَّ لا نشعر بغربة ونحن نستورد العلم ومنجزاته هذه الأيام ، فإنما هى بضاعتنا تُرَدُّ إلينا ، فنتناولها فى ألفة واستيعاب ، ونسهم فى تقديمها إسهام الأصلاء ، لا الغرباء الدخلاء .

والحديث فى هذه الأمور يطول ، وتنظم له مؤتمرات ، وتؤلف مجلدات ، وتنشر دوريات . ولكن لعله يكفينى فى هذه الدراسة الموجزة أن أُجْمِلَ بعض الأساسيات ، وأن أوضح أن ازدهار العلم فى دولة الإسلام ، التى امتدت يوما من مشارف الصين شرقا إلى مشارف فرنسا غربا ، لم يكن نتيجة مجرد ارتباط جغرافى أو سيادة تاريخية ، بل كان مرتبطا ارتباطاً وثيقاً بالإسلام نفسه ، كشريعة ومنهاج حياة ، وأن الإسلام جاء متضمنا فى صميم مبادئه عناصر أثَّرَتْ تأثيرا بيّنا فى نشأة العلم الإسلامى وصياغته على نحو فريد متميز تميزا نوعيا عن التراث العلمى الذى سبقه ، بل حتى عن العلم العالمى المعاصر الذى تولد منه . وأرى أن هذه العناصر هى :

١ - نظرة الإسلام للعلم ، وتقديره للعلم والعلماء .

٢ - سماحة الإسلام ، ونظرته إلى حرية العقيدة والرأى وإلى القيمة الإنسانية العامة والمؤاخاة بين المسلمين على اختلاف ألوانهم وأعراقهم ، مع احترام حقوق الآخرين وآرائهم .

٣ - دور اللغة العربية ، لغةً للقرآن الكريم وللدولة الآخذة فى الاتساع ، دون تعسف أو إجبار .

٤ - نظرة الإسلام المتكاملة إلى الحياة .

وسوف أعرض لهذه العناصر الأربعة، المتداخلة بطبيعتها ، بشىء يسير من التفصيل ، مؤصِّلاً إياها من مصدَرَىْ شريعة الإسلام الغراء :من القرآن الكريم ، ومن السنة النبوية الشريفة .

الإسلام والعلم

أما عن العنصر الأول ، فاحتفال القرآن الكريم بالعلم والعلماء معروف مشهور ، ويكفى للدلالة على هذا التكريم العظيم للعلماء فى قوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ﴾ (آل عمران : ١٨) . فهكذا يوضع العلماء فى منزلة هى غاية التشريف ، ثم يُعْتَدُّ بشهادتهم مع شهادة الله ، عز وجل ، وملائكته الأبرار . والمؤمنون كلهم يشهدون أنه لا إله إلا الله، ولكن هذا التشريف للعلماء يدلنا على أن شهادتهم لها وزن مختلف لأنها تقوم على أساس مختلف ، وهو إدراكهم ووعيهم بمعنى العدل والقسط فى أفعال الله ، فكل شىء عنده - سبحانه وتعالى - لحكمة وبمقدار ، وهم أقدر الناس على فهم ذلك . ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ﴾(الزمر : ٩) .

ويتجاوب هذا المعنى فى نفسى مع ذكر خشية العلماء لله فى موضع آخر : «ألم تَرَ أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحمر مختلفٌ ألوانُها وغرابيب سود . ومن الناس والدوابِّ والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك ، إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ، إن الله عزيز غفور » . (فاطر : ٢٧ . ٢٨) .

فخشية الله الحقة قد وَقَرَتْ فى نفوس العلماء بعد تنبههم إلى هذا التنوع الرائع فى مخلوقات الله . . والتنوع مع الوَحْدة إعجاز فى الخلق ما بعده إعجاز . وفى هذا إشارة إلى أن معرفة أولئك العلماء بأصول هذا التنوع وبعض أسراره المذهلة فى صميم جينات الأحياء وتاريخ تكوين الصخور ، والتى ما زال العلماء يكشفون منها كل يوم جديدا ، هى التى تبعث فى نفوسهم الخشية اللائقة بجلال بديع السموات والأرض وعظيم قدرته . والعلم الذى يشير إليه القرآن الكريم هو كل العلم على إطلاقه واتساعه ، والعلماء هم كل العلماء ، وليسوا علماء الدين وحدهم كما زعم بعض المتزمتين .

ونعرف من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم أن مادة « علم » وردت فى الذكر الحكيم بمشتقاتها ٨٥٥ مرة ، وهذا وحده له دلالته . وشىء يسير من استقراء لفظ العلم فى القرآن الكريم يجلو لنا الأمر. فعندما يخاطب الحق ، جل شأنه ، رسوله صلوات الله عليه ، فى سورة البقرة : « . . قل إن هُدَى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » (١٢٠) ، وفى سورة طه : « . . ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه ، وقل ربِّ زدنى علما » - (١١٤) ، فالعلم هنا هو ولا شك العلم الإلهى اللدنى بمعناه الشامل . أما فى موضع آخر من سورة البقرة : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم » - (٣١، ٣٢) ، فكتب التفسير تقول - من بين ما تقول - إن الله علم آدم « أسماء الأجناس وعرفه منافعها » . . . وهذه هى علوم الدنيا اللازمة لخليفة الله فى أرضه . وكذلك عندما يلفت الخالق المبدع أنظارنا إلى بعض أوجه حكمته فى خلق القمر : « وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » (يونس : ١٥)، فالعلم هنا بمعنى ما يحصله الإنسان فى حياته ، أى بمعنى كل ما يدركه عن طريق حواسه وفكره .

وإنك لو حاولت أن تتتبع الفعل «علم» فى القرآن الكريم ، لوجدته منسوبا إلى الله تعالى ، وإلى الناس فُرادى وجماعات وبالتعميم والتخصيص وفى أزمنة مختلفة ، وإلى الجنة وإلى النفس ... إلخ . وليس هذا على سبيل الحصر ، وإنما للدلالة على اتساع معنى اللفظ ، فى اللغة والاستعمال القرآنى ، حتى يشمل العلم المنسوب إلى كل هؤلاء الفاعلين المختلفين والمتفاوتين فى نوع علمهم ومقداره وقدره .

والقرآن الكريم حافل بذكر آيات الله فى خلقه متخذا من التفكر فيها مدخلا رحيبا إلى الإيمان بالله ، عن طريق استشعار وحدانيته سبحانه وإدراك قدرته وبديع صنعه . ويتخذ القرآن الكريم أساليب بلاغية متنوعة فى الدعوة إلى النظر فى هذه الآيات ، فهو تارة يأمرنا بذلك أمرا صريحا : «قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ...» (يونس : ١٠١)، « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ...» (الأنعام : ٩٩).وتارة أخرى يحضنا على هذا حضا جميلا : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت » (الغاشية : ١٧ - ٢٠) ، فى حين يأتى هذا فى مواضع أخرى بصيغة تقرير قاطع : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ...» (الأعراف : ١٨٥) . بل إن الأمر بالنظر يقترن فى مواضع أخرى بضرورة السعى والحركة وديناميةالبحث : « قل سيروا فى الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلقَ .. » (العنكبوت : ٢٠) .

وهذه الصيغ كلها عندما تكون صادرة من رب العزة تنزل فى نفس المؤمن منزلة الأمر . فالمسألة عنده إذن فريضة وتكليف. ولكن من البديهى أن يتفاوت هذا التكليف بالنظر فى آيات الله من إنسان إلى إنسان ، إذ إن نظر الناس يتفاوت بتفاوت استعدادهم ومقدرة إدراكهم وحصيلة معارفهم ، ولكنها دعوة مفتوحة- على الدوام - للبحث والتفكر والتأمل .

ومن ناحية أخرى يتوجب على العلماء الأكفاء أن يستعينوا بالمعارف الصحيحة المعاصرة فى فهم تفسير القرآن الكريم ، وفق ضوابط دقيقة من علوم الشريعة واللغة ، كما فعل السلف الصالح فى كل عصر ، دون تمحل أو افتعال (عبد الحافظ حلمى محمد ، ١٩٨٢) . وفى حدود منهاج دقيق رسمته لنفسى ، عدت - مثلا - إلى موضوع خلق الإبل ، الذى وُجِّهنا إلى النظر إليه فى سورة الغاشية ، عدة مرات طيلة نحو ثلث قرن من الزمان ، وفى كل مرة كنت أجد علما حديثا صحيحا يضاف مؤيدا أن الإبل معجزة فريدة فى الخلق ، قُصدت بذاتها ولم تذكر لمجرد كون الإبل مثالا مألوفا لعرب الصحراء ، كما كان يروج بعض البسطاء أو الخبثاء (عبد الحافظ حلمى محمد ، ١٩٦٥ ، ١٩٨٢ ، ١٩٩٣) .

وجاءت السنة النبوية الشريفة مؤازرة ومفسرة لهذه التوجيهات القرآنية الربانية ، ومرشدة إلى كيفية اتباعها ، فيبشرنا الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، بأن مجلس العلم ، مجلس مبارك إن شاء الله ، تحفه الملائكة ، وتنزل عليه السكينة ، وتغشاه الرحمة ، ويذكره الله فى الملأ الأعلى . بل إنه ، صلى الله عليه وسلم ، يزيدنا سعادة بقوله « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رِضاً بما يصنع ، وإن العالِم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، حتى الحيتانُ فى الماء . وفضل العالِم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . . . » . ومثل هذا فى السنة الشريفة كثير .

وتعلم المسلمون هذا الدرس وفقهوه . فيقول الإمام الشافعى ، رضى الله عنه : « طلب العلم أفضل من صلاة النافلة » ، ويقول أبو الدرداء : «مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليل » . ويقول الحسن البصرى : « يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلماء ». وليس بالمستغرب بعد هذا أن يكون ثانى كتاب فى صحيح البخارى بعد « كتاب الإيمان » مباشرة ، هو « كتاب العلم » . أما أبوحامد الغزالى فقد قسَّم « إحياء علوم الدين » أربعين كتابا ، أولها جميعا هو «كتاب العلم » . ونشط المؤلفون إلى تصنيف كتب كثيرة فى العلم وآدابه ، لعل من أوفاها « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر القرطبى فى القرن الخامس الهجرى . ولا مراء أن معظم هؤلاء المؤلفين ينصرف لفظ « العلم » عندهم إلى علم الحديث بالذات فى المحل الأول ، ولكننى أسارع بالتنويه بأمرين : أولهما هو ما قدمته من عموم لفظ « العلم » فى اللغة وفى الاستعمال القرآنى . وثانيهما أن منهاجية توثيق العلم - أى علم - قد أسسها وأقامها على أحكم وجه علماء رواية الحديث الشريف . وعلى أية حال يزول هذا اللبس تماما لكل من يطلع على كتاب ابن عبد البر وعلى الكتاب القيم الممتع الذى ألفه فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى بعنوان « الرسول والعلم » (١٩٨٥) ، والذى يعالج فيه «العلم» على أوسع معانيه وأشملها ، ويفخر بحق أنه لم يعتمد فيه إلا على الصحيح والحسن من الأحاديث ، ففاق بذلك الإمام الغزالى الذى لم يلتزم بهذا القيد .

وأول ما يفتح الباب أمام العلم الصحيح هو إزالة حجب الأوهام والخرافات . كُسفت الشمس يوم مات إبراهيم ، الابن الحبيب للنبى عليه الصلاة والسلام ، فقال الناس : انكسفت لموت إبراهيم . وهنا ينبرى النبى المعلم الهادى ، فيقول للناس : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » . فيعرف المسلمون أن الشمس والقمر يجريان على سنن أقامهما الله عليها. وفى ضوء هذا الإرشاد وأمثاله من القرآن الكريم والسنة المشرفة ، والتفتح العقلى على علم الأسبقين ، برع المسلمون فى دراسة الفلك واكتشاف نواميسه . ولكن هناك خط فاصل بين علم الفلك وخرافات التنجيم ، يحدده الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فيقول : « من أتى عرّافا فسأله عن شىء فصدّقه ، لم تُقبل له صلاةُ أربعين يوما » .

ثم ينبغى أن يكون هناك منهاج علمى. وأول أسسه تلمس البرهان الصحيح والدليل المقنع . وفى هذا يعلمنا القرآن الكريم : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (النمل : ٦٤) . ويحذرنا معلمنا الهادى ، صلى الله عليه وسلم ، فى ضوء الأحكام القرآنية القاطعة: « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث». وتتآزر آيات القرآن الكريم والأحاديث الصحاح فى حث المسلمين على تحكيم العقل والتحذير من اتباع الهوى والانقياد الأعمى لأقوال السابقين . ومن منهاج العلم أيضا ، الدقة والأمانة ، وهما فيما أرى ، شعبتان من القاعدة العامة التى يسميها الإسلام « التقوى » ، أى مراقبة الله فى كل ما نفعل أو نقول . وفى هذا يقول الرسول ، صلى الله عليه وسلم : «تناصحوا فى العلم ، فإن خيانة أحدكم فى علمه أشد من خيانته فى ماله ، وإن الله سائلكم يوم القيامة » . ومن الأمانة أن يقول الإنسان : « لا أعلم » فيما لا يعرفه. سئل الرسول ، أمام الملأ من الناس عن الساعة (أى يوم القيامة) فقال بقطع ووضوح : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » . وهكذا نجد ابن عبد البر يقول إن حد العلم - أى تعريفه - هو « ماتيقنته وتبيّنته » و « على هذا فمن لم يستيقين الشىء وقال به تقليداً فلم يعلمه » . وكل هذا نجده فى المناهج العلمية الرائعة التى كتبها النظّام وابن الهيثم والبيرونى والرازى وابن سينا ، وغيرهم من أعلام علماء المسلمين . وقد كانت قضية المنهج عند علماء المسلمين موضع عناية خاصة من الباحثين المحدثين (انظر ، مثلا : فرانتز روزنتال ، ١٩٨٠) .

ثم كان علـى المسلمين أن يفقـهوا فى تبيُّن ووضوح الحدّ الفاصل بين ما هو من الدين والوحى وما هو من علوم الدنيا التى يجب عليهم أن يكتسبوها بالدراسة والملاحظة والتجربة العملية . وكان أسلوب النبى ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى تعليم صحابته ، رضوان الله عليهم ، هو الأسلوب العملى والأسوة الحسنة . ففى مناسبة تأبير النخل فى المدينة المنورة ، أرسى النبى ، صلى الله عليه وسلم ، القاعدة العظيمة التى أراد أن يسير عليها المسلمون فى جميع عهودهم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . وقال لهم : « إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى ، فإنما أنا بشر». ما أعظمك يا رسول الله ، ففى هذا توجيه للناس إلى ضرورة اعتمادهم على تجاربهم الشخصية والاستنباط الصحيح من نتائجها. ومن أبلغ ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ، لحث الناس على التفكير وإطلاق عقولهم من كل قيد ، أنه أخبرهم أن للمجتهد أجراً إذا أخطأ وأجرين إذا أصاب . **فلماذا إذن يحجم المسلمون عن التفكير ومحاولة الإبداع ، وهم مأجورون على كل حال ، ما داموا يجتهدون بعد أن تتوافر لهم شروط الاجتهاد وأدواته ؟ ليت أقواما من أبناء هذا الزمان يفقهون هذا القول .**

عند الاستعداد لمعركة بدر الكبرى ، اختار النبى منزلا ، أى موقعا ، قريبا من الماء كى يرابط عنده المسلمون استعداداً للقاء المشركين . وهنا تقدم إليه الحباب بن المنذر الأنصارى ، يسأل : يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزل ، أنزلكهُ الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال الرسول ، صلى الله عليه وسلم « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » . فأشار الحباب بمنزل استراتيجى آخر أفضل وأحصن من سابقه . فوافق الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وقال له : « لقد أشرتَ بالرأى». والدروس كثيرة وعظيمة : الاجتهاد المفتوح فى أمور الدنيا ، حتى فى حضرة النبى نفسه وعلى خلاف رأيه . وهناك الشورى، وهناك سعة صدر القائد وتواضعه وسعيه إلى الحقيقة والمصلحة العليا . وهناك أيضا الشجاعة الأدبية عند الجندى ووضوح فلسفته بين التزام الطاعة وحرية الرأى ، ودقته فى أن يستبين الحد الفاصل بين ما هو من أمر الوحى الإلهى ، وما هو من واجبات الاجتهاد البشرى . ومرة أخرى ، **ليت قومى يفقهون .**

وهكذا نطمئن إلى انتفاء أية وصاية على طلب العلم والاجتهاد بالرأى ، وإلى أن المسلمين أمروا أمراً بطلب العلم والتوصل إليه بمداخله الطبيعية ، بالملاحظة والتجربة والتفكير السليم .

سماحة الإسلام

وأما عن العنصر الثانى ، وهو سماحة الإسلام ، فأدلته معروفة مشهورة أيضا . «لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغىّ . . » (البقرة ٢٥٦) . ويحترم المسلمون الأديان السماوية السابقة ولا يفرقون بين أحد من رسل الله ، وهذا جزء أساسى من إيمانهم وعقيدتهم . ولما كان الإسلام هو الدين الخاتم فهو دين الناس جميعا ، يُدْعون إلى الدخول فيه اختياراً واقتناعا ، كما أن النبى ، عليه الصلاة والسلام ، هو خاتم النبيين والمرسلين ، الذى أرسل إلى جميع الناس: « وما أرسلناك إلاَّ كافة للناس بشيراً ونذيراً » (سبأ : ٢٨) .

وأعلن النبى ، صلى الله عليه وسلم، أنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى . ولذلك كان من صحابته الأجلاء سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، وكان يستشيرهم ويأخذ برأيهم . فمن ذلك ما حدث فى غزوة الأحزاب ، حين أشار سلمان الفارسى رضى الله عنه ، على الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بحفر خندق حول المدينة ، وهى فكرة غير عربية أربكت جيش المشركين . ثم إن الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، علَّم المسلمين أن الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها ، وأن العلم يؤخذ (فى غير أمور الدين) ولو من عند المشركين . فأمر النبى سعد بن أبى وقاص بالتداوى عند الحارث ابن كَلَدَة ، غير المسلم والذى تعلم الطب فى فارس . واستعان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بدليل خرِّيت ، أى حاذق ، غير مسلم ، وهو عبدالله بن أريقط ، فى رحلة هجرته الخطيرة إلى يثرب .

وهذان العنصران معاً ، أى تقدير الإسلام للعلم وسماحته ، جعلا من العقلية الإسلامية عقلية متفتحة متعطشة للعلم ، تسعى لكل علم نافع ، ولو فى الصين ، وتتقبله دون عائق من جنس أو لون أو دين . وهكذا لما انتشر الإسلام، واختلط العرب بغيرهم من الأمم ، هبُّوا ليقوموا بأكبر عملية نقل وحفظ للتراث العلمى للإنسانية فى التاريخ فقد تُرجمت العلوم من الإغريقية والسريانية ، وبدرجة أقل من السنسكريتية والبهلوية ، إلى اللغة العربية . وقد بدأت الترجمة مبكرا من أواخر القرن الهجرى الأول فى عهد

بنى أمية . قام بها وأشرف عليها خالد بن يزيد ابن معاوية ، الذى درس فى مدرسة الاسكندرية ، واستقدم فلاسفة اليونان الذين يتقنون العربية ، وأجزل لهم المكافأة . ولكن الترجمة ازدهرت بصورة خارقة فى العصر العباسى ، فأنشأ هارون الرشيد ، الذى كان يقبل الجزية كتبا ، «خزانة الحكمة» ، وهى مكتبة ومركز للترجمة أشرف عليه أبو زكريا يوحنا بن ماسويه ، ثم أنشأ المأمون «بيت الحكمة» فى بغداد فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، وكان من العاملين فيه بنوموسى المسلمون، وحنين بن إسحق النصرانى ، وثابت بن قرة الصابئى . وفى هذا العصر لمع أيضا آل بختيشوع الأطباء والمترجمون السريانيون .

والعلم العربى الإسلامى كانت له أصول متعددة ومتشابكة ، فمن عصور ما قبل التاريخ المدون كانت هناك أم الحضارات فى مصر ، وكانت حضارة ما بين الرافدين البابلية والأشورية . وقد بلغت الرياضيات والطب مستوى رفيعا فى هذه الحضارات الأصيلة القديمة قبل أن يتناولها الإغريق بالتنظير والتطوير . ولا يستطيع أحد إنكار دور الإغريق العظيم فى تقدم العلوم (على قصوره من نواح معينة ، كما سوف يأتى فيما بعد) ، ولكن من الخطأ الفادح أو الجهل الفاضح اعتباره هو الدور الوحيد - كما يفعل بعض مؤلفى الغرب من أنصاف العلماء ، فقد كان له ما قبله . ثم استمر وفود علماء الإغريق إلى الإسكندرية ليتتلمذوا على علمائها . ومن أولئك الوافدين فيثاغورس الرياضى الكبير . وبعد أفول دولة الإغريق والرومان (البيزنطيين) انتقل مركز الحضارة كله إلى الاسكندرية ، حيث تفاعلت حضارات مصر والإغريق والشرق ، لتنتج عهدا جديدا متميزا من عصور العلم (منذ نحو ٣٠٠ سنة قبل الميلاد) ، هو العصر السكندرى ، أو الهلنستى ، يزهو بعلماء من أمثال إقليدس وبطليموس وأرشميدس وجالينوس ، وهى شخصيات أصبحت مألوفة فى العلم الإسلامى فيما بعد . وكان للاسكندرية فروع فى سيراكوز فى صقلية، وأنطاكية فى الشام ، وبرجامون فى آسيا الصغرى ، وجنديسابور فى جنوب فارس . وكانت مكتبة الإسكندرية تضم أكثر من ٧٠٠٠٠ مؤلف واستمر العهد السكندرى نحو تسعة قرون إلى مطلع الإسلام .

والجو المرحب بالعلم والحانى على العلماء فى دولة الإسلام الفتية حفظ تراث الإنسانية العلمى من الاندثار ، وجعل جداول العلم التى كادت تنضب ينابيعها فى مصر القديمة وبلاد اليونان والإسكندرية وفارس وجنديسابور والهند والصين ، جعلها تصب فى بحر صافٍ جديد . ومضت حركة النقل العظيمة قدماً ، واستمرت نحو ١٥٠ عاماً ، انتقلت بعدها كنوز الحضارات السابقة وعلومها إلى اللغة العربية ، وأصبحت ميسورة للمتعلمين والباحثين فى كل علم ، يتناولونه بالفهم والتمحيص والتحليل الدقيق والنقد الثاقب ، فى أمانة بالغة وأدب جم ، ثم يبتكرون علومهم ويضيفون آراءهم ونتائج بحوثهم ، ويصوغون العلم صياغة لها أهداف وقيم جديدة ، فيخرج علما جديدا قويا عمليا عالميا . وهذا هو الشيء العظيم الذى قد لا ينتبه إليه الدارسون ، وهو تحويل العلوم - لأول مرة فى التاريخ - إلى مسألة عالمية وإلى تراث إنسانى يثور على القوميات والتعصبات الضيقة . وهكذا انصهرت الحضارات السابقة فى بوتقة الحضارة الإسلامية المتفتحة السمحة الفتية . ولعل هذا هو أعظم أفضال الإسلام على العلم ، الذى تلقفته أوروبا - على تردد وصد - علما موحدا ناضجا، هُضم ومُثّلَ وأُعيدت صياغته فى صورة جديدة ، فكان هذا من أقوى دعائم ازدهار العلم منذ عصر النهضة فيما بعد ، والذى نعيشه الآن ، ونسميه العلم الغربى .

العربيّةُ ، لغةٌ للعلم

ويتصل العنصر الثالث بهذه النقطة التى انتهينا إليها ويكملها . . . ألا وهو لغة العلم ، فقد أصبح لهذا العلم الذى جاء من أقطار الأرض لغةٌ واحدة ، هى لغة القرآن الكريم التى يعتز بها كل مسلم . بل إنها قد أصبحت - طواعية واختياراً - لغة الحياة فى معظم أرجاء العالم الإسلامى ، فحلت تماما محل القبطية ، والآرامية ، واليونانية ، واللاتينية ، وأصبح معظم العالم المتحضر يتحدث اللغة العربية . وألف أبو بكر الرازى ، المولود فى فارس، كتبه العظيمة فى الكيمياء والطب باللغة العربية ، وكذلك فعل البيرونى ، الذى عشق العربية ، وقال إنه لأحب إليه أن يُهجى بها من أن يمدح بالفارسية !

وسرعان ما أصبحت العربية لغة العلم لعدة قرون ، حتى أن إتقانها كان شرطا للتعلم والاشتغال بالعلم خارج نطاق الدولة الإسلامية . وقد كتب روجر بيكون، فى القرن الثالث عشر الميلادى ، يقول : إنى لأعجب لمن يريد أن يتضلع فى الفلسفة والعلم وهو لا يعرف العربية !

وتوحيد لغة العلم والحضارة والحياة ، كان له أثر آخر بعيد المدى . فإنه قد أزال الحواجز بين لغة العلماء ولغة الشعب ، مما جعل مفاهيم العلم ونتائجه ومبتكراته متاحة لجماهير الشعب ، للثقافة والتطبيق . وهكذا لم يصبح العلم عالميا فحسب ، وإنما أصبح جماهيريا شعبيا أيضا . وهذه نقلة حضارية بعيدة المدى ، ولم يسبق لها مثيل . فلنتأمل ، ولنوازن بين هذا الموقف وقيام العلم فى أوروبا فى عصر النهضة ، فقد كان تداوله والاشتغال به هناك - إلى عهد غير بعيد - مقصوراً على الذين يتقنون اللاتينية الميتة البعيدة عن الحياة والناس .

وأبلغ مثال عندى على شعبية الثقافة العلمية فى دولة الإسلام ، هو قيام جماعة « إخوان الصفا » فى البصرة فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (أو العاشر الميلادى) . فهذه الجماعة هى جمعية علمية تعليمية تثقيفية فى المحل الأول . ويقول مؤرخ العلم الحجة هوليارد E.J. Holmyard فى افتتاحية عدد ابريل ١٩٤٨ من الدورية العالمية اللندنية Endeavour إنها واحدة من أقدم الجمعيات العلمية التى تحققنا من وجودها ، وإن اهتمامات أعضائها لتتفق كثيرا واهتمامات الذين أقاموا الجمعية الملكية فى لندن بعد قرون . وقد ألف الإخوان رسائلهم الاثنتين والخمسين الشهيرة فى مختلف أبواب الفلسفة والعلم ، لتذيع بين طلاب الثقافة العلمية فى عصرهم . وتقع الرسائل فى إحدى طبعاتها الحديثة ، فى زهاء ألفى صفحة موزعة على أربعة مجلدات . وهى عمل متكامل يعرضه الإخوان عرضا تعليميا تربويا شائقا ، وبأسلوب سلس يتفق وتناول العلوم . وإنك لتجدها تشبه أسلوب الكتابة فى عصرنا الحاضر ، إلا أنها عموما أحلى وأفصح . وقد أصاب طه حسين حين قال عن الرسائل : « ليس من الغلو أن يقال إنها قاربت المثل الأعلى فى تذليل اللغة العربية وتيسيرها لقبول ألوان العلم على اختلافها (طه حسين ،

١٩٢٨ : ١٥) . وعلى الرغم من الذخيرة العلمية الهائلة التى تحفل بها الرسائل ، هى فى تقديرى لاتقدم إلا ما رآه صفوة من علماء ذلك العصر الحد المناسب للثقافة العلمية فى الموصوعات التى طرقوها ، فهى ليست كل علم عصرها ! وهذا المقدار الأساسى من الثقافة العلمية فى القرن الرابع الهجرى ، يجعلنا ندرك إمكانات التقدم الهائلة التى كانت كامنة فى تلك الحضارة العظيمة ، ولكن حالت أحداث دون بلوغها غاياتها ، ولو أنها كانت المرتكز الأصلى لحضارة الغرب التى نعيشها هذا الزمان (عبد الحافظ حلمى محمد ، ١٩٩٢) . ومن أبرز ما يلفت نظر قارىء هذه الرسائل أيضا سماحة كُتّابها ، وعدم تعصبهم ، وهذا يؤيد ما قلناه من قبل عن سماحة الإسلام .

وتوحيد لغة الحياة ولغة العلم له أثر آخر بعيد المدى وأعم من أثره فى نشر الثقافة العلمية ، وهو تيسير التعليم والتعلم★ . والرسول ، صلى الله عليه وسلم ، جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأعلى منزلة التعليم. خرج ذات يوم فرأى مجلسين ، أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه ، والثانى يعلّمون الناس ، فقال : « أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس ، وإنما بعثت معلما » . ثم عَدَلَ - أى اتجه- إليهم وجلس معهم .

وقد اتخذت فى حجرتى بالجامعة حديثا شريفا شعاراً لى : « إن العالم والمتعلم شريكان فى الأجر ، ولا خير فى الناس بعد » . وطبيعى وجميل أن يكون للمعلم أجر عند الله ، ولكن أبلغ من ذلك وأجمل أن يكون للمتعلم أيْضا - وهو المستفيد - أجر ، لأنه سعى إلى التعلم . ولكن الشطر الثانى من الحديث الشريف كان يثير تساؤل طلابى ، إذ كيف يُستبعد الخير من جميع الناس ، إن لم يكونوا أساتذة أو طلابا ؟ بيد أن المتأمل يكتشف المغزى العميق الذى يرمى إليه الحديث الشريف الذى يريد أن يجعل كل شخص فى المجتمع طالبا للعلم ، بالبحث أو القراءة أو تلقى العلم أو اكتساب الخبرة، ثم معلما غيره ما توصل إليه . وهكذا يتحول المجتمع كله إلى نشاط علمى تعليمى يرفعه إلى ذُرى الحضارة والتقدم .

★ يدرك كثير من المفكرين الأهمية البالغة لهذا التوحيد ، ويدعون لاستكماله بتعريب تدريس العلوم فى الجامعات العربية فى الوقت الحاضر (عبد الحافظ حلمى محمد ، ١٩٨٠ - ب) .

وقد رسم الرسول ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، تفاصيل آداب التعليم والتَّعلُّم ، من توقير وإجلال للمعلم ، وعطف على المتعلم ، وتشجيع للمصيب ، ورفق بالمخطىء ، وتكرار للشرح ، وضرب للأمثال ، واستعمال لوسائل الإيضاح وأسلوب الحوار . وفى هذا كله حديث يطول (انظر ، مثلا : يوسف القرضاوى ، ١٩٨٥) . وأكتفى بقوله ، عليه الصلاة والسلام : « علموا ، ويسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا . . . » . وقد أوصى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالترحيب بالمتعلم والبشاشة له ، وإكرامه . ولذلك كان العلماء من التابعين يرحبون بمن يقصدهم للعلم قائلين : مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نظرة الإسلام المتكاملة للحياة - العلم والقيم ، وسوشيولوجية العلم

وهذا العنصر الرابع ، وهو نظرة الإسلام المتكاملة للحياة ، مرتبط بالعنصر السابق ، بل فى الواقع بالعناصر الثلاثة المتقدمة جميعا ، فهى كلها متداخلة متآزرة . وأصل القضية أن العلم الغربى عندما بدأ فى عصر النهضة على أكتاف العلم الإسلامى ، تجرد من كثير من مُثله الإسلامية الأصيلة وقيمه الرفيعة . فقد بهت الناس بالكشوف العلمية وافتتنوا بها غاية الافتتان ، وتصور بعضهم أن العلم وحده هو الحقيقة وأن الدين حديث خرافة ،وقالوا إن العلم يقيس ويحسب ويضع القوانين الصادقة ويعالج موضوعات تدركها حواسنا وفيها أسباب معاشنا ورفاهنا ، فما لنا حاجة بعدُ بما وراء ذلك.

واتخذ العلم عموما موقفا صلفا متعاليا مغروراً ، متجردا من أى قيم دينية أو أخلاقية أو إنسانية ، أو يكاد . بل إن القوم قالوا إن العلم الجيد الحق هو الذى يبرأ من هذه الأمور جميعا . وقوّى من هذا الموقف أن رجال الدين فى أوروبا ناصبوا العلم منذ ظلام العصور الوسطى عداء سافرا ، واضطهدوا العلماء اضطهاداً مريراً ، وكان لذلك أسبابه السياسية والتاريخية . وقد أدى هذا إلى شق المجتمع إلى جزئين ، أو إلى أهل ثقافتين متعارضتين غير متفاهمتين ، على قول الفيلسوف سنو C.P. Snow فى الستينات من هذا القرن وهما : ثقافة الإنسانيات (ومنها علوم الدين) وثقافة العلوم

الطبيعية الحديثة . ولما استوردنا نحن العلم الغربى وتطبيقاته ، استوردنا ضمنا هذا الموقف العدائى المفتعل بين العلم والدين . وأذكر أننا كنا ننظم عام ١٩٧٩ برنامجا للأسبوع الثقافى السنوى للمجمع المصرى للثقافة العلمية ، فاتفقنا أن يكون محوره « نحن وتحديات العصر » ، واخترت أن أتناول أنا قضية « الفجوة المتوهمة بين الدين والعلم » لأننى اعتبرت أن عبور هذه الفجوة خطوة مهمة لدخول جماهيرنا - المؤمنة بطبيعتها - عصر العلم (عبد الحافظ حلمى محمد ، ١٩٨٠ - أ).

وهذه المشكلة لم تكن قائمة أبدا فى العلم الإسلامى . ويرجع الفضل فى هذا ببساطة إلى صميم مبادىء الإسلام الأساسية ، كما قدمنا . فالإسلام ليس دينا منفصلا عن الحياة ، بل هو دستور متكامل للحياة كلها ، بجميع مناشطها ، ومشبع للنفس فى كل نزعاتها . والعلم والإسلام متعانقان ، ويكفى للتدليل على هذا تأملنا فى قوله تعالى ، من سورة آل عمران : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ..الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار » . (آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١) . فهنا الإيمان ، متمثلا فى ذكر الله فى جميع أحوال الذاكر ، محصور بين الالتفات إلى آيات الله الكبرى فى خلق الكون ونظامه ، والتفكير فى روائع ذلك وأسراره - وهذا هو العلم كله - ثم ينتهى الأمر بالمؤمن الباحث المتفكر إلى الإيمان بالحساب واليوم الآخر وإلى دعاء الله . . والدعاء مخ العبادة . ولهذا كان معظم علماء المسلمين الأوائل فقهاء متمكنين أيضا فى علوم الدين .

وفى العقدين الأخيرين اتجه فلاسفة العلم فى الغرب اتجاها قويا نحو أمرين : أولهما «العلم والقيم "Science and Value" وسوشيولوجية العلم "Sociology of Science" وأصبحت تؤلف فيهما مجلدات وتعقد ندوات ومؤتمرات ، وتنشأ لهما جمعيات علمية جديدة و دورويات متخصصة ، وكان من أبرز الذين رفعو صوتهم ، في عقد الثمانينات ، بالنذير والتحذير من آثار العلم الغربى المدمرة نيكولاس ماكسويل

الذى تتلخص دعوته فى عنوان كتابه المثير « من المعرفة إلى الحكمة - ثورة فى أهداف العلم وطرائقه » (Maxwell, 1988) . ومن هنا أخذ فلاسفة العلم المحدثون يطامنون من استعلاء العلم ويكفكفون من غلواء العلماء (كما فعلتُ فى محاضرتى عن « الفجوة المتوهمة بين العلم والدين » عام ١٩٧٩) ، وأصبحوا يتادون باجتماعية العلم ، وأن العلم نشاط إنسانى يرتبط بقيم المجتمع فيتأثر بها كما يؤثر فيها (O'Hear,1989) .

وهذه المصالحة التى يحاول الغرب أن يصل إليها ، بعد طول فُرقة وعداء ، كانت عنصراً أساسيا فى الإسلام منذ فجر بزوغه كما قدمنا ، فقد أقام الإسلام العلم وثيق الوشائج بالمجتمع وقيمه . فالعلم يُطلب ويُعطى فى ضوء ما قدمنا من قيم رفيعة وضوابط رشيدة ، ثم إنه يجب أن يكون موجها إلى الخير . فمن ذلك ما تعلمه المسلمون من نبيهم - صلى الله عليه وسلم - من أن يستعيذوا بالله من علم لا ينفع . والمنفعة هنا كلمة شاملة لكل ما يحقق أسباب الخير المادية والمعنوية للبشرية جمعاء ، بل لبيئة الأرض التى استخلف الإنسان لعمارتها ورعايتها .

ولذلك تميز العلم الإسلامى على العلم الإغريقى الفلسفى النظرى فى أساسه ، باهتمامه بالنواحى التطبيقية ، ومن ثم كانت هناك مع النهضة العلمية نهضة تكنولوجية واسعة : فى أجهزة الرصد الدقيقة والساعات ، وأجهزة البحث الكيميائى ، وأدوات الجراحة ، ومعدات الزراعة والرى، ومختلف أنواع الصناعات ،والأساطيل وعدة الدفاع ، وفنون البناء والنسيج ، بل والتزيين ووسائل الترف والرفاهية (انظر ، على الأخص :(Al-Hassan & Hill, 1986

ولا ينتهى إعجابى بابن عبد البر الذى كان فى القرن الخامس الهجرى ، يعتبر السباحة و « الفروسة » والزى (أى صناعة « الموضات ») والتزويق (أو « الديكور ») علوما . وينتقد الجَزَرى (القرن الثانى عشر الميلادى) أولئك الذين لا يتحققون من الجدوى العملية للأجهزة التى يصممونها ، ويقول إن كل « علم صناعة » لم يختبر عمليا مشكوك فيه (المصدر السابق - وتأمل تعبيره : عِلمُ صناعة) .

وعن القيم أحكى لكم الحكاية الآتية ، دعيت عام ١٩٨١ ، للاشتراك فى حلقة بحث مغلقة عقدت فى ستوكهولم ، تحت عنوان « المعرفة والقيم فى العلم والتكنولوجيا ، فى الإسلام والغرب » . وقد دعى إلى تلك الحلقة ، التى نظمتها مؤسسة « الإسلام والغرب » مع الاتحاد الدولى لمعاهد الدراسات المتقدمة ، نحو عشرين عالما من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وانجلترا وفرنسا والسويد وإيطاليا من جانب ، ومن مصر وباكستان والسعودية والأردن من جانب آخر . وكان القوم من علماء الغرب يسألوننا : هل عندكم فى الإسلام ما ينقذ الحضارة الغربية التى كاد يدمرها العلم ؟ . . . وفى إحدى الجلسات ذكرت للمجتمعين معنى الحديث الشريف : « هلاك أمتى عابد جاهل وعالم فاجر » ، وعلقت قائلا : كلا الجانبين فى عصرنا الحاضر ناقصان ، فلو أننا ضممنا ما عندنا من إيمان وهدى الأنبياء والرسل إلى ما عندكم من علم وقوة لانصلح حال الدنيا ونجت من الهلاك . وقال منظم الحلقة السويدى : لو أننا سمعنا بهذا الحديث النبوى من أول الأمر لجعلناه شعاراً لحلقتنا هذه !

وهذا التوجيه النبوى الشريف عبّر عن بعضه شاعر النيل ، حافظ إبراهيم حين قال :

والعلم إن لم تكتنفه شمائل

تعليه كان مطية الإخفاق

ويدعو سردار فى كتابه المنشور عام ١٩٨٩ عن استكشاف العلم الإسلامى (Explorations in Islamic Science) إلى الاهتمام بقضية القيم فى العلم ، ويقول إنه جاب العالم الإسلامى ، من شواطىء السنغال والمغرب إلى المحيط الهادى وجزر إندونيسيا ، بتكليف من المجلة العلمية الذائعة Nature ، فوجد المسلمين المشتغلين بالعلوم الحديثة شديدى الاهتمام بعلاقة أعمالهم بمعتقداتهم الدينية وقيمهم الأخلاقية ، وأن بعضهم شديدو القلق أيضا من ارتباط دراساتهم وأعمالهم بقيم المجتمع العلمى الغربى الذى لا ينتمون إليه (Sardar, 1989) . وأرى ، كما قدمت ، أن تراثنا العلمى قائم على دعائم من القيم والمثل الإسلامية القويمة التى ينبغى علينا تعرفها وتحديدها ونشرها بين علماء المسلمين المعاصرين ، حتى يتبعوها قدر استطاعتهم لترتاح نفوسهم وضمائرهم . (و«سردار» كان أحد المسلمين المدعوين إلى حلقة ستوكهولم عام ١٩٨١ ، التى أشرت إليها) .

ونتيجة هذا الذى فصلنا عناصره كانت شيئا عجيبا حقا ، أذهل كل المنصفين من الباحثين الذين عُنوا بدراسة التراث الإسلامى العلمى دراسة موضوعية دقيقة . فقد قفزت الحضارة الإنسانية قفزة هائلة لا نستطيع فى هذه العُجالة الإشارة إلى بعض ملامحها . ويُعَدُّ القرنان الرابع والخامس الهجريان ذروة النهضة العربية الإسلامية ، وقد ألف آدم ميتز سفره الضخم عن «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، أو عصر نهضة الإسلام» لأنه اعتبر القرن الرابع الهجرى (أو العاشر الميلادى) هو بالذات العصر الذهبى للحضارة الإسلامية (آدم ميتز ،١٩٦٧). ولكن معظم مؤرخى العلوم يعتبرون عصر النهضة الإسلامية ممتدا إلى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وبعضهم يمده بعد ذلك قرنا أو قرنين . فبعد مرحلة النقل ، بدأ ما يمكننا أن نسميه مرحلة « التلمذة » ثم التحليل والنقد ، ثم تلاهما مرحلة الابتكار الأصيل العميق . وجاء فى النهاية عصر التكرار والموسوعات ، وإن لم يَخْلُ ذلك العصر من ظهور عبقرى فذ كابن خلدون ، الذى توفى فى أوائل القرن التاسع الهجرى ، والذى يقول المؤرخ الإنجليزى العظيم «أرنولد توينبى » عن مقدمته الشهيرة إنها أعظم عمل من نوعه أمكن أن يبتكره عقل من العقول فى أى عصر من العصور ، وفى أى رجًا من أرجاء الأرض !

وأسماء النجوم الباهرة فى تراثنا العلمى ، وإن تفاوتت نسبيا فى التألق ، لا يكاد يدركها حصر . ففى القرن الثانى للهجرة عندنا ، على سبيل المثال ، عبقرى الكيمياء اللغز جابر بن حيان (ت : ٨١٥ م) ؛ وفى القرن الثالث : النظّام الفيزيائى (ت : ٨٤٥ م) ، والخوارزمى الرياضى الفذ مؤسس علم الجبر (ت : ٨٤٦ م) ، والكِندى الذى عدّه المستشرق كارا ديفو واحداً من اثنى عشر عبقريا ظهر فى التاريخ (ت : ٨٦٦ م) والجاحظ ، الأديب العالم (ت : ٨٦٩ م) والدينورى ، عالم النبات الثبت (ت : ٨٩٥ م) ؛ وفى القرن الرابع ، إخوان الصفا ، وأبو بكر الرازى الكيميائى والطبيب العظيم (ت : ٩٢٤ م) ، والبتّانى ، الرياضى الفلكى الذى عدّه المستشرق لالاند واحداً من أشهر عشرين فلكيا فى العالم (ت : ٩٢٩ م) ، والفارابى ، المعلم الثانى للبشرية بعد أرسطو (ت : ٩٥٠ م) ، وعلى بن حسين المسعودى صاحب « مروج الذهب » (ت : ٩٥٧ م) ، والبوزجانى الرياضى

الفلكى (ت : ٩٩٨ م) ، والمقدسى الجغرافى (ت : ١٠٠٠ م) ، وابن يونس المصرى الفلكى الرياضى (ت : ١٠٠٧ م) ؛ وفى القرن الخامس ، القمم الشوامخ : الشيخ الرئيس ابن سيناء ، الفيلسوف الطبيب الذى يعدّه سارتون المعلم الثالث للبشرية ، بعد أرسطو والفارابى (ت : ١٠٣٧ م) ، وابن الهيثم مؤسس علم الضوء والبصريات (ت:١٠٣٩م) ، والعبقرى الفذ البيرونى الذى يقول المستشرق ساخو إنه أعظم عقلية فى التاريخ (ت : ١٠٤٨ م) ؛ وفى القرن السادس: بنو زُهر أطباء الأندلس (أبو مروان ، ت: ١١٦٢ م) ، وابن طفيل العالم الموسوعى (١١٨٥ م) ؛ وفى القرن السابع : زكريا القزوينى ، صاحب « عجائب المخلوقات » (ت : ١٢٨٣ م) وابن النفيس الطبيب المصرى اللمّاح مكتشف الدورة الدموية الرئوية (ت : ١٢٨٨ م) ؛ وفى القرن الثامن العالمان الموسوعيان : كمال الدين الدميرى ، صاحب « حياة الحيوان الكبرى » (ت : ١٤٠٥ م) ، وابن خلدون مؤسس علم الاجتماع (ت : ١٤٠٦ م) . وغيرهم كثير (مع تداخل طبيعى فى الترتيب بين القرون المتعاقبة) .

ومعظم هؤلاء علماء موسوعيون ، وإن تميز بعضهم بصورة مذهلة فى بعض فروع العلم . ولكل منهم عدد كبير من المؤلفات المتفاوتة فى الحجم والقيمة ، وكثير منها اندثر . ويقدِّر بعض الباحثين أن عدد المخطوطات المسجلة فى مكتبات العالم ، والتى بقيت بعد الفقد أو البلى وعدوان التتار والمغول وغيرهما ، بنحو ربع مليون مخطوطة . وأما المخطوطات غير المسجلة فلا يعلم عددَها إلا الله . وكل هذا الذى نقوله عن العلم الإسلامى لا يعدو جزءاً من الحقيقة الكاملة ، التى مازالت فى حاجة ماسة إلى جهود عالمية مكثفة تستغرق الأعوام الطوال . يقول المستشرق ألدو مييلى فى كتابه الضخم الذى نشره عام ١٩٣٨ عن « العلم عند العرب ، وأثره فى تطور العلم العالمى » :

« .. ونرى هنا لزاما علينا أن نقرر أنه إلى اليوم الراهن لا يوجد تاريخ حقيقى للعلم العربى ، وهذا الكتاب الصغير الذى أنشره ليس إذا إلا محاولة أولى من هذا النوع ، على الرغم من اعتباره مقدمة لدراسة مفصلة ينبغى أن يتجه اهتمامها بوجه خاص نحو المعارف الفعلية التى وصل إليها العلماء العرب ، ونحو تطور النظريات التى أنشئوها (ألدو ميلى ، ١٩٦٢ - ترجمة ، ص . ٥٦) .

هذا على الرغم من الدراسات الكثيرة التى قام بهـا المستشرقون والعلـماء العرب فى القرنين الماضيين على الأخص . والحق يقـال : يرجع مـعظم الفضـل فى توجيـه الأنظار إلـى التـراث الـعلمى الإسـلامى وجلاء بعض نواحيه إلى جهود المستشرقين الذين قـاموا بتـرجمة عـيونه ، فى تبـتل وعشق ، إلى لغات الغرب وتناولوها بكثير من التـحليل . وبعض هذه الجـهـود على الأقل فيه إخلاص وأمانة وعمق . والقائمة طويلة ، ولكـننى سـوف أضـمن قـائمـة مراجع هذا البحث عـددا قليلا من المراجع المختارة (Taton, 1967 ;.Sarton, 1927, 1931, 1947; Rosenthal, 1970, 1975) وبعض المراجع الـعـامة بـاللغة الانجليـزية (Savory, 1979 ; Nasr , 1976 ; Hayes , 1975 Dunlop , 1985) ، وبعض المراجع العامة باللغـة العربية (أحمـد فؤاد باشا ، ١٩٨٤؛ عـبد الحليـم منتصـر ، ١٩٧٥ ؛ عمـر فروخ ، ١٩٧٧ ؛ مـحمـد الصادق عفـيفى ، ١٩٧٧ ؛ محـمد كـامل حسين وآخرون ١٩٧٨) .

والاهتـمـام بالتـراث العلمى العـربى والإسلامى مـازال متجددا ، وأكـتفى بأن أنوه بأحدث دوريتين عالميتين مـتخصصتين فى هذا المجـال . أولاهـمـا « مـجلة الدراسـات الإسـلاميـة » (Journal of Islamic Studies) ، نصف السـنوية ، والتى ظهر المجلد الأول منها عام ١٩٩٠ ، والتى تصـدرها مطبعـة أكسـفورد ومـركز أكسفورد للدراسات الإسلامـية . وثانيتهما « العلوم والفلسفة عند العرب » (Arabic Sciences and Philosophy) نصـف السنوية أيضـا ، والتى تصـدرها مطبـعـة جامـعة كيـمبـردج ، وصدر المجلد الأول منها عـام ١٩٩١ . وكلتاهما تحـوى بحوثا أصيلة ، باللغـتين الإنجليزية والفرنسـية . وكلما طرق الباحث موضوعا علميا محددا وتعـمقـه دهش لما يكتـشـفه من المجـازات للعلمـاء المسلمين الأوائل كانت فى حـاجة إلى من يجلّـيـهـا ، ولى فى هذا تجـارب شخـصية (عبـد الحافظ حلمى محـمد ، ١٩٩١ (Mohammad, 1981; Mohammad & Al Taqi, 1981) .

ويزعم البـعض ، على الرغم من هذا الوضوح والنصوع ، أن قـصارى ما أسداه العلم الإسـلامى إلى البشـرية هو الحفـاظ على علوم الحضارات القـديمة ، والحضارة الإغـريقيـة على الأخص ، وتسليمـه إلى أوروبا . فقد فُقد معظم الأصول القديمة ، ولم تَبْقَ إلا ترجماتهـا العربية ، التى مرت فى مـوجة عـظيمـة أخـرى من النقل فى الاتجاه العكسى ، إلى اللغة اللاتينية . وفى القرن الثـانى عشـر الميلادى كانت أعـمـال العرب المترجمة إلى اللاتينية هى مـصادر العلم الوحيدة فى أوروبـا ، إضافة بالطبع إلى الأصول العربية لمن يـستطيع قراءتها ، وكان هذا أمرا جوهريا لطلب العلم ، كما قدمنا .

وهذا شيء عظيم ولا شك ، ولكنه ليس إلا جزءاً من فضل العرب على العلم . فهم أولا أحسنوا الانتقاء . وكانت لهم فلسفتهم وشخصيتهم في هذا الانتقاء ، فهم مثلا لم يحفلوا بترجمة أساطير الإغريق وخرافاتهم - على جمالها الأدبي - لأنهم رأوها غير مفيدة ولأنها لا تتفق وعقائد المسلمين . ثم إنهم كانوا «يؤسلمون» هذا العلم المنقول وينقدونه ويمحصونه ، ثم زادوا عليه كما وكيفا ، وقدموه علما إسلاميا جديدا يتميز - كما قدمنا - بعالميته وتسامحه وتفتحه ، وتطبيقاته العملية التكنولوجية ، وارتباطه الوثيق بالدين والقيم الأخلاقية الرفيعة ، وتيسيره للثقافة العامة باللغة العربية ، لغة واحدة للدين والعلم والتعليم والحضارة والحياة . أما عن تأثير حضارة الإسلام في حضارة الغرب المعاصرة ، فالشواهد عليه والشهادات له كثيرة ، ولكن لعلي أكتفي بأن أضيف إلى ما قدمت ما قاله « وكنز » من جامعة تورونتو في كتاب بعنوان «مقدمة في الحضارة الإسلامية » (Wickens, 1976) ، فهو خلاصة بليغة معبرة ، إذ يقول ما ترجمته : « على وجه العموم ، استعار الغرب من الشرق الأوسط ، عمليا كل النسيج الأساسي للحضارة » ويقول في موضع آخر : « ولولا انتقال هذه الأسس إلى الغرب كانوا قد ظلوا حتى اليوم كهنود أمريكا الوسطى والجنوبية . أو لعلهم كانوا أمثال قبائل البوشمن في جنوب أفريقيا ، أو الأبوروجينز في أستراليا حتى عهد قريب ، متكيفين تكيفا طيبا للحياة في بيئتهم ، كراما معتزين بأنفسهم ، ومادةً شائقة لعلماء الأنثروبولوجيا وعلم النفس ، ولكننا لا نستطيع وصفهم بالتمدين ، بالمعنى الحقيقي الشامل للكلمة » .

* * * *

عبد الحافظ حلمي محمد

عضو المجمع

المراجع

آدم ميتز - ١٩٦٧

« الحضـارة الإسلامية فى الـقرن الرابع الهجرى - أو عـصر النهضـة فى الإسلام » . ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة . مجلدان . دار الكتاب العربى ، بيروت .

ابن عبد البر القرطبى - ١٩٧٨

« جامع بيان العلم وفضله » - جزءان . دار الكتب العلمية ، بيروت .

أبو حامد الغزالى -

« إحياء علوم الدين » - أربعة مجلدات . دار الشعب ، القاهرة .

احمد فؤاد باشا - ١٩٨٤

« التراث العلمى للحضـارة الإسلامية ، ومكانته فى تاريخ العلم والحضـارة » - الطبعة الثانية ، مطابع دار المعارف ، القاهرة .

الدو مييلى - ١٩٦٢

« العلم عند العرب ، وأثره فى تطور العلم العالمى » . دار القلم ، القاهرة .

طه حسين - ١٩٢٨

تقـديم لكـتـاب « رسائل إخوان الصـفاء وخـلان الوفاء » المطبعـة التجـارية الكبرى ، القاهرة .

عبد الحافظ حلمى محمد - ١٩٦٥

« خلق الإبل » - منبر الإسلام (القاهرة) ، ٢٣ (٧) : ١٤٠ - ١٤٢.

- ١٩٨٠ - أ

« الفجوة المتوهمة بين الدين والعلم » - كتاب المؤتمر السنوى التاسع والأربعين للمجتمع المصرى للثقافة العلمية (١٩٧٩) ، القاهرة : ١٧ - ٣٧ .

- ١٩٨٠ - ب

« لغة تدريس العلوم فى الجامعات » فى :

« تعريب الـتعليم الجـامعـى والعـالى » - الأمـانة العامـة لاتحاد الجامـعات العـربية ، القاهرة : ١٥٣ - ١٥٩.

- ١٩٨٢
« العلوم البيولوجية فى خدمة تفسير القرآن الكريم - منهاج وتطبيق » . عالم الفكر ، الكويت ، ١٢ (٤) ك ٩٩٣ - ١٠٨٤ .
- ١٩٩٢
« المعارف البيولوجية فى رسائل إخوان الصفا » - مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ٧١ : ٦٧ - ٩٧ .
- ١٩٩٣
« الإبل عز لأهلها - إعجاز فريد فى الخلق ، وأمان من المجاعة والجفاف » . كنوز العلم ، القاهرة ، ١ : ٥٩ - ٧٣ .

عبد الحليم منتصر - ١٩٧٥

« تاريخ العلم ، ودور العلماء العرب فى تقدمه » - الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة .

عمر فروخ - ١٩٧٧

« تاريخ العلوم عند العرب » - دار العلم للملايين ، بيروت .

فرانتز روزنتال - ١٩٨٠

« مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى » . (ترجمة أنيس فريحة) - الطبعة الثالثة . دار الثقافة ، بيروت .

محمد الصادق عفيفى - ١٩٧٧

« تطور الفكر العلمى عند المسلمين » - مكتبة الخانجى ، القاهرة .

محمد فؤاد عبد الباقى - ١٩٥٨

« المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » - مطابع الشعب ، القاهرة .

محمد كامل حسين وآخرون - ١٩٧٨

« الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب » - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة .

يوسف القرضاوى - ١٩٨٥

« الرسول والعلم » ، الطبعة الثالثة - مؤسسة الرسالة ، بيروت .

Al - Hassan, A. Y. and Donald R. Hill. 1986 . "Islamic Technology". Cambridge University Press and UNESCO.

Dunlop, D. M. 1985. "Arab Civilization to AD 1500". Longman, Librarie du Liban, Beirut.

Hayes, John R. (ed.) 1975. "The Genius of Arab Civilization". Eurabia, London.

Holmyard, E. J. 1947. "TheRole of the Scientific Society". Endeavour, 6 (22): 49 - 50 .

Maxwell, N. 1988. "From Knowledge to Wisdom - A Revolution in the Aims and Methods of Science". Blackwell, New York .

Mohammad, Abdul-Hafez Helmy. 1981. "Evolutionary Speculations of Muslim Medieval Scholars - A Subject of Unjustified Controversy or Neglect". Proceedings of the 16th International Congress of the History of Science. Publishing House of the Academy of the Socialist Republic of Romania, Bucharest, Vol. A (Scientific Sections) : 217 .

Mohammad, Abdul-Hafez Helmy and Muna Al-Taqi. 1981. "The Role of Medieval Moslem Scholars in the History of Cutaneous Leishmaniasis". Proceedings of the First International Conference on Islamic Medicine, Kuwait, Bull. Islamic Medicine 1 (2 nd ed.); 269-274.

Nasr, S. H. 1976. "Islamic Science - An Illustrated Guide". World of Islam Festival Publishing Company, London.

O'Hear, A. 1989. "Introduction to the Philosophy of Science". Clarendon Press, Oxford.

Rosenthal, F. 1970. "Knowledge Triumphant - The Concept of Knowledge in Medieval Islam". E. J. Brill, Leiden.

Rosenthal, F. 1975. "The Classical Heritage of Islam". (Translated from the German by Emile and Jenny Marmorstein). University of California Press, Berkeley, Los Angeles.

Sardar, Ziauddin. 1989. "Explorations in Islamic Science". Mansell, London and New York.

Sarton, G. 1927 - 1947. "Introduction to the History of Science". Vol.I (1927), Vol. II -in two parts (1931), Vol. III -in 2 parts (1947). Williams and Wilkins Comp., Baltimore.

Savory, R. M. (ed.). 1979. "Introduction to Islamic Civilization". Cambridge University Press.

Taton, René (ed.). 1967. "Ancient and Medieval Science". (Translated by: A. J. Pomerans). Thomas and Hudson, London.

Wickens, G. M. 1979. "What the West Borrowed from the Middle East". Chapter 11 (p. 120-126) in : Savory (1979).

* * * *

الموريسكيون فى الفكر الإسبانى

للأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكى

برز لقب الموريسكين[1] فى التاريخ بعد قرار التنصير القهرى الذى أصدره الكاردينال ثيسنيروس عرّاف الملكة إيزابيل عام ١٥٠٢ ، وألزم كل المسلمين الأندلسيين باعتناق الكاثوليكية أو الرحيل، ويضم تحته مجموعات مختلفة ، ذات مواقف متباينة .

تجئ مجموعة الموريسكين فى مملكة أرغون فى المقام الأول ، على اختلاف بين الذين يقيمون فى مقاطعة أرغون وهم يتبعون السادة الإقطاعيين الذين يملكون الأراضى الخصيبة من وادى إبرو ، وبين الذين يسكنون منطقة بلنسية، وهم يكونون جماعة متماسكة تمثل أغلب السكان .

ومجموعة ثانية تضم الموريسكين فى قشتالة وهم ينحدرون من قدامى المدجنين[2] ، وهؤلاء تمثلوا كل أشكال الحياة المسيحية تقريباً ، ويتمتعون بحرية واسعة، ويرد الاقتصاديون إزدهار «البغالة» فى هذه المنطقة خلال القرن الحادى عشر إلى الموريسكيين الذين كانوا يمارسونها .

وتتكون المجموعة الأخيرة من الموريسكين الأندلسيين الذين ظلوا فى قراهم ومدنهم الأصلية من مملكة غرناطة بعد سقوطها ، وكانوا مسلمين مستقيمين فى عقيدتهم وعاداتهم ومظاهر حياتهم ، وثاروا للمرة الأولى عام ١٥٠٠م عندما

---

(١) الموريسكيون جمع موريسكو Morisco ، نسبة إلى مورو Moro ، وكانت هذه تطلق فى البدء على المغاربة ، لأن كلمة موريتانيا التى اشتقت منها الكلمة كانت تطلق قديماً على المغرب كله ثم صارت تطلق على المسلمين جميعاً في اى مكان ، حتى أن الإسبان أطلقوها على المسلمين الذين وجدوهم فى الفلبين عند استيلائهم عليها فى القرن السادس عشر، ولا يزالون يعرفون بهذا اللقب حتى اليوم ، والهيئة التى تدافع عن حقوقهم ، وتناضل من أجل استقلالهم تحمل اسم « جبهة المورو » .

(٢) جمع مدجن ، من دجن بمعنى أقام ، وتطلق على المسلمين الذين تخلفوا فى المدن الإسلامية التى سقطت مبكراً فى يد النصارى قبل أن تسقط الدولة كلها ، واحتفظوا لزمن بإسلامهم كاملاً . وبلغتهم إلى حد ما .

حاول الكاردينال ثيسنيروس أن يفرض عليهم التنصير بالقوة .

وقد شارك الموريسكيون جميعاً فى كل ألوان الصراع الداخلى فى الأعوام الأولى من حكم الإمبراطور شارل الأول (كارلوس الخامس فى الإسبانية) ثائرين على قهرهم، يستوى فى ذلك الذين يقيمون فى أرغون أو بلنسيه أو قشتالة أو أندلوثيا[٣] ، واتسم عصر شارلمان بشىء من التسامح ، رغم القرارات التى كانت تمنع الموريسكيين من استخدام عاداتهم وأشكال الحياة الإسلامية، فكانت المسافة واسعة بين القرار وتنفيذه ، لأن مستشارى الإمبراطور كان يخشون قوة هؤلاء الموريسكيين من جانب، ويعرفون دورهم فى بناء الاقتصاد الإسبانى من جانب آخر، وقبل ذلك كله درج الموريسكيون على رشوة الإمبراطور بأموال باهظة يجمعونها له، لكى يؤجل تنفيذ هذا القرار أو ذاك .

لكن الأمر تغير تماماً مع اعتلاء فيليب الثانى العرش عام ١٥٥٦م ، فقد كان متعصباً بطبيعته وموسوسًا ومتردداً ، ورأى فى قوة الأتراك العثمانيين الصاعدة خطراً عليه ، وبدا له والذين حوله أن كل موريسكى جندى فى الجيش الإسلامى التركى ، فتآكل القليل من التسامح الذى كان سائداً ، وحلت مكانه عداوة ظاهرة ، وكراهية شديدة ، ورغبة فى الانتقام من الموريسكيين دون أى ذنب جنوه ، وأصدر الإمبراطور أمره بمنع الموريسكيين نهائياً وفوراً من استخدام الملابس العربية ، أو التكلم باللغة العربية.، وإحالة من يشك فى ارتكابه هذه الجرائم إلى محاكم التفتيش ، وعقوبتها قد تصل إلى الإعدام

---

(٣) اندلوثيا Andalucia ، تميزا لها عن الاندلس الدولة ، وهو الاسم الذى يطلق الآن على جنوب إسبانيا ، وله خصائصه المستقلة عادات وعرفا ولهجة ، ويتمتع بلون من الاستقلال الذاتى ، ويشمل المحافظات التى استقر فيها الإسلام زمنًا أطول من غيرها ، وهى : قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة وجيان وقادس والمرية وأولبة .

حرقاً . وكان ذلك سبباً فى الثورة التى اندلعت فى منطقة البشرّات ، وهى ثورة لما تدرس لأن كل مصادرها إسبانية ، وسبق أن ألقيت الضوء على جوانب منها فى مقال نشر بمجلة الحرس الوطنى منذ عامين .

لا توجد مصادر عربية عن هذه الثورة، وما ورد عنها فى المصادر العربية يحتاج إلى حرص وحذر شديدين ، ومقابلة بين الروايات المختلفة للوصول إلى بصيص من الحقيقة ، فقد حاول المؤرخون الإسبان المعاصرون لها طمس معالمها من جانب ، وتشويه صورة زعمائها من جانب آخر ، وتحاملوا على الموريسكيين تحاملاً شديداً . وعلى أية حال يمكن القول ، فى إيجاز شديد ، إن الموريسكيين قرروا مواجهة القمع والمظالم التى يتعرضون لها فاختاروا أكثر المناطق ازدحاماً بهم ، وهى جبال البشرات ، جنوبى غرناطة ، وتجمعوا من كل أنحاء إسبانيا فى كتمان شديد ، واختاروا محمد بن أمية أميرا ، وهو ينحدر من خلفاء قرطبة الأمويين، وكان فى الثانية والعشرين من عمره ، وطبقاً للتقاليد العربية تلقى البيعة الدينية ، وهو يرتدى عباءة من الأرجوان ، وتوجه والذين معه نحو القبلة ، وصلى بهم شكراً لله ، وأقسم أن يعيش أو يموت دفاعاً عن دينه ووطنه وشعبه ، وعين قاضياً للجماعة، وحمله أخرون على أكتافهم ثم رفعوه قائلين : « نصر الله محمد بن أمية ملك غرناطة وقرطبة » .

وما أسرع ما اشتعلت الثورة حية متوهجة ، وغطى الموريسكيون المسلمون كل منطقة البشرات ، وارتفع صوت المؤذن عالياً فى وديانها وجبالها ، وعجزت جيوش فيليب الثانى عن القضاء عليها فاتخذوا من الخيانة والعنف وقتل الأبرياء وسيلة ، وحين استولى خوان دى أوسبتريا، وهو ابن غير شرعى للإمبراطور شارل ، وأخ الإمبراطور فيليب الثانى

على مـدينة جليرة ، وكـان يقود الجـيوش الإسبـانية ، أعـدم كل سكانها ذبـحاً دون تمييز بين رجل وامرأة أو بين عجوز وطفل. وبعـد أن سـقطت بقـية القـلاع القـوية ، وجلهـا سـقط بسـبب الخـيـانة ، وزعـوا الموريسكيين الذين اسـتـسلمـوا على بقيـة المقـاطعـات ، وأما الذين اخـتـفـوا فقـد اصطادوهم كـمـا لو كـانوا وحـوشـا ، وقــدمـوهم إلـى المقـصـلة لذبحــهم ، وكثيرون نجوا بأنفسـهم عبر البحر ، ولكن حب الأندلس ردهم إلى الوطن من جـديد حيث سقطوا بين مخالب محاكم التفتيش، وقدموا مشاهد تدعـو إلى العظة والاعتبار فى محاكمـات الإحراق بالنار علنا ، وأما الذين حملوا إلى المقـاطعات الأخرى فكان موقفـهم أسوأ من الرق نفسـه ، فالحديث باللغة العربـية أو العزف على آلة موسيـقية مـثلاً مما كـانوا يسـتخـدمـونه فى العصـر الإسـلامى جريمة يعـاقب عليـها بالسـجن مدى الحـياة ، وكل هذه الوسـائل لم تكن تبـعـد بالموريسكيين كـثـيـراً عن عـاداتهم القديمة، ولم تحولهم عن دينهم مخلصين ، فـإذا حملوا واحـداً منهم إلى السـجن لم يكن يقاوم ، وقـد يقبل التصـالح أملاً فى الحرية ، فـإذا بلغ النهاية ، وجـاءت لحظة الاحتضار ، وأصبح على أبواب الآخرة ، يرفض الكاثـوليكيـة فى صـوت حـاسم واضح، ويموت على الإسلام ، ويلقى الله وهو يردد بين شفتيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ! .

« ومن ثم بدا واضــحـاً للحـكومـة الإسـبانيـة أن الدين الذى جاء به مـحمـد ﷺ لا يمكن استئصـاله من شبه الجزيرة إلا مع آخـــر نفس يخــرج مـن آخـــر موريسكـى، وحينئذ توجـه تقى (!!) من كـبار رجـال الدين الكاثوليك بمذكـرة إلى الملك يؤكد له فيها أنه مـقتنع تماماً بأن قتل كل الموريسكيين مناسب ومـفيد ومـباح ، ولكن أسـقف بلنـسـيـه ، ولم يكن بأقل تقـوى ولا تدينـاً (!!) من مـواطنه ذاك ،

كتب أيضاً تقريراً آخر أوضح فيه أن الواجب المقدس يفرض عليهم القضاء على جميع الكافرين ، أى المسلمين ، وأكد على أن المصائب التى انصبت على رأس إسبانيا خلال نصف القرن الماضى كانت عقاباً عادلاً من السماء على التسامح الزنديق الذى اتبعته الحكومة مع الموريسكيين ، ويمضى مستنتجاً من كل هذا أنه إذا كان غير عملى أن يقتل الملك مئات الألوف منهم فمن الواجب عليه أن ينفيهم جميعاً ، وإذا بدا له فمن الأفضل أن يحكم عليهم بالسجن المؤبد ، أو بالأشغال الشاقة فى مناجم أمريكا اللاتينية، ومثل هذا الحل يعد تساهلاً إلى حد كبير ، لأننا إذا نظرنا إلى الأمر فى جدية فأنهم جميعاً يستحقون الموت . وتلا هذا التقرير طرد جميع الذين ينحدرون من أصول إسلامية فى حكم فيليب الثالث ١٦٠٩ ، وعندما فقدت إسبانيا أنشط فلاحيها وأمهرهم تحولت إلى صحراء قاحلة لا تصلح إلا موطناً للكاثوليك المحافظين » .

انتهى كلام المؤرخ الألمانى فون شاك فى كتابه الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية وقد ترجمته إلى العربية ولم أحذف منه حرفاً ، ولم أزد عليه حرفاً ، حتى علامات التعجب كانت من عمله .

ولم تكن عملية الطرد بأقل قسوة فقد سيق الموريسكيون ألوفاً من كل مقاطعات إسبانيا إلى الموانئ التى تقع على البحر الأبيض ، نساء ورجالاً ، شيوخاً وشباناً ، مقيدين بالسلاسل ، حفاة فى أسمال مهلهلة ، يحيط بهم الجند ويقتلون أى فرد منهم عند أى بادرة احتجاج ، فأكلت الطرق أعدادا كبيرة منهم ، سقطوا صرعى الجوع والعطش أو الإعياء والتعب ، وألقى بجثثهم على جوانب الطرق ، والذين بلغوا الشواطئ وشحنوهم فى السفن ، تكفل البحر بجانب كبير منهم ، فقد كانوا يضعون فى المركب ضعف حمولتها ، فلا تكاد تغادر المرسى حتى يبتلعها البحر ، مع أول موجة عالية ، أو هبة من ريح عاصفة . واستقر

الذين كتبت لهم الحياة فى المغرب أو تونس، وقلة منهم في الجزائر، وذهبت أعداد صغيرة منهم إلى جنوب فرنسا وضاعت أخبارهم ، ومجموعات محدودة ، غير ذات تأثير ، من أولئك وهؤلاء عادوا خفية، وآخرون مثلهم أخفاهم ملاك الأراضى وأصحاب المصانع ، لدورهم البالغ فى فلاحة أراضيهم ، ومهارتهم فى الصناعة .

• • •

تلك هى قصة الموريسكيين فى إيجاز شديد ، فماذا كان موقف الفكر الإسبانى منهم بعامة ، ذلك ما سنحاول أن نلقى عليه بعض الضوء دون أن نسقط أحداً من حسابنا ، بالغاً ما بلغ تطرفه فى عدائه لهم وتحامله عليهم ، أو فى تعاطفه معهم ودفاعه عنهم ، مروراً بأولئك الذين حاولوا أن يتخذوا موقفاً محايداً انطلاقاً من منهج موضوعى ، والذين يقفون بين قهر الضمير وانبلاج الحق وبين الخوف من الكنيسة وخشية السلطة خائفين وحائرين ومترددين.

لم تكد عملية طرد الموريسكيين تتم حتى شغلت قضيتهم الفكر الإسبانى ، وربما كان بعضهم مهتماً بالموريسكيين قبل الطرد ، ولكنه لم ينشر ما كتب إلا بعد طردهم فعلا ، مما يوحى بأن الطرد كان مفاجئاً لهم ، وجاءت كتاباتهم تبريراً لما قامت به الحكومة ، وتدور فى جملتها حول موقفين متعارضين يجسّمان أفكار المعاصرين للقضية :

موقف المحبِّذين للأمر ، والمدافعين ، ويضم المؤلفين الإسبان الكاثوليك ، والمحافظين ، والمعجبين بفيليب الثانى ، وبعامة أولئك الذين كان يطلق عليهم «اليمينيون» ، ويقدمون الموريسكيون بوصفهم خطراً دائماً ، عنصراً غير مقبول، ومتمرداً ، وهو سبب كل القلاقل ، والتعدى على أمن الدولة ووحدتها ، وبذلوا أقصى جهدهم للبرهنة على أن الوسيلة عادلة ، وذات فائدة كبرى عامة ، واعتمدت على الإجماع الشعبى ، إلى جانب أنه لامناص منها .

الذين يشجبون هذا العمل ويشنعون عليه . وهم في معظمهم من المؤلفين الأجانب ، المعادين لأسرة أستورياس المالكة ، وهم : الفرنسيون في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والبروتستانت بعامة ، والأحرار ، واقتصاديو القرن الثامن عشر ، واليسار ، وقد انتقدوا قرار الطرد في حد ذاته ، وهاجموه بعنف ، ولم يروا فيه مجرد وسيلة قاسية غير إنسانية وغير ضرورية فحسب ، وإنما يرونها العامل الأساسي في سقوط إسبانيا، لأنه حرم إسبانيا من أبنائها الأكثر مهارة وعملاً .

أثار قرار الطرد اهتمام معاصريه ، ويتجلى ذلك في كثرة المؤلفات التي تناولته وهي ذات قيمة تاريخية لا أدبية ، على النقيض مما كتب عن ثورة الموريسكيين في جبال البشرات ، ويمكن أن نقسم هذه المؤلفات إلى :

● مؤلفات عامة تتناول المشكلة باحثة عن أصول الموريسكيين ودياناتهم ، وكيفية ممارستهم لطقوسهم .

● دراسات نوعية أو موجزة تهتم جزئياً بتحليل الجوانب الجانبية لعملية الطرد ، أو دواوين شعرية تحبذ هذا العمل الذى قام به فيليب الثالث وأهميته .

وتتميز أعمال كل هذه الفترة بالثناء على عملية الطرد ، ولا يوجد بينها تأليف واحد تقد ما قامت به السلطة المركزية ، ويرون أن قرار الطرد عادل وضرورى وهام دينياً ، وبفضله تصبح إسبانيا بلداً نظيفاً من الإلحاد والمرتدين والخونة . وقلة من المؤلفات تضمنت أفكاراً لا ترى النفى ، ولكنها لا تعارضه ولا تدعو إلى التسامح أو التعايش ، وإنما تقترح وسائل أخرى أشد للقضاء على الموريسكيين .

يصف الراهب اليسوعى بدرو ليون Pedro León من رجال الدين فى القرن السادس عشر الموريسكيين فى كتاب له عن الحرف فى أديرة الآباء اليسوعيين ،

ولما يزل مخطوطاً فى جامعتى سلمنقة وغرناطة، فى فقرات تختلف عن الواقع، وتنضح حقداً وكراهية، ونقلها عنه أ. دومينجيث أورتيث A. Dominguez Ortiz فى كتابه عن « أزمة إسبانيا وسقوطها فى عهد أسرة أستورياس »، يقول الراهب: « كانوا كل واحد من مكان مختلف، ولكل واحد عاداته، أنصاف لصوص، يعيشون حياة سيئة أناس لم يتحملوا المعاناة فى مسقط رءوسهم حيث ولدوا، قتلة، أشرار، عاداتهم متخلفة وحيوانية، كسالى، قليلى المهارة، لا يتركون ثمار جيرانهم تنضج، لأنهم يقطفونها قبل أوانها ».

وهى آراء لا يوافقه عليها إلاَّ من على شاكلته، أما التناول الموضوعى، ومن المؤرخين الأسبان أنفسهم فعلى النقيض من ذلك تماماً.

وقد اختلف أدب القرن السادس عشر، وهو العصر الذى يلقب بالعصر الذهبى، فى موقفه من الموريسكيين، فقد حمل عليهم الشعراء، بلاطيين وشعبيين، وأسرفوا فى مدح الملك لاتخاذه هذا القرار، وتمتلئ روايات الصعلكة بالإشارة إلى الموريسكيين، وبعض أبطالها منهم، وهى أمر طبيعى، فالموريسكى فى ذلك الوقت فقير ومتشرد، صعلوك ومضطهد، وحيد وضائع، وهى الصفات التى يتطلبها الفن فى شخوص روايات الصعلكة.

وقد أدخل ثربانتس Cervantes (١٥٧٤-١٦١٦) قمة الأدب الإسبانى والعالمى فى القرن السادس عشر الميلادى شخصيات موريسكية فى كثير من أعماله الروائية والمسرحية وتغير رأيه فيهم مع الزمن، فهو ينتقدهم بعنف فى روايتيه: حمّامات الجزائر وحوار الكلاب، على حين أنه ينظر إليهم فى إشفاق، ويصورهم فى حالة تستدر العطف والشفقة فى روايته الخالدة دون كيخوته « ويرى أنهم جديرون بذلك.

وقـد اختلف المسـرحي كالـديرون دى لا بركـا Calderón de la Barca (١٦٠٠-١٦٨١) فى هذا الموضـوع عن بقية رفاقه من المسرحيين ، فكتب مسرحية « حب بعد الموت » جل شخوصها من الموريسكيين ، وتجرى أحداثها فى وهج ثورة الموريسكيين فى البشرات ، وتظهر تعاطفاً واضحاً معهم، ويمكن اعتباره الصديق الأعظم لهؤلاء الثائرين .

• • •

فإذا تركنا الأدب إلى التاريخ وجدنا المؤرخين يجمعون على أن ثورة البشرات التى قام بها الموريسكيون و كانت أكبر حدث تاريخى واجه الإمبراطور فيليب الثانى ، والأشد خطراً بين كل الصعاب التى تعرض لها ، وسجل لنا جانباً من أحداثها ديجو أورتادو دى مندوثا Diego Hurtado de Mendoza (١٥٠٠-١٥٧٥) ، وهو من أسرة نبيلة ، وولد فى غرناطة نفسها ، وشارك فى هذه الحرب ، وقص أحداثها فى لغة منمقة أنيقة واضحة فى كتابه « مدونة حرب غرناطة "Crónica de la Guerra de Granada" وانتشر كتابه سريعاً عن طريق نسخه بخط اليد ، وتمتلك مكتبة مدريد الوطنية عدداً من هذه المخطوطات ، والطبعات التى بين أيدينا الآن نقلاً عنها ، وتختلف هذه المخطوطات اختلافات بسيطة غير ذات أهمية ، مردها اعتناء النساخ أو سهوهم وإهمالهم ، وتمت أول طبعة له فى لشبونة عاصمة البرتغال عام ١٦٢٦م .

ينتمى المؤلف إلى أسرة مركيز دى مونديخر Marquéz de Mondéjar، ولعب هذا دوراً أساسياً فى هذه الحرب ، فكان ديجو مضطراً لإنقاذ اسمه والدفاع عنه ، فهو يقول : « كان فى هذه الحرب أكثر من قائد ، ولم يكن ثمة تخطيط عام للعمليات وبلغ الصراع بين النبلاء أشده ، وسادت الفوضى بين الجنود ، واهتموا بالغنائم أكثر من اهتمامهم بالحرب نفسها » .

وقد أظهر دييجو تسامحاً واضحاً إزاء الموريسكيين ، وهى صفة أساسية فى أسرته، وقد نفاه فيليب الثانى ، ربما لأنه لم يتردد فى نقد السلطة ، والسياسة التى اتبعتها إزاء الموريسكيين ، وكان حديثه بداية حركة مناهضة للإمبراطور ، لم تظهر صراحة ، وإنما يمكن استنتاجها من طريقة عرضه للأحداث .

وقد احتكر قائد الثورة محمد بن أمية، والذى يعرف غالباً فى المصادر الإسبانية باسمه الإسبانى : فرناندو دى بالور Fernando de Valor اهتمام المؤلف، وهو مشول إلى حد بعيد عن الصورة الرومانسية التى وصلتنا عن العاهل الغرناطى .

ويرى دييجو أن مرسوم ١٥٦٧ الذى جرد الموريسكيين من كل حقوقهم ، وألزمهم بترك لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكانوا قد ألزموا بترك دينهم قبل ذلك بكثير ، كان سبب اشتعال هذه الثورة ، لأنه اضطرهم إلى مواجهة الظلم الذى كانوا يعانون منه ، ويتعرضون له ، من رجال السلطة ومن عامة المسيحيين على السواء ، حتى اقتربوا من درجة العبيد ، إن لم يكونوا كذلك ، نساء وأطفالا ، وأملاكهم وأشخاصهم فى يد أعدائهم ، وطوع إرادتهم ، دون أمل فى أن يصبحوا يوماً أحراراً من هذه العبودية . يعانون فى حياتهم ألواناً من الاستبداد ، ومن واجبات وضرائب جديدة ، ومنعهم من اللجوء إلى قصور سادتهم ، حيث يجد المخطئون مع غيرهم عرضاً أو انتقاما الحماية والمأوى ، وبينما يحرمونهم من حماية الكنائس ودخولها يلزمهم رجال الدين من جانب آخر بحضور القداس ، ومن يتخلف عليه أن يدفع غرامة فادحة ، وبهذه الطريقة كون رجال الدين من ورائهم ثروات طائلة . . . بين المسيحيين يعتبرون مسلمين ، فهم محتقرون ، وبين المسلمين يعتبرون مسيحيين، فلا يلقون أى عون ، مستبعدون

من الحياة ، ومحرومون من حقهم فى الحفاظ على أشخاصهم ... » .

ويحاول دييجو ، متأملاً ومفكراً ، أن يستقصى دوافع الأحداث النفسية ، ولا يكتفى بأن يقدم لنا أخبار حملة تاريخية فحسب، وإنما يقوم دور الفرد ذاتياً، وحمله هذا الواقع أن يصف لنا الأشخاص الذين شاركوا فى الأحداث، وأن يضمنها أفكاره عن الحرب : « باختصار ، هم يناضلون كل يوم ضد أعداء : البرد والحر والجوع ونقص الزاد ، والحاجة إلى وسائل العمل فى كل شىء ، والأذى المتجدد ، وموتى باستمرار . حتى رأينا الأعداء ، دولة محاربة ، كاملة ، مسلحة ، آمنة فى مكانها ، أصبحت بسبب الهمج والترك مغلوبة ، محصورة ، مخرجة من أرضها مجردة من بيوتها وأملاكها ، سجناء مقيدين ، رجالاً ونساء وأطفالا اسرى يباعون بالمال ، أو يحملون بعيداً عن أهليهم إلى أراض بعيدة لتعميرها والأسرى والمهاجرون ليسوا بأقل عدداً من آخرين نقرأ عنهم فى كتب التواريخ . نصر مشكوك فيه ، وأحداث بالغة الخطر ، وأحيانا يراودنا الشك ، هل نحن الذين يريد الله أن يعاقبهم أو الأعداء ، حتى إذا كانت نهاية الحرب اكتشفنا أننا الذين كنا مهددين، وهم المعاقبون » .

إن دييجو لم يحاول أبداً أن يكتب تاريخ الحرب ، وإنما قدم لها دراسة تاريخية ، ويذكرنا كتابه بمسرحية من العصر الذهبى ، ولكن محتواها ونظرتها إلى المشكلة التى تعرض لها تقودنا إلى مأساة سوف تتضح بجلاء ابتداء من نفى الموريسكيين فى غرناطة إلى مقاطعة قشتالة .

فإذا تركنا دييجو دى مندوثا إلى لويس دى مارمول كربخال Luis de Mármol Carvajal فى كتابه « تاريخ تمرد الموريسكيين وعقابهم فى مملكة غرناطة » ، وجدناهما يلتقيان فى جوانب ، ويختلفان فى أخرى أكثر . كان مارمول جندياً

أيضـاً، ولد في غرناطة نفسـها مع مطلع القرن السـادس عشـر ، وتوفي في الثلث الأخير منه ، وعمل جندياً في الحملة التي وجـهـهـا شـارل الأول ضـد تونس عـام ١٥٣٥، وظل في شمـال أفريقـيا خمـسة وعـشـريـن عـامـاً ، يقـاتـل في جـيش الإمبـراطور أو أسيـراً بين يدي المسلمين ، واشتـرك في الحملة التي توجهت للقـضاء على ثورة الموريسكيين في جبال البشرات ، وعُدَّ كـتابه تاريخـا كتبـه جندي ، وصنع كثيرون مثله في العـصر الذهبي لإسبانيا ، دون أن تكون لهم غـاية أدبية من وراء مـا يكتـبون ، ولكـن مؤلفـاتهم ذات قـيمـة إخبارية عالية ، ويمتلئ كتابه بالتفصيلات ، وتخـتفي عنده روح التـشاؤم والحـزن التي نجـدها في كتـاب دييجـو ، ويمثل كتـاب مارمول النظرة الرسميـة ، ومهمته أن يبرر الحرب ، وأن يمدح الملك ، وأن يثني على موقفه من الموريسكيين ، وكجندي لا يضع سياسـة الملك ولا أوامر رؤسائه السـياسيين موضع الشك ، ومـع ذلك لا يكف عن نقـد المرءوسين ، وإليـهم يـنسب الأخطاء التي وقعت في الحرب .

وحين نوازن بين الكـتـابين ، كـتـاب دييـجو وكـتاب مـارمـول ، نجد بناءهمـا متشابها ، وإنما يجئ الاخـتلاف بينهما في كمية الأخبار التي يقدمها كل كتاب ، وفي النظرة الأيـديولوچيـة للصــراع . ويرى مارمول فـي ابن أمية مجـرد رمز ضروري اقتضـته الثورة ، لم يحرض عـليها ، وإن كـان على علم بهـا ، ويضع على لسـانه فكرة أنهـا ستكون حـرباً قـصيـرة ، وبلا أهمية . وهو جندي يقـبـل الحرب واقعـاً لا مفـر منه ، وتخلو روايته من التـأملات الفلسفية عن قـسوتها ، وطـافحة ببـغض الموريسكيـين ، ولا يرى في دفـاعـهم عن أنفسـهم إلا أنهم مخـربون ، وينسى أنهم يقاتلون عـدوانا واقعا عـليهم ، ولا يقف طويلاً عند المحن المروعة التي تعرضوا لها، ويرى فـي ثورتهـم تمرداً علـى السلـطة ،

لأنهم لا يريدون أن يذوبوا فى المسيحيين الأصليين . على حين ينضح كتاب دييجو بروح عصر النهضة ، ويؤمن بموقف متسامح ، ويرى العفو وسياسة اللين الحل النموذجى .

وكان مارمول يقف فى الجانب المواجه، ولا يرى إمكانية السلام ، فبين الموريسكيين متعصبون كثيرون ، ولأن العلاقة القائمة بين مسلمى غرناطة والخلافة فى تركيا سوف تحملهم إلى الثورة مرة أخرى فى المستقبل، وأنهم يريدون تدمير الإمبراطورية الكاثوليكية ، ويستحيل أى حوار أو اتفاق أو تسامح معهم ، فهم طابور خامس يجب اجتثاثه لصالح الدولة وأمنها ، ولا يرى غير الحرب حلا .

ويصف لنا مارمول بدقة الأمكنة التى جرى فيها القتال ، والأسلحة التى استخدمت ، وكيف جرت المعارك ، ويلح على امتداد فصول الكتاب فى التفرقة بين المناطق التى تعاطفت مع قضية الموريسكيين، والتى ظلت وفية للمسيحيين الأصليين ، ومن الناحية العسكرية يعد الكتاب أفضل ما كتب فى القرن السادس عشر ، ويفضل غيره من المدونات بتفصيلات وافية عن عادات الموريسكيين وطقوسهم الدينية ، فى واقعية ووضوح نفتقدهما فى المدونات التى سبقته .

كانت هزيمة الموريسكيين فى ثورة البشرات آخر جهد عظيم بذلوه للإبقاء على هويتهم ، وكانت فى الوقت نفسه الخطوة الأولى فى مخطط اجتثاثهم من على أرض آبائهم وأجدادهم ، ورأى المسيحيون فى هذا النصر تتويجاً لحركة استرداد يزعمونها قامت قبل ذلك بثمانية قرون ونصف ، ورأوا فيه بداية القضاء على جماعة لا يرون وجودها مقبولاً فى بلد يمثل عصا المسيحية فى تلك الأيام ، ومع الحرب اشتدت القسوة على الموريسكيين، وازداد هؤلاء تمسكاً بإسلامهم على نحو لم يعرفوه من قبل ، ودافعوا عن

كـيانهـم بصلابة ، وقـاتلوا أعـداءهم فى شـراسة ، وانتـصـروا عليـهم فى معـارك كثيرة، وأوشكوا - لولا الخيانة - أن تكون لهم الغلبـة النـهائـية ، سـاعـتـهـا أدرك المسيحيون تماماً أن التـعايش معهم محال ، وبدأو يفكرون فى أكثر من طريقـة لدفعهم كلهم خارج إسبانيا نهائياً .

نجد صـدى الأفكار السابقة فى كـتاب «حـروب غرناطة الأهليـة» لمؤلفه خـينيس بيـريث دى إيتـو Ginés Pérez de Hito (ت١٥٩٥) ، وجـاء فى جـزأين ، يمكن اعتبار الأول منهما رواية تاريخية عظيمة ، والثـانى تاريخـاً فى شكل رواية مـتـوسط الجـودة ، وتشـغل حـرب البـشـرات ، ويسميها كآخـرين كثيرين حرب غرناطة ، كل الجزء الثانى فى إسبانيـة حديثة واضحة خفيفة وسهلة القراءة ، وهو يكتب كجندى ذكى الأشـيـاء والأخـبـار التى تجـرى فى المعسكر ، دون أن يقـيم وزناً للتفصـيلات الرسـمـية ، ومع ذلك يجيء مصـدراً بعد دييجو ومارمول ، ويمكن الرجوع إليه فيما لا نجده عندهما ، ولكنه غيـر جدير بالثقة فيما يتصل بحـرب البشرات ، لأنه يضفى على أحـداثها ألواناً من الخـيال والزخـرفة تبتـعد بها عن الواقع التـاريخى وتشوهه ، رغم أنه قـاتل فى هـذه الحـرب جندياً مع جيـش مركيـز بليش ، ويحـتفظ له عـبر صفحات كتـابه بثناء عجيب ، ويرد الثورة إلى قانون ١٥٦٧ الذى أشرنا إليه .

وتتـضـمن روايتـه للأخـبار أشـعـاراً شعـبية، وبخـاصة فى نهـاية كل فصل ، وخطباً حمـاسية طافحـة بالخيال والأوهام وألوان من تقاليد العصور الوسطى ، ويرى فى ابن أمية أحـد عمد الثورة الرئيـسية ، ويعطى أهمية كـبرى لما وقع له من أحداث قـبـلهـا ، ومـوقـفـه الأيديـولوجى من الموريسكيين أقـرب إلـى دييـجـو منه إلى مـارمول ، يصـف حالتـهم أثر الهـزيمة : وهكذا تحـسـر الموريسـكيـون باكين فى خشوع ، ولو عرفـوا أن نهاية كل أعمالهم

أنهم سوف يُقتلعون من وطنهم ؛ لفضلوا أن يموت الآلاف منهم قبل أن يلقوا سلاحهم ، ويوقعوا معاهدات السلام، لقد أخرجوا الموريسكيين أخيراً من أراضيهم ، وكان من الأفضل ألا يخرجوا للكثير الذى خسره صاحب الجلالة وكل مملكته بطردهم من بيوتهم وقراهم ومدنهم .

وفيما يرى فإن هذه الحرب تميزت بالقسوة ، وبلغت غاية الحدة ، لأن كل فريق كان يدافع عن عقيدته الدينية ، وربما تجاوز الحدود المسموح بها فى الحروب ، وأراد كل طرف أن يجتث عدوه تماماً ، وأن يسترقه فى أحسن الأحوال ، ويورد ألواناً من الفظائع التى ارتكبها الفريقان ويجعل مسئوليتهما متساوية .

وتبلغ الرواية أعلى درجات الخيال فنا حين يفسر لنا اغتيال ابن أمية بسبب الغيرة، فقد أحب زهزة ، ولكن ابن الوزير خانه وتآمر عليه ، وقتل رئيسه بمساعدة ابن عبو ، وهى رواية فيما يرى الجميع ليست حقيقية ، ومن نسج أوهام الكاتب ، وكان ابن عبو على أية حال يمثل الجناح المتشدد فى الثورة ، ومع رياسته لها بعد مقتل ابن أمية تأكدت الثورة ومع اشتدادها ، وبقاء الموريسكيين وحدهم دون أى عون يأتيهم من بقية المسلمين ، أدرك بعضهم النهاية الأليمة القادمة ، فدعوا إلى حل سلمى ، على حين رأى الآخرون أن مصيرهم إلى الموت حتماً ، على أية حال، كان الحل سلمياً أو فى ساحة الوغى، وإذن فليموتوا فى ميدان القتال أشرف لهم وأكرم .

ونفهم من عنوان الكتاب « الحروب الأهلية فى غرناطة » ، أن المؤلف يرى الموريسكى مواطناً ، وليس من الأقلية الأفريقية التى كانت تقيم فى غرناطة فى تلك الأيام ، ويرى فى الوقت نفسه أن الحرب لم تثمر شيئاً إيجابياً لأحد ، لا للموريسكيين، ولا للدولة الإسبانية نفسها.

كان قرار الطرد الذى صدر عام ١٦٠٩ أشد الأحداث وقعاً وإثارة فى تاريخ إسبانيا ، رغم أن ثمة إشاعات كانت ترهص به ، وأن تياراً قوياً فى الرأى العام المؤثر لا ينظر إلى الموريسكيين بارتياح ، لكن أحداً لم يكن يتوقع أن يكون الإجراء الذى يتخذ معهم على هذا النحو من الجرأة والقسوة والشدة . كان معقولاً أن يتخذ هذا القرار عقب القضاء على ثورة الموريسكيين عام ١٥٧٠ ، ولكن موقف فيليب الثانى من طرد الموريسكيين خارج إسبانيا كان غامضاً ، فاكتفى بنفيهم خارج مقاطعة غرناطة إلى مقاطعات أخرى ، وإلى قشتالة بخاصة . وعلى أية حال فإن العلاقات بين الموريسكيين والمسيحيين فى الفترة من ١٥٧٠ إلى ١٦٠٩ كانت تتمزق بقوة على مهل ، والفجوة تتسع وتتعمق ، حتى أصبح كل موريسكى متهماً بالخيانة ، ووجوده فى أى مكان يثير الشبهة ، ويجعله غير مرغوب فيه .

كان الراهب الدومينيكانى خايمه بليدا أقسى عدو على الموريسكيين فى هذه الفترة، وترك لنا كتابين عن المشكلة نشرهما فى بلنسية عامى ١٦١٠ و ١٦١٨ وهو بلنسى الأصل ، ووثيق الصلة بالكاردينال ريبيرا أسقف بلنسية ، ويعمل خوريا فى كنيسة قرية قربيرة Corbera حيث يمثل الموريسكيون أغلبية السكان ، ومن هنا كان تعصبه الشديد ، وبغضه اللامحدود للموريسكيين ، وقد فشل فى إثارة المسيحيين الأصليين من أتباعه عليهم فتحول إحساسه بالعجز إلى حقد غير معقول ، وأمضى حياته من أواخر القرن السادس عشر إلى قريب من منتصف القرن الذى يليه ، يحاول إقناع المجتمع الإسبانى بضرورة طرد هؤلاء الزنادقة ، يزور الملك والوزراء ويحدثهم فى الأمر بشخصه طورا، وعن طريق المذكرات والرجاوات أطوارا أخرى ، وفشلت جهوده كلها فى مدريد حيث الإمبراطور ، وفى روما حيث

البابا ، وكتب كتابيه باللغة اللاتينية لأسباب ثلاثة فيما يقول : لأن الكتابة فيها أسهل عليه من الكتابة باللغة الإسبانية ، ولأن الأب اليسوعى لويس دى لابورتا فحصه وراقبه بتكليف من المجلس الملكى عام ١٦٠١ فى بلد الوليد ، ورأى أن هناك عقبات تحول دون نشره فى اللغة الرومانثية (= الإسبانية) ، وفهمت أنه يوجد قانون فى قشتالة يمنع الكتابة ضد الملحدين باللغة العامية » .

أصبح بليدا عضواً نشطاً فى الحزب المناهض للموريسكيين ، . وكان على رأسه الكاردينال ريبيرا أسقف بلنسية ، الذى احتضن بليدا وخصه برعاية وود لآرائه ، ودفعه بقوة كى يستخدم كل ما وسعه ، وما فى مكنته ، لتبرير فكرته والدفاع عنها، ولم يتردد فى أن يشوّه كل شئ من أجل الوصول إلى غايته ، فالموريسكى فيما يرى قاتل المسيحيين ، ويملك وسائل ومهارات متعددة تعينه على تحقيق أهدافه ، ورغم تعميدهم وترددهم على الكنائس يراهم ملحدين يجب أن يعاقبوا ، وليس من الصالح أن يعيشوا مع المسيحين لأنهم خطر عليهم ، وأن زملاءه من رجال الدين يرتكبون معصية حين يعقدون لهم قداساً .. ويهاجم النبلاء لأنهم يحمون كثيراً من الموريسكيين الذين يزرعون لهم أراضيهم ، ويرى أن طردهم لن يلحق بإسبانيا أى ضرر اقتصادى ، وحتى إذا كان ثمة ضرر فإن النبلاء المسيحيين ملاك الأراضى أتقياء طيبون ، وأتباع مخلصون لملكهم ، ومن أجل الله والسلام والصالح العام سوف يتحملون هذه الأضرار بصبر وابتهاج ، لأن ما يصيبهم من أضرار سوف يعوضهم الله عنه» .

ويثنى كثيراً على الملك فيليب الثالث وشجاعته فى اتخاذ قرار الطرد ، ويصف مقابلة له : « أول كلمة قالها لى : لقد أنقذنا الصليب من الإهانات التي يوجهها إليه الموريسكيون ، ورددت عليه : وسوف يدفع الله لجلالتك » ! .

كان كتابا بليدا فاتحة سلسلة من الأخطاء التاريخية المتصلة بالموريسكيين، وبداية اعتبارهم أقلية فى كل مقاطعات إسبانيا، وبداية الكتابة عن قرار الطرد، وأصبحا نموذجاً يحتذى لكل من كتبوا بعده من الأدب المادح للقرار، ومحاولة إقناع المترددين بانتهاز الفرصة، وأن الطرد هو الطريق السوى الذى يجب أن يسلكوه .

ويأتى بعده دميان فونسيكا Damian Fonseca وهو برتغالى من طائفة الدومينيكان، اتخذ من بلنسية أرضاً ومقاماً، وسار على خطى بليدا فى كتابه : « عدالة طرد الموريسكيين من إسبانيا : تعليمهم وارتدادهم وخيانتهم والرد على الشكوك التى تثار حول هذا الموضوع » . ويكاد يكون صورة منه فى الرسائل التى أوردها، والخطب والإثارات التى احتواها كتابه، والإطراء المبالغ فيه على فيليب الثالث لأنه اتخذ قرار الطرد، ولكنه يقدم لنا معلومات هامة عن الموريسكيين أنفسهم، فيقول عن لغتهم القشتالية (= الإسبانية) إنها كانت مختلفة، وقليلون غيرهم يفهمونها، ويسميها العجمية الموريسكية، وأنهم لم يكونوا جميعاً يحملون اسم موريسكيين، لأن الذين فى مملكة أرغون وقطلونية كان يطلق عليهم اسم «طغرينوس» Tagarinos، كلمة محرفة من طركونى Tarracones، نسبة إلى مدينة طركونة، واختص الذين فى بلنسية باسم «موريسكين» .

وهو يلح على أن الموريسكيين ليسوا مسيحيين، ويصر على أنهم ملحدون، للأخطاء الدينية التى يرتكبونها، وكانت هذه القضية موضع جدل عنيف وخلاف حاد فى القرن السادس عشر الميلادى : هل تنصر الموريسكيين معترف به أم لا ؟ . أما مؤرخو العصر فيقولون إنه قانونى، وأما رجال الدين فيرونه تقية، ويصرون على أنهم ملحدون .

ويرى دميان فونسيكا أن الموريسكيين أناس فاسدون، يتآمرون على الدولة

والكنيسة ، ويصر على أنهم مسلمون ، ويدلل على ذلك بذكر مظاهر حياتهم ، وألوان ثقافتهم ، «والبهجة التي تغشاهم عندما ينادون بأسمائهم العربية . . . «لا أحد منهم يأكل الدم ولا الميتة ، ولا ما عضه حيوان آخر ، ولو كان طائراً غرق في بحيرة» . وتتردد بكثرة في كتابه كلمة «خونة» ، وأنهم على صلة بالأتراك، وهى كلمة يراد بها فى ذلك الوقت مسلمى المشرق بعامة .

كانت التهمة الأساسية التى توجه إلى الموريسكيين بقوة من الملك ومن حوله ومن رجال الدين ، أنهم ليسوا مسيحيين حقيقيين، رغم ما بُذل من جهد ومن تضحيات غير محدودة فى سبيل تنصيرهم، وكانت كافية فيما يرون لتنصير كل مسلمى شمال أفريقيا ، ولكن مقاومتهم كانت عنيفة، ويأخذ عليهم فونسيكا أنهم يعملون يوم الأحد ، ومستثنون من التجنيد، ويحرصون على الزواج ، وينفرون من العزوبية ، فهم يتكاثرون والمسيحيون يتناقصون ، وأنهم الذين أدخلوا العملة الزائفة إلى إسبانيا ، وهرّبوا كميات هائلة من الذهب والفضة . ويرى أن قرار الطرد كان وحياً إلهياً .

ثم يشير إلى بعض الأضرار التى سوف تترتب على الطرد ، ومنها : «سوف يفقد ملاك الأرض جانباً من دخولهم . . . فالحق أن الموريسكيين كانوا يعمرون البلاد . . . ويبدو من الصعب جداً تعمير ما هو غير معمور منها الآن ، لأن البيوت بعامة صغيرة وقديمة ودارسة ، ولا يمكن للسادة تعميرها ، لأنهم يتظاهرون جميعاً بالفقر ، ولا يصنعون فى سبيل بنائها شيئاً . ويبدو من الصعب تعمير الأمكنة الخربة فى الوقت الحاضر ، كما نرى فى غرناطة ، مع أن الأرض بهجة وخصبة وطازجة وواسعة مثل أراضى بلنسية ، وكثير من القرى التى كان يعمرها الموريسكيون أصبحت خراباً إلى الأبد» .

ولكى يضفى بليدا وفونسيكا مزيداً من القوة والتأييد على فكرتهما أشارا إلى أن البابا باولو الخامس وافق على قرار الطرد، على حين أن البابا لم يكن فى الواقع محبذاً لهذه الفكرة ، وفى عام ١٦١١م . أصدر قراراً بمحو فقرتين من كتاب فونسيكا، الأولى تشير إلى أن البابا رفض أن يستقبل اللاجئين من الموريسكيين في أملاكه ، وتشير الثانية ، أو تفترض أنه وافق على الطرد ، لأن هذه الوسيلة لم تبلغ له إلا بعد أن أصبحت واقعاً نُفذ فعلاً .

. لم تكن الموجة المعادية للموريسكيين وقفاً على مقاطعة بلنسية وحدها ، وإنما نلتقى بمؤلفات أخرى شبيهة فى بقية المناطق، فقد نشر بدرو أثنار كاردونا Pedro Aznar Cardona كتابا فى وشقة عام ١٦١٢م . بعنوان : «تبرير طرد الموريسكيين وفضائل فيليب الثالث المسيحية» ، وكان من قسمين ، تحدث فى الأول منهما عن الإسلام وخص الموريسكيين بالآخر ، وتحدث فيه عن الآثار التى سوف تترتب على طردهم ، ولم يستطع أن يفلت من إسار سابقيه بليدا وفونسيكا ، فجاءت كتاباته تنضح كراهية وبغضا وبعدا عن العقل والمنطق ، وإن أورد بعض التفصيلات عن عادات الموريسكيين فى الطعام والشراب والنظافة ، كانوا جميعاً فيما يقول - أصحاب حرف تتطلب قليلاً من الجهد : نساجين وترزية وحبّالين ونسّاجى حلفاء ، وصناع حلل ، وأحذية ومراتب ، وجنائنيّة ، وبحارة ، وصانعى زيت وعسل وزبيب وسكر وغزل، وصيادى سمك ، وباعة دجاج وبيض ... وغيرها . ويكذب الفكرة الزائفة التى أشاعها خصومهم ، وهى أنهم أصحاب مهن تسمح لهم بالتجسس وقضاء الوقت فى الشمس .

وألف الكنسى ماركوس الوادى حجرى إى خابيير -Marcos de Guadalja

ra y xavier ، ومن لقبه يبدو أنه من وادى الحجارة ، كتابه «نبوءة وطرد الموريسكيين»، وفيه يقدم سيلا من البراهين الإلهية والمعجزات التى سبقت الطرد ، ليدلل على عدالة القرار ، فقد دقت أجراس كنيسة بيليّا Velilla فى أرغون لوحدها دون أن تحركها يد ، تنبه إلى خطر ما يخطط له الموريسكيون ، وظهرت مجموعة من الكواكب فى وادى غرانيون فى ٥ أكتوبر ١٦٠٣ ، ساقت السحب ، وتدفقت الأمطار حمراء غزيرة فى لون الدم، وصبغت الأرض والحشائش والأحجار فى كل المقاطعات ، وفاض نهر تورية فى بلنسية بقوة وغزارة كما لو كان طوفان نوح ، واقتحم المدن والقرى على غير عادته ، وبعد فيضان الأنهر كلها عام ١٦٠٥ جف بعدها نهر كاريون لغير سبب مفهوم ، وذات يوم من شهر مايو ١٦٠٦، رأى الذين كانوا فى الحقول ، وحيث تمكن الرؤية ، فى منتصف الليل ، السماء تنفتح عن سيف من النار يلمع فى لون الدم ، مادّاً طرفه نحو إفريقيا ، وظل كذلك حتى الفجر . . . إلى خوارق لا تنتهى رآها الكنسى دعوة من الله للانتقام من الموريسكيين !

ويرى أن حرب البشرات لم تحدث نتيجة قرار ١٥٦٧ ، وإنما بسبب سوء الغرناطيين ، الذين تحالفوا مع الأتراك المسلمين لإضعاف المسيحيين ، وقد أدى تهجيرهم إلى قشتالة إلى إفقار هذه المقاطعة مدناً وقرى ، لأن الموريسكيين استولوا على المهن الصناعية والتجارة ، يبدأون بأموال قليلة ، ويثرون بعد زمن يسير ، لأنهم أشحاء لا يأكلون ولا يشربون ولا ينفقون، وليس من طريقة فعالة تجعلهم يعتنقون الكاثوليكية حقاً إلا بمنعهم من التكلم باللغة العربية ، فمن طريقها يجئ الخطر فى أن النساء والأطفال لا يقبلون على عقيدتنا لأنهم لا يفهمون دعاة التنصير ولا العرّافين .

وتسبح أوهام هذا الرجل الكنسى فى حرية ، فيعدد النتائج التى سوف تترتب على الطرد : سوف يهبط سعر القمح ، وتتدفق التجارة بحرية ، أرضاً وبحراً ، ودون خوف ، وتصبح السماء أكثر سخاء على الأرض والزراعة ، وتتدفق الأموال ذهباً وفضة ، وتجرى الاحتفالات والمهرجانات على امتداد كل إسبانيا ، ولن يعرف الأعداء أسرارنا ، وسوف نكون أحراراً فى ثغورنا وشواطئنا ، ونتحرر من الإهانات الإفريقية ، وتتوقف حوادث الموت فى كل لحظة ، ونعمر الأرض التى تركها هؤلاء ، ويكثر عدد الجنود ، ونتغلب بسهولة على القلق والاختلاف ، ونحمى الوطن من التمرد والخيانة ، وتعيش فيها العقيدة الكاثوليكية الرسولية الرومانية ، ونصبح آمنين تماماً فى بيوتنا كما وعدنا الله .

والحق أن كل الذين تحدثوا عن الطرد كانوا متفائلين بنتائجه ، وهى نقطة تجد معارضة شديدة من الفكر الإسبانى المعاصر، فقد ترتب عليه الخراب الزراعى الكامل فى بلنسية ، والتدمير الشديد فى أرغون وأندلوثيا ومقاطعات أخرى حيث عدد الموريسكيين أقل ، وتدهورت الصناعة تدهوراً كاملاً على نحو ما سنعرض له فيما بعد .

إذا تركنا قساوسة الكنيسة وخرافاتهم وأوهامهم وتعصبهم المقيت إلى الكتب التى حاولت أن تؤرخ للحرب ، وجدناها أقل إملالا ، مهما كان تبريرهم للعمل بأسباب يرفضها المنطق والعقل ، ورغم ثنائهم العاطر على فيليب الثالث ، فقد أوردوا فى الحق معلومات حربية هامة ، وأبدوا بعض التفهم لموقف الموريسكيين ، وشيئاً من الوصف الواقعى للظروف التى كانت سائدة ، وكان كتاب أنتونيو كورال إى روخاس Antonio Corral y Rojas «تاريخ تمرد الموريسكيين وطردهم من مملكة بلنسية»، ونشر فى بلد الوليد عام ١٦١٣،

الأول الذى سار فى هذا الاتجاه، فقد اهتم أولاً بالمعلومات الحربية ، ووصف الشخصيات والأمكنة والمعارك الحربية المرتبطة بالأحداث ، ويصف الموريسكيين بأنهم خونة وملحدون ، وبأنهم أعداء أقوياء ، ومقاتلين أشداء وصارمين ، وهو يحزن لطردهم ، لا إشفاقاً عليهم لإخراجهم من ديارهم ، وإنما لإمكان أن يهرّبوا ما يملكون من أموال وهو كثير ، ويثنى على القادة الذين جردوهم من كل شئ عند طردهم ، وقبله كانوا قد أخذوا منهم كل ما يملكون ، ويقرر أن الذين طردوا من مقاطعة بلنسية وحدها كانت عدتهم مئة وأربعين ألفاً ، وهو رقم أدنى مما يراه الآخرون . وكرجل حرب لا يرى أن الطرد يحتاج إلى تبرير ، ويقرر أن التعايش مع الموريسكيين مستحيل ، وعلى أية حال يمكن اعتباره تاريخ حملة عسكرية، أوردها المؤلف فى شكل روائى سهل الفهم .

لم يثر طرد الموريسكيين أى لون من النقد فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، لأن المناخ تغير جذرياً ، وسقطت إسبانيا فى مشكلات داخلية عويصة، وفى النصف الثانى من هذا القرن بدأت تظهر الآراء المعارضة لقرار الطرد ، وكان سماح الملك كارلوس الثانى لبعض من ينحدرون من موريسكيين بالإقامة فى شبه الجزيرة الإسبانية دليل واضح على أن تغييراً ما حدث فى عقول الحكام الإسبانيين . وبوفاة هذا الملك عام ١٧٠٠ انتهى عصر أسرة استورياس الإسبانية، وبدأ حكم أسرة بوربون ذات الأصل الفرنسى ، فقد تولى بعد الملك كارلوس الثانى فيليب الرابع بوصية منه ، وكان حفيداً للويس الرابع عشر، ومع بداية حكمه سقطت مشكلة الموريسكيين فى النسيان تماماً ، ومع أن المؤرخ الإنجليزى ميشيل جديز Michael Geddes مزق ستار هذا الصمت بكتابه «تاريخ طرد الموريسكيين خارج إسبانيا فى

عهد فيليب الثالث» ونشره فى لندن عام ١٧٠٢ ، لكن الكتاب لم يكن معروفاً فى إسبانيا نفسها ، ولم يشر إليه أى من مؤرخى القرن الثامن عشر .

كان الرومانسيون هم الذين ردوا أمر الموريسكيين إلى ذاكرة الإسبان بعد الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، وإلى هذه الفترة أيضاً تعود دراسات نشرت فى القرن العشرين فحسب، ومعظمها يطرى سياسة الطرد ويثنى عليها وقلة حاولت أن تقيم هذ السياسة ، وأن تدرس الأمر فى شىء من الموضوعية ، وتلتقى كلها فى تقديم الصراع على أنه عرقى ، فالمسلمون عنصر، والمسيحيون عنصر آخر، يتقاتلان على أرض شبه الجزيرة الإسبانية منذ عام ٧١١م ، وهى وجهة نظر تتعارض تماماً مع الحقائق التاريخية الثابتة ، ومع المنهج الذى تحلل به الأحداث الآن .

وتكررت مقولة تحقيق الوحدة الوطنية، وذلك يعنى طرد الأقلية ، واعتبروا الموريسكيين كذلك ، وفى هذا الجانب كانت الأغلبية تدافع عن التوحيد الدينى، وترى الدين عنصراً جوهرياً فى بناء الوطن الإسبانى، وبقيت قلة تدافع عن الأقلية، وتهاجم الإدارة الإمبراطورية ، ومع ذلك ليس من السهل إقامة خط فاصل وواضح بين الفريقين ، لافى هذه المشكلة ولافى غيرها ، وكل ما يمكننا قوله أن هذه الكتابات تدور حول محاور ثلاثة :

● مؤرخون اكتفوا بتقييم الحل الذى اتخذه الملوك الذين ينحدرون من أسرة استورياس ، معتمدين على ماكتبه الآخرون فى القرنين السابقين دون أن يعتمدوا على أية وثائق أصيلة .

● دراسات تقوم على نصوص ووثائق قوية لما تنشر من قبل ، وبخاصة ما اتصل منها بمحاكم التفتيش ، ومحاضر مجالس البلديات ، والبرلمان ، والرسائل الدبلوماسية والإدارية ، والمحفوظة فى دور الوثائق المختلفة فى بلنسية وأرغون فى برشلونة ، وسيمنكس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

● أدباء ألفوا روايات أدبية تعتمد على وقائع تاريخية حقيقية ، وهم متأثرون أو ينتمون مباشرة إلى الموجة الرومانسية التى امتدت بقوة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وفى نطاق هذا التقسيم يجب أن نأخذ فى الاعتبار الاتجاهات الفكرية لكل مؤلف، فالمحافظون يدافعون بقوة عن الوحدة الدينية الإسبانية ، وعاجزون عن نقد قرار الطرد ، ولا يجدون أية نقطة سوداء فى اتخاذه وتنفيذه ، والأحرار أكثر تسامحاً وتعاطفاً مع الموريسكيين وأشد نقداً للسلطة .

كان على رأس كتاب القرن التاسع عشر ، ويمثل الجانب المحافظ ، ميننديث إى بلايو (١٨٥٦-١٩١٢) ، وهو ناقد ومؤرخ ، وعمل مديراً للمكتبة الوطنية فى مدريد ، ومن مدينة فى الشمال لم تر المسلمين خلال حكمهم إلا عابرين ، ومتنوع الثقافة ، غزير الكتابة ، كثير المؤلفات ، ويهمنا من بين أعماله كتابه الضخم « الراشدون الإسبان» ، وخصص فصلاً فى الجزء الرابع منه لتحليل مشكلة الموريسكيين ، ولم تكن غايته أن يصف حياتهم ، وإنما سجل بعض أفكاره عن مواقفهم الاجتماعية ، ليبرر فى النهاية المآسى التى عانوها ، والقرار الذى اتخذ بإزائهم .

وبعد مقدمة قصيرة عن شخصية الموريسكى وازن بينه وبين اليهودى : «كانت ظروف الموريسكيين أفضل من ظروف اليهود ، وحظهم من بعض الناس أقل ، وهياج الشعب ضدهم دون هياجه على اليهود بكثير . والموريسكيون طيبون ومسالمون وعاكفون على الزراعة والمهن الآلية ، وفن المعمار ، ولا يثيرون الغيرة أو الحسد فى معاملاتهم وتجارتهم ، على نحو ما يلقى اليهود» .

ومع ذلك فإن هذه المقدمة تنتهى به إلى نتائج غير منطقية ، فهو ينتقد سياسة

كارلوس الخامس وفيليب الثانى لأنهما كانا متسامحين مع الموريسكيين ، ويرى أن اعتناق هؤلاء المسيحية كان زائفاً ، وأن سياسة تذويبهم لم تؤد إلى نتيجة .

ويرى أن الصراع كان بين جنسين ، وأن الأضعف دفع الثمن ، ويقدر عدد الذين طردوا من مملكة بلنسية وحدها بتسع مائة ألف موريسكى دون أن يدخل فى الحسبان الموريسكيين الذين ماتوا فى الجبال هرباً، والذين تخلفوا ولم ينفوا، وصب كل أسفه على التأخر فى تنفيذ هذا القرار .

وقد خصص موديستو لافونت Modesto Lafuente (١٨٠٦-١٨٦٦) صفحات واسعة من كتابه الضخم عن تاريخ إسبانيا لتحليل مشكلة الموريسكيين ، وكان أكثر الكتب قراءة فى عصره ، ولهذا فإن أفكاره أثرت كثيراً فى الرأى العام الإسبانى على امتداد القرن التاسع عشر . ورغم أنه كان يتحرك مثل كل مؤرخى عصره فى دائرة التعصب الوطنى والدينى، فقد حمل كتابه وثائق جديدة عن الموريسكيين ، حصل عليها من دار المحفوظات فى سيمنكس ، فأصبح مصدراً هاماً لمعرفة ما حدث فى القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، ومع أن ما رواه عنها لا يختلف عما رآه سابقوه، لكن نظرته إليها ، وحكمه عليها كان جديداً .

ويعترف رغم عدم عدائه للموريسكيين بأن ثورتهم التى شغلت أعوام (١٥٦٨-١٥٧١م) كانت مرعبة ، ويرى المظالم التى وقعت عليهم قاسية ، وكان يمكن أن تكون أخف ، فليس بين يدى الموريسكيين مدينة يملكونها ، ولا قلعة محصنة ، ولا جيش منظم ، وإنما يمتلكون شجاعة عالية ، وحمية عظيمة ، ومتعصبون لإسلامهم بلا حدود ، وغاضبون كالأسود ، ومع اضطهاد المسيحيين لهم ، والمعاملة السيئة التى

يلقونهـا ، فإن الحرب التي قامـوا بها كان من الضروري أن تندلـع ، وكان كفـاحهم متعدد الجوانب » .

وهو يرى القضية لأول مرة في التاريخ الإسباني من وجـهة نظر تخالف كل الذين سبقوه ، ويصر على أن المسئولية موزعة : الموريسكي متمرد ، ولكنْ ألَمْ يحمله على اتخاذ هذا الموقف الظروف التي أحاطت به في عصره ؟ . «إنها حرب نـعتقد أنه كان من الممكن تجنبـهـا بشئ من التـعـقل من جانب فيليب الثاني ومسـتشاريه الإسبان ، ولكنهـا ضرورية إذا أخـذنا في الحـسـبـان طريقة الملك التي كان ينفذها لإقامة الوحدة الدينية في مملكته» .

وعبـر صفحـات الكتاب لا يكف عن نقـد حكومـة فـيلـيب الثـاني ، لأن تمرد الموريسكيين لم يكن وليـد شر ذاتي ينطوي عليه جنسـهم ، وأي شعب غيـرهم سوف يثور عندما يجد غـيره ينتزع منه بعنف كل الأشياء الأكـثر قيمة في حـياته ، وهـذا ما حـدث مع الموريسكيين في البـشرات ، والذين برهنوا كثيراً على شجاعتهم القوية ، وحمـيتهـم العنيفة ، والتـصاقـهم الشديد بعاداتهم وتقاليدهم ، ولقـد دفعهم الإحباط إلى الاندفاع في حرب ليـسوا على ثقة من نتائجها ، ولم يكن أمامهم طريق غيرها .

لقـد كان خطأ سـياسيـاً دفعـهم إلى الثورة ، وإلى حرب دموية عاتية ومدمرة ، وفـيهـا عومل الأبـرياء كالمخطئين تمامـاً . وحلل نـتـائـج طردهم في المجـالات : الاقتصادية والسياسية والدينية .

أدى طرد الموريسكيين ، فـيـمـا يرى لفـونت ، إلى نـتـائج بـالغـة الأثر في المجالات الاقتصادية ، فقد أدى إلى اختفاء شـعب ذكـي عـامل ، مـاهرٌ فـي الفنون العمليـة والصناعات الحـرفية ، أسـتاذ في الزراعة بعـامة ، وفي غـرس قصب السكر والقطن والحـمـضيـات بخـاصـة ، ولهم طرقـهم الرائعة في الإرواء ، واسـتخـدام السواقي والقنوات ، وتميـزوا في صناعات

النسيج والورق والجلود ، ويعدهم شعر الجميع بنقص الأيدى العاملة التى تتسم بالمهارة والذكاء ، ذهبوا فجأة ، وكان مستحيلاً أن يملأ فراغهم أحد ، والذين حلوا مكانهم فيما بعد كانت أجورهم عالية، وحركتهم بطيئة ، فجاء إنتاجهم غالياً ، وهكذا حل مكان ضجيج الحياة ، وصخب العمل ، وتدافع الناس ، حزن صامت ، وقرى مهجورة ، وسيطر اللصوص وقطاع الطرق على السبل الآمنة .

ويرى أن الدوق دى ليرما De Lerma كان الوحيد الذى استفاد من قرار الطرد ، فقد استولى على جانب كبير من الأموال التى بيعت بها أملاك الموريسكيين ، ويقدرونها بأنها تتجاوز خمسة ملايين ونصف مليون ريال بنقد ذلك الزمان . ويؤكد أن طرد الموريسكيين هو الوسيلة الأكثر عنفاً على امتداد تاريخ إسبانيا كله ، وينقل مقولة الكاردينال الفرنسى ريتشيليو Richelieu (١٥٨٥-١٦٤٢م) عن طرد الموريسكيين بأنه «النصيحة الأكثر اندفاعاً وهمجية على امتداد تاريخ كل العصور» .

وفيما يتصل بالوحدة الدينية يرى لفونت أن كل ملوك إسبانيا وشعبها عمل من أجلها ، ولكن الوصول إليها باستئصال الذين يمارسون عقائد أخرى عمل لم يكن صواباً ، وكان من الأفضل استخدام الإقناع والعقل واللطف ووسائل متحضرة غير تلك التى استخدمناها معهم .

وأوجز أفكاره فى النتائج السياسية على النحو التالى : «لم نجد فى الخطط الواسعة والخطرة ، التى يصورها أنصار النفى ، ولا فى قوة الموريسكيين فى بلنسية، ما يمكن أن يثير مخاوف جادة ، وأبعد من هذا بكثير أن يثيرها الموريسكيون فى أرغون أو مرسية ، كما بسطها نواب الملك فى تلك الولايات ، وكانوا الأكثر التصاقاً بالواقع ، وقدرة على تقييم المواقف، ولا نعرف أن الموريسكين فى

قشتالة تآمروا، أو حتى يستطيعون التآمر».

وعلى أية حال عندما نجد بعد الانتصار على المسلمين بقرن من الزمان أن الموريسكيين يخضعون لنا ، وتحكمهم قوانينا ، ويعيشون محيطين بيننا، ويختلطون بالإسبان المسيحيين ، ومع ذلك لم ننجح فى إذابة تقاليدهم وعاداتهم ، ومزجهم بنا ، ويعيدون بناء شعبهم المنهزم، الذى يعيش وسط جماهير الشعب المنتصر العريضة ، وعجزنا عن جعلهم يتمثلون حضارتنا ، أو أن نصنع منهم إسبانا مسيحيين دون أن نستخدم العنف لاستئصال جيل بأكمله ، ذلك يعنى فشل سياسة فيليب الثالث ومن جاء بعده أو سبقه من الملوك .

غير أن كانو باس دل كاستيو Cáno-vas del castillo فى كتابه «تاريخ إسبانيا العام» وصدر فى مدريد أعوام (١٨٩٠-١٨٩٤) يرفض آراء لفونت ، وحاول أن يفندها ، ويرى أن الطرد كان وسيلة عادلة ، دون أن يكون أياً من آرائه التى أبداها مقنعاً ، ويعترف بأن الأضرار الاقتصادية كانت فادحة ، وفى بلنسية بخاصة ، ولكنه يرى أن الوحدة الدينية فيها العوض ، وأن إعمار القرى التى خلت من سكانها كان سريعاً .

فى منتصف القرن التاسع عشر نشر الكونت ألبير دى سيركو Albert de Circout كتاباً بالفرنسية ، ونشره فى باريس عام ١٨٤٦، فى ثلاثة أجزاء عن «تاريخ المسلمين والمدجنين والموريسكيين» ووقف نصفه تقريباً على مشكلة الموريسكيين ، ودرس فى الجزء الثانى وبعض الثالث حرب غرناطة، معتمداً على الوثائق التى نشرها سابقوه من المؤرخين . وفيه ينتقد سياسة الملك وموظفى الدولة صراحة ، ويدافع عن الموريسكيين ، ويراهم شهداء التعصب الإسبانى رغم أن إسبانيا تدين لهم بالكثير ، ولا يستحقون هذه المعاملة السيئة .

وهو فى نظرته هذه إلى الأحداث يقف فى مواجهة الغالبية العظمى من المؤرخين الإسبان، لا فى ما يتصل بموقفهم من الأقلية فحسب، وإنما أيضاً فى نظرته إلى العصر بأكمله ، وهو يجعل من ثورة الموريسكيين الأساس ، ويخصها بدراسة وافية ، على حين يشغل قرار الطرد نفسه أربعة فصول مختصرة ومركزة ، وخلال الدراسة يركز على نقد محاكم التفتيش ، والتعصب الدينى ، ويرى المجتمع الإسبانى مجتمعاً مغلقاً لا يعرف التسامح، دموياً وطاغياً ، ويسمح لنفسه بأن يلعب بأقدار نصف مليون إنسان . وهو يهاجم فيليب الثالث ، ويحمل الدوق دى ليرما المسئولية الكبرى ، ويتهم الملك بأنه استولى على كل ممتلكات المساجين الذين سيقوا إلى السفن لتحملهم إلى المنافى ، وأن قانون الطرد هذا حرم منطقة بلنسية وحدها من مائتى ألف إنسان . ولقد كان القرار - فيما يرى - ظلماً صارخاً وقع على طائفة من أبناء الوطن هم الأكثر إنتاجاً .

فى الطريق إلى السفن التى سيق إليها الموريسكيون حفاة مشاة ، كان كل شئ يباع لهم بأسعار مرتفعة للغاية ، بما فيها مياه الأنهار التى يمرون بها لو حاولوا الشرب منها ، أو الأشجار التى يحاولون أن يتفيأوا ظلالها ، ويستريحوا تحتها لحظة من الزمن .

ويرى الموريسكيين إسبانا شأن غيرهم وحب الوطن هو الذى جعل الشبان فى رقوطة يتزوجون من مسيحيات أصليات لكى يظلوا فى إسبانيا وطنهم ، وأن يدخلوا الأديرة إحتماء بها ، وأن يسلكوا طريقهم إلى قمم الجبال بحثاً عن مخبأ ، حيث انتهت حياتهم التعسة ولكن تأمّل السماء فوقهم بث فى نفوسهم شيئاً من السعادة ، وسلاّهم عن كل ألوان المعاناة والملاحقة .

ويورد أعداد المنفيين التى أوردها المؤرخون قبله ، وأنها تتراوح بين أكثر من مليون فى أعلاها ، وأربع مائة ألف فى أقلها ، ولكن ينتقدها ولا يأخذ بها ،

ويرى أنه لمعرفة الذين خسرتهم إسبانيا من الموريسكيين لابد أن ندخل فى عدادهم الذين أعملوا السيف فى رقابهم، والنار لإحراقهم، والجوع، والذين هربوا قبل صدور القرار .

فى الثلث الأول من القرن العشرين نسى الإسبان مشكلة الموريسكيين ، واهتم بها المستشرقون وحدهم، وفى جانبها الدينى فحسب ، ربما لأن المؤرخين رأوا أنها قتلت بحثاً ، ولم يبق من جديد يمكن أن يضاف إليها .

ثم جاءت الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦-١٩٣٩) وفيها انتصرت الفاشية بقيادة الجنرال فرانكو، فأخذ الفكر الإسبانى بعدها اتجاها جديدًا، يهدف إلى تعميق الروح القومى ، وتمكين الانتماء الوطنى، ووسيلته إضفاء صفة العظمة على عصر ملوك إسبانيا الذين انحدروا من أسرة أستورياس ، وتمجيد كل ما قاموا به من أعمال ، وإذا وجدت دراسة تتصل بالموريسكيين فإن غايتها الوحيدة أن تذكر الإسبان بالظروف التى عاشها الإسبانى المسلم المهزوم .

ولكن ما إن استقر المنتصرون فى الحكم فى إسبانيا والمنفيون فى مهاجرهم من أوربا وأمريكا حتى فجر أميركو كاسترو القضية بكتابه العملاق : «إسبانيا فى تاريخها بين المسلمين والمسيحيين واليهود»، وصدرت طبعته الأولى فى بونس أيرس عاصمة الأرجنتين عام ١٩٤٨ ، ثم عاد إليه مؤلفه وعمقه وأضاف إليه جديداً فى ضوء المناقشات الحادة التى جرت حوله ، وأصدره فى طبعة ثانية فى المكسيك عام ١٩٦٢ بعنوان : «حقيقة إسبانيا التاريخية»، وقد ظل الكتاب ومؤلفه ممنوعين من دخول إسبانيا حتى وفاة فرانكو عام ١٩٧٥، لأنه كان ثورة فى كل الأفكار المتصلة بتاريخ إسبانيا فى عصرها الإسلامى، وأخذ منحى فلسفيا ، فهو يقف عند الكليات، والتنظير والتوثيق ،

وترجم إلى عدد كبير من اللغات الأجنبية: الألمانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية وأنهيت من قريب ترجمته إلى العربية ، وهى فى انتظار الناشر الجاد .

الكتاب عميق ومكثف ، ومن الصعب حتى أن يومئ المرء إلى أفكاره فى هذا الموجز ، ونكتفى بإيراد رأيه عن الموريسكيين، وهو ما يهمنا هنا ، ومجمله «أن وراء طرد الموريسكيين ما هو أكثر من التعصب الدينى والمنافسة الاقتصادية وغباء الحكومة ، وعلينا أن نأخذ فى الحسبان إلى جانب ما سبق تكوين الحياة الإسبانية وطريقتها فى العمل ، وهى فى هذا وحيدة ولا شبيه لها فيما يتصل بالقيم التى أوجدتها، قيم كانت أداة تحطيمها فى نهاية المطاف» . والخطيئة الوحيدة التى يأخذها كاسترو على الموريسكيين أنهم حاولوا أن يستردوا سلطانهم الذى فقدوه عام ١٤٩٢

«لقد كان المجد والإمبراطورية يشغل الطبقة العليا المسيحية أكثر مما يشغلها الواقع الاقتصادى والاجتماعى وأصابهما الشلل ، ولو عمل الموريسكى للمسيحى على نحو ما كان يفعل الهندى فى المكسيك وبيرو لأصبحت الحياة الإسبانية شيئاً آخر، ولكن تراثه من الهيبة الإسلامية ، وإحساسه بها، رغم سقوطه ، سمح له أن يبنى حياته الخاصة والمستقلة إلى حد ما، فيما يتصل بالاقتصاد وممارسة شعائر دينه علانية إلى حد ما» .

ويرى كاسترو أن المسلمين طردوا من إسبانيا رغم أنهم لا يقلون إسبانية عن الذين بقوا فيها وتخلت عنهم الدولة وهم الأكثر عملاً وإنتاجاً وتوفيراً لمجرد «الشرف الوطنى» ، المتمثل فى الوحدة الدينية ، وسيادة السلطة الحاكمة ، وقد تحولت المشكلة الموريسكية فى القرن السادس عشر إلى صراع إرادات من أجل البقاء بين

المتخاصمين، ونتيجتها الوحيدة أن يقضى أحد الطرفين على الآخر ، وأدى هذا الحل إلى تدمير أكثر من مقاطعة إسبانية . لقد كان الموريسكيون يكونون قطعة من إسبانيا وامتداداً لشعبها وتغير موقف الدولة منهم حين شعرت أنهم خطر على أمنها ، بتراسلهم وتواصلهم مع بقية المسلمين خارج شبه الجزيرة الإيبيرية .

وقد تصدى سانتشو البرنس لفكر أميركو كاسترو، وتخاصماً بقوة، ومع أن البرنس كان ضد الفاشية، ومنفياً شأن كاسترو، ولكنه كان متعصباً بلا حدود، وما أكثر ما يعشى التعصب عن الحقيقة الواضحة، وقد عرض أفكاره فى سلسلة من المقالات جمعها فى كتاب نشره عام ١٩٦٢م فى بونس أيرس حيث يقيم، وهى لا تخرج فى مجملها عما كتبه المتعصبون من الإسبان فى عصور الظلام الفكرى، إلا أنها كتبت فى لغة العصر الحديث، وحاول صاحبها أن يضفى عليها ظلاً من المنهجية فى التناول ، ويرى أن عملية الطرد كانت ضرورية لا مفر منها ، ويأسى على أن تنفيذها جاء متأخراً، مهما كانت قاسية ولوثت تاريخ إسبانيا .

ويقدم لنا جريجوريو مارنيون ، وهو طبيب إسبانى عالمى، مفكر وفيلسوف، ويلتقى مع كاسترو والبرنس فى أنه مثلهما وقف ضد الفاشية، وعانى مرارة النفى ، ولو أنه عاد إلى وطنه قبلهما فى حياة فرانكو نفسه، تفسيراً جديداً، وجديراً بأن نشير إليه. فقد ألقى وهو فى المنفى، إبان الحرب العالمية الثانية، محاضرة فى مدرسة العلوم السياسية فى باريس، فى شهر مارس ١٩٤٢م، بعنوان : «تأثير فرنسا فى السياسة الإسبانية من خلال المهاجرين إليها»، ونشر المحاضرة فيما بعد، إلى جانب قضايا أخرى شبيهة، فى كتابه «إسبانيون خارج إسبانيا» ، وصدرت طبعته الأولى عام ١٩٤٧م .

فى هذه المحاضرة عرض لطرد الموريسكيين من إسبانيا، لأن جانباً محدوداً

منهم هاجر إلى جنوب فرنسا ، واستقر فيها، وتلاشوا مع الزمن، يقول بالحرف الواحد :

«كل المؤلفين الإسبان والأجانب يعتبرون طرد الموريسكيين نتيجة تعصب فيليب الثانى ومحاكم التفتيش، فقد ضحوا استجابة لتعصبهم الدينى بثروة إسبانيا، لأن الموريسكيين كانوا الفلاحين الأكثر فعالية ومهارة فى كل إسبانيا، ولكن الحقيقة شئ آخر . فلا أحد كان يعرف أكثر من الملك، ومن كبار ملاك الأرض، ومن الكنيسة نفسها فائدة الموريسكيين، فقد كان هؤلاء يقومون على فلاحة أراضى الطبقة الارستقراطية الواسعة، وأملاك الكنيسة العريضة ، بطريقة رائعة، وبتكلفة زهيدة، ولهذا فرغم المعارضة الشديدة التى أبداها المريسكيون للتخلى عن دينهم، ومقاومتهم العنيدة ضد اعتناق المسيحية ، فإن المجتمع قبلهم وتحملهم على امتداد قرنين من الزمان . ولم تكن ملاحقة محاكم التفتيش خاصة بهم وحدهم ، وبذلت الكنيسة جهوداً خارقة لحملهم على اعتناق الكاثوليكية ، ولكن هذه الجهود ضاعت كلها عبثاً ، فقد ظل الموريسكيون أشد عناداً وتصلباً فى الاستمساك بعقيدتهم وأقل نفاقا من اليهود، ونادراً ما مارسوا المسيحية أو تظاهروا بممارستها، وأكثر من هذا كانوا يجدون متعة ، ويحسون بالزهو، فى أن يظهروا أمام المسيحيين تمسكهم بتراثهم الدينى ، ويتم ذلك أحياناً بطريقة استفزازية . وبما أنهم لا يجندون فى الجيش ، ولا يشاركون فى الحرب، ولا يعترفون بالرهبنة، بدأوا يفوقون الشخصية الإسبانية، حتى أنهم كانوا سيمتصونها فى أعوام قليلة قادمة» .

ويرى «أن الطرد كان لأسباب سياسية بحتة، وضد رأى جانب كبير من الأساقفة الإسبان، وضد رأى كل رجال الدين دونهم، وتتمثل هذه الأسباب فى فطنة الشعب الموريسكى الواضحة والخطيرة ،

واتصاله بالحكومات الأجنبية، وبخاصة حكومة فرنسا، وما كان بوسع فيليب الثالث أن يتصرف بغير هذه الطريقة فقد كانت هذه الاتصالات تهدد بقوة الوحدة الوطنية الضعيفة» .

ونجئ أخيراً إلى دراسة خوليو كارو باروخا ، وهو إسباني من منطقة الباسك، ويوصف كتابه : «الموريسكيون في مملكة غرناطة : دراسة تاريخية اجتماعية»، وصدر عن معهد الدراسات السياسية في مدريد عام ١٩٧٦، بأنه من خير الدراسات في بابه ، ونال عنه جائزة أحسن بحث عام ١٩٨١، وفيه أوجز الأصول الأولى التي تناولت القضية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأعطى اهتماماً خاصاً لمسألة الأصول العرقية ، وتتبع بدقة العادات والتقاليد والموروثات التي كانت سائدة بين الموريسكيين الذين يقيمون في غرناطة أو خارجها في جبال البشرات وأحاط بثقافتهم النظرية والعملية، وعرض لألوان الاضطهاد التي حلت بهم، ويرى أن إعلانهم الحرب على الدولة كان المخرج الوحيد أمام محاولة تدمير ثقافتهم وبنائهم الاجتماعي، وأدى هذا بهم إلى شدة تمسكهم بدينهم، فأصبحوا أقوى إسلاماً، وأحرص على أداء شعائرهم وإقامتها علانية، مما كانوا عليه في أي يوم سبق من الأيام .

• • •

فإذا جئنا إلى الدراسات الآنية وجدنا أنها كثيرة ومتعددة ومتنوعة، والقضية الموريسكية توجد في أية دراسة تتصل بتاريخ إسبانيا في القرن السادس عشر، أو بمحاكم التفتيش، أو بالعصر الذهبي في الأدب، وفي هذا الأفق الواسع يوجد مؤلفون يتحركون في إطر جغرافية أحياناً، واتجاهات تتميز بمضمونها الذاتي» . وربما كان أبرز هذه الاتجاهات الميل إلى تحليل الأدب الموريسكي، وهو المكتوب في اللغة الرومانثية الإسبانية، إحدى عاميات اللغة

اللاتينية، فى حروف عـربية، وعرف باسم الأدب العجمى Al jamiado .

عبر القرون الماضية تعرض هذا الأدب لاحتقار شديد، ورآه الدارسون غامضاً غير واضح، انعكاساً لحيـاة الموريسكيين البائسة المتدنية ، وموقفهم بوصـفهم أقلية ثقافيـة لا تستأهل أن يقف أحد عندها . وهو رأى زائـف وظـالم ، لأن أهـمـيـة هـذا الأدب لا تتمثل فى مستواه الأدبى فحسب ولا فى مستوى اللغة التى كـتب فيها، وإنما فى أنه نقل لنا طريقـة تفكير الموريسكيـين ، وقد تولى بعض العلمـاء الإسبـان نشر جـانب قليل منه ، وبقى الـكثيـر مـخطوطاً لما ير النور ، غيـر أن جانبـاً لابأس من الرسائل الجـامـعـيـة يدور حـول مـخطوطات هذا الأدب، يحققها، ويدرسها ، ويعيد كتابتها فى اللغة الإسبانية الحديثة، إلى جانب نشر الأصل نفـسـه أيضـاً، ومـوضوعـات هذا الأدب تدور فى جملتهـا حول نقد الوسط الإسبانى الذى عاشوا فيه، وشجب العقيدة المسيحية التى أكـرهوا على اعتناقها، وبلغ الاهتمام بهذا الأدب قـمته فى الحوار الذى أقيم حوله فى مدريد عام ١٩٧٨م

ومـاذا عن الموريسكـيين فى العـالم العربى والإسلامى ؟

هذا حديث آخـر يثير الـشجن، يبكى القلب ، ويدمع الـقلم، فلندعـه لمناسـبـة أخرى .

الطاهر احمد مكى

☆ ☆ ☆

أبـو الحسـن الديلمـي وكتـابه

« عطف الألف المألوف على اللام المعطوف »

للأستاذ الدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعي

إنه نص صوفي عربيٍ عمره ألف عام أو تزيد ، يتناول ظاهرة الحب الإلهيِ ، والحب بوجه عام ، بالدراسة المستوعبة والتحليل الدقيق .

ولعله يكون أول كتاب كامل ، يصل إلينا ، من ذخائر التراث العربي الإسلامي ، مقصورا على هذا الموضوع الجليل[1] ، إذا ما تركنا جانبا الرسائل الصغيرة والفصول المتناثرة في المصادر التي سبقته .

أما كلٌ من كتاب « الزهرة » للفقيه الظاهري ابن داود (ت ٢٩٧ هـ) ، و« كتاب الموشى في مسالك المحبين والظرفاء » للأديب الناقد محمد بن أحمد الوشاء (٣٢٥-٣٩٦ هـ) ، وكتاب « اعتلال القلوب » للأديب المتفقه أبيِ بكر الخرائطيِ (ت ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م) فقد تناول - بتحليل قريب الغور - الجانب الإنساني من الظاهرة ، مع عناية بالجانب الأدبي خاصة ، وإن لم يخل كل منها من إلماحات إلى الجوانب الفكرية والروحية[2] .

وأما كتاب « الرياض في أخبار المتيمين » لمؤلفه محمد بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) المعاصر لكتابنا هذا ، فإنه لم يصل إلينا ، وإن كانت النقول المتفرقة عنه - لدى السراج وابن الجوزي وغيرهما - توحي كذلك بطبيعته الأدبية الإنسانية [3] .

وكاتب هذا النص هو الصوفي السني أبو الحسن الديلمي ، الذي عاش أكثر أعوام حياته ، إن لم يكن كلها ، في

(١) انظر ريتر : مشارق أنوار القلوب ، ص هـ من المقدمة .
(٢) انظر بل : نظرية الحب عند متأخري الحنابلة ، ص ٨ - ٩ .
(٣) السابق ، ص ٩ .

القرن الرابع الهجري ، حين بلغت الثقافة الإسلامية أوج ازدهارها ، وتتلمذ لأبى عبد الله محمد بن خفيف ، شيخ شيراز الكبير (ت ٣٧١ هـ / ٩٨٢ م) ، وترجم له ، وورث عنه مشربه الصوفى مع نزعته الحلاجية المعتدلة . وقد وظف المؤلف البارع تجاربه الروحية والاجتماعية، ومعارفه الأدبية والكلامية والفلسفية ، وثقافته الدينية ، فى تحليل ظاهرة الحب من حيث أسبابها ودواعيها ، وأحوالها وشواهدها ، وأطوارها المختلفة ، ومستوياتها الإلهية والإنسانية ، وآثارها الفردية والاجتماعية ، ومواقف علماء المسلمين منها على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم ، مع تفتح ملحوظ على الثقافات الأخرى التى ألم بها معاصروه فى ذلك القرن الزاهر .

وضمن المؤلف كتابه - لحسن الحظ - نصوصا هامة وشذرات متفرقة من أعمال سابقة ، فى موضوع المحبة ، ما يزال الكثير منها مفقودا إلى اليوم .

ولئن كان هذا الكتاب النفيس قد احتجب فى أطواء الماضى أمدا طويلا فقد شاء الله - تعالى - أن يخرج إلى النور ، فينشر نصه العربى لأول مرة فى مطلع الستينيات من القرن العشرين ، ثم تنشر ترجمته الفرنسية فى أول الثمانينيات(١) .

وها نحن أولاء نعيد إصداره ، بمزيد من الاحتفاء والعناية ، فى لغته الأصلية ، فى العقد الأخير من هذا القرن ، ونقدمه أيضا إلى قراء الإنجليزية فى ترجمة نرجو أن تلقى قبول المهتمين منهم بالتراث الصوفي والثقافة الإسلامية بوجه عام(٢) .

وبالرغم من أن الكتاب لا يوجد الآن - حسب علمنا - إلا فى مخطوطة وحيدة، محفوظة فى مكتبة أوربية ، فقد كان فيما يبدو ، أحد الأعمال التى مارست، لفترة ملحوظة ، لونا من التأثير

(١) أصدر المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة النص العربى للكتاب ، بتحقيق الأستاذ فاديه عام ١٩٦١م ، . ونشر الأستاذ فاديه ترجمته الفرنسية فى جنيف عام ١٩٨٠

(٢) قمت بهذين العملين مشاركا الدكتور « جوزيف بل » أستاذ اللغة العربية بجامعة برجن بالنرويج .

على الفكر الصوفى فى فارس ،وبخاصة فى مدينة شيراز ، ويبدو هذا التأثير بوضوح فى مؤلفات روزبهان البقلى الشيرازى (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) الذى عاش فى هذه المدينة بعد الديلمى بنحو قرنين من الزمان، ونقل لنا أجزاء من متن كتاب « العطف » فى أعماله الصوفية ، وخاصة فى كتابيه « مشرب الأرواح » و « عبهر العاشقين » .

ولعل كتاب الديلمى المذكور كان له أيضا بعض الأثر فيما ظهر بعد ذلك من ازدهار أدبى فى البيئة الصوفية التى تميزت بها مدينة شيراز[١] .

أ - المؤلف

حياته وعصره :

عنى مؤلفنا بالتأريخ لشيخه أبى عبد الله بن خفيف فى سيرته المشهورة ، وحفظ لنا تفاصيل كثيرة عنه فى تلك « السيرة » . وفى كتابه الآخر المفقود ، المعروف « بالمشيخة » عنى بالتأريخ لأعلام عصره من العلماء والصوفية اللذين روى عنهم .ونقل المؤرخون وكتّاب السير - وخصوصا فى شيراز - الكثير من هذه التفاصيل فى مؤلفاتهم ، لكنهم ، بالرغم من هذا ، لم يذكروا ترجمة الديلمى نفسه .

ومن ثم فإن المعلومات التى بأيدينا عن حياته وعن مؤلفاته قليلة ؛ فمنها ما بلغنا عن سند رواية كتابه « العطف » ، المسجل على صفحة العنوان فى النسخة الباقية من هذا الكتاب . ومنها ما أمكن استخلاصه من مصادر أخرى ، أشار « فاديه » فى مقدمة ترجمته الفرنسية إلى معظمها[٢] .

وبسبب هذا الصمت من جانب المؤرخين وكتّاب السير ، لا نعرف -

---

(١) هناك سلسلة صوفية تربط حافظا الشيرازى (المتوفى ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م) بروزبهان البقلى الشيرازى ، انظر روزبهان بقلى : شرح شطحيات ، المقدمة ٥٦ - ٦٣ .

(٢) انظر : Vadet , Le traite L, avouer mystique وهو ترجمة كاملة بالفرنسية لكتاب (عطف الألف . .) . وهو المرجع الذى نشير إليه فيما يلى بقولنا « ف : ترجمة » وفى مقدمتها تفاصيل أكثر مما ذكرنا عن تسلسل رواية كتاب « العطف » ، قارن بما أورده Flovian Sobieroj . فى رسالته للدكتوراه بجامعة فرايبورج بألمانيا عن ابن خفيف ، وسنشير إليه فيما يلى باسم « صبيروى » ؛

للأسف - شيئا عن تاريخ ميلاد الديلمى ، لكن يغلب على ظننا أنه كان مازال شابا فتيا ، أو ربما صبيا يافعا ، عندما التقى بشيخه ابن خفيف وتتلمذ عليه حوالى عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ - ٩٦٤ م ، أى قبل وفاة الشيخ بنحو تسع عشرة سنة ؛ وذلك أن ابن خفيف الذى توفى عام ٣٧١ هـ ، كان له خادم اسمه أبو أحمد الكبير ، توفى - طبقا لرواية الجنيد الشيرازى فى « شد الإزار » - سنة ٣٧٧ هـ ، والديلمى يقول عن أبى أحمد هذا - فى المصدر نفسه -: « رأيته نحوا من خمسة (كذا) وعشرين سنة »[1] ؛ أى أنه رآه فى صحبة الشيخ ابتداء من عام ٣٥٢ هـ . وإذا أضفنا إلى ذلك قول الديلمى - فى المصدر نفسه أيضا - عن شيخه ابن خفيف : « لولا أن منّ الله علينا بطول عمره ، حتى أدركناه واستفدنا منه ، لكان معدودا فى الطبقة الثانية ؛ لمحله وسنه وعلمه وحاله ، وحاجة أهل عصره إليه فى رأيه وعقله . . . »[2] ، أمكننا أن نستخلص منهما أنه كان شابا عندما تيسر له لقاء الشيخ لأول مرة فى التاريخ المذكور آنفا ، إذ لولا طول عمر الشيخ لفاته لقاؤه والتتلمذ له .

كما أننا لانعرف - على وجه التحديد أيضا - تاريخ وفاة الديلمى ، وغاية ما أمكننا أن نحظى به فى هذا الصدد هو أنه من الممكن أن يكون هو الشخص الذى ذكره القفطى باسم أبى الحسن الديلمى ، وروى أنه زار مع آخرين الوزير أبا على مؤيد الملك[3] ، وهو الوزير الذى تقلد الوزارة عام ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ - ١٠٠٢ م ببغداد[4] . وهذا يعنى أن الديلمى كان حيا فى أوائل العقد الأخير من القرن الرابع الهجرى .

(١) شد الإزار ٤٦ - ٤٧
(٢) السابق ٣٨ - ٣٩ .
(٣) القفطى : تاريخ الحكماء ، ٢١١ - ٢١٢
(٤) انظر الصابىء ، أبو الحسن الهلال بن المحسن : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، ٤٦٧

فإن لم يصح هذا الخبر ، أو كان عن ديلمى آخر ، فقصارى ما فى أيدينا بعد ذلك ما رواه الجنيد الشيرازى فى كتابه « شد الإزار » عن الديلمى أنه قال عن أبى أحمد الصغير ،وهو خادم آخر لشيخه ابن خفيف : « سمعت الشيخ الكبير يقول: كيف لا أحب أبا أحمد وكان يغطينى وأهلي بالثياب ثلاثين سنة.؟ قال : مات وقد قارب السبعين ... ما عرفت له طول عمره زلة ولا هفوة ... »[1] ثم يذكر الجنيد أن أبا أحمد توفى عام ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ - ٦٩٩م ، وهذا يفيد بوضوح أن الديلمى كان حيا فى منتصف العقد قبل الأخير من القرن الرابع الهجرى.

فإذا افترضنا أنه عند انضمامه إلى حلقة الشيخ حوالي عام ٣٥٢ هـ كانت سنه تقريبا خمس عشرة سنة ، فإن ميلاده ربما كان فى حدود عام ٣٣٧ هـ . وبذا يكون الديلمى قد عاش حوالى خمسة عقود فى ظل خلافة الخلفاء العباسيين الثلاثة : المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) وابنه الطائع (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) والقادر (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) .

وبذا يكون أيضا قد عاصر النصف الأول من المدة التى هيمن فيها « البويهيون » ذوو الأصلى الديلمى على غرب فارس والعراق ، وأصبحوا خلالها أقوى قوة فى المنطقة الوسطى من العالم الإسلامى،وكانوا ذوى ميول شيعية مع قدر كبير من الاعتدال والسماحة ، مما دعاهم إلى التعاون مع الخليفة العباسى السنى ودعم مكانته ونفوذه ، واستمداد المشروعية لدولتهم منه . ودعاهم أيضا إلى رعاية الحياة العلمية والثقافية بمختلف اتجاهاتها المذهبية. وذلك عن طريق تقديم الهبات المالية وإنشاء المكتبات وإقامة الندوات ، وقد كان

(١) شد الإزار ٤٦ - ٤٧

من نصيب شيراز أن بنى فيها « عضد الدولة البويهى » مكتبة عامرة[1] .

وفى ظل هذه الروح المتسامحة وما ترتب عليها من نهضة علمية وثقافية برزت أسماء خالدة فى مجالات العلم والأدب : مثل أبى الفرج الأصفهانى(ت ٣٥٦ / ٩٦٧) والشريفين الرضى (ت ٤٠٦ / ١٠١٦) وأخيه المرتضى (ت ٤٣٦ / ١٠٤٤) وأبى إسحق الصابىء (ت ٣٨٤ / ٩٩٤) والقاضى المتكلم أبى بكر الباقلانى (ت ٤٠٣ / ١٠١٣) والفيلسوف الأديب المتكلم أبى حيان التوحيدى (ت ٤١٤ / ١٠٢٣) والعارف الصوفى الكبير أبى عبد الله محمد بن خفيف ٣٧١ هـ/ ٩٨٢م) شيخ مؤلفنا الديلمى ، وكثير غيرهم من قمم الفكر العربى والثقافة الإسلامية .

وربما تعود بعض التعبيرات ذات الطابع الشيعى فى أسلوب الديلمى[2] ، برغم الاتجاه السنى الذى يؤكده كتاب « العطف »[3] ، والذى عرف عن شيخه من قبل ، إلى ذلك الجو المتسامح الذى عاش فيه ، وما قد يجمعه مع البويهيين الديالمة من نسب ومواطنة ونزعات ثقافية مشتركة . وهذا ينقلنا إلى الكلام عن شخصيته الفكرية .

شخصيته الفكرية :

إذا كانت سيرة الديلمى ووقائع حياته لا تزال - فى أكثر جوانبها - مجهولة لنا، فإن شخصيته الفكرية أكثر وضوحا ، أو هى على كل حال - أقل غموضا . وذلك أن من الممكن أن نستمد ، من كتاب « العطف » ومما يتضمنه كتاب « السيرة » ، وما بقى من نصوص كتاب « المشيخة » ، بعض الشواهد الداخلية ، التى تتضافر مع بعض المصادر الخارجية ، فتكشف لنا عن فكره واتجاهه المذهبى وحياته الروحية .

(١) انظر / دائرة المعارف الإسلامية ، مادة دار العلم .
(٢) انظر، ص٢ ، ٦٥ ، ١٣٨، ١٥١ ، ٢٨٢ من نشرتنا العربية لكتاب « عطف الألف . . . »
(٣) السابق ١ :٢٨ - ٢٨٢ ص عن الخليفة عثمان - رضى الله عنه .

ومما ورد فى المصادر المشار إليها نفهم أن الديلمى كان على صلة بالثقافة العقلية الشائعة فى عصره ؛ إذ يروى مرة- بطريق غير مباشر - عن أبى حيان التوحيدى نصا صوفيا ، ويروى بطريق السماع - فى مقام آخر - عمن يدعى « أبا حيان » - ويغلب على ظننا أنه التوحيدى أيضا - كلاما فى « البرّ » بجامع الأهواز ألقاه الشيخ أبو عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بالبيطار[1] . وقد يكون التوحيدى أيضا هو الفيلسوف الذى عناه الديلمى فى قوله - فى كتاب العطف[2] - : « وسئل بعض الفلاسفة - وأنا حاضر- عن بدء العشق .. » ، كما رجحه الأستاذ « ماسينون » [3].

وكتاب العطف يعكس بصورة واضحة إلماما جيدا ، وعناية خاصة بآراء الفلاسفة والحكماء والمتكلمين فى المحبة والعشق، بجانب أقوال الصوفية والفقهاء والمتأدبين والشعراء .

وأبو عبد الله البيطار (ت٣٨٣/ ٩٩٢) المذكور آنفا هو أحد من صحبهم الديلمى ، ويعرف بميوله الصوفية[4] ، وبسعة الباع فى علوم كثيرة منها الفقه والنحو والطب[5] ، التى أخذها عن أبيه وغيره ، وفى كتاب « العطف » أثر واضح من هذه العلوم جميعا ، وفيه كذلك رواية فى موضعين لبعض أخبار الصوفية عن كتاب « المشيخة » لأحمد بن منصور (ت ٣٦٣ / ٩٧٤) والد أبى عبد الله البيطار[6] .

وفى هذه المصادر أيضا ذكر المنجم الأعمى البغدادى « شكح » ، الذى كان يتكلم ببغداد عن أحداث النجوم

---

(١) انظر شد الإزار ٥٢ - ٥٤ ، ١٠٤ - ١٠٥

(٢) عطف الألف ٥٦ ص

(٣) ماسينيون : "Interférences Philosophiques" ص ٢٣ هامش ٢ .

(٤) شد الإزار ٤٧ ، ١٠٤

(٥) السابق ١٠٣ - ١٠٥

(٦) عطف الألف ٢٨٧ ، ٢٩٩ ص .

وأحكامها، ولقيه مؤلفنا فى صحبة طائفة من العلماء إن صحت الرواية التى أوردها القفطى فى « تاريخ الحكماء »[1] . وفى العطف كما هو ظاهر إلمام ببعض المسائل النجومية وعناية بذكر آراء المنجمين والفلكيين فى العشق وما يتصل به[2] .

وقد مر بنا من قبل ما يدل بوضوح على مذهب المؤلف السنى ، ومشربه الصوفى. ولكن طبيعة شخصيته الفكرية وملامحها الخاصة قد تزداد وضوحا إذا ألممنا برحلات الديلمى وشيوخه ؛ فنعرف شيئا عن تجاربه الخاصة وملامحه الفكرية المميزة.

رحلات الديلمى :

كان الديلمى رجلا نشيطا ، خفيف الحركة ، مولعا بالرحلة بحثا عن المعرفة والحقائق الروحية ، ولعله فى هذا كان ينسج على منوال شيخه الذى كان رحالة عظيما ، برغم المتاعب والأخطار التى اكتنفت السفر والتنقل فى ذلك الحين ؛ وطبقا لما يحتويه كتاب « السيرة » من روايات فقد قام ابن خفيف برحلة الحج أربع مرات أو ستا وربما أكثر ،وفى الرابعة منها اصطحب أمه معه[3] .

والديلمى يروى لنا فى « كتاب العطف » رحلة له إلى مكة بقصد الحج[4] ، وفى موضع آخر من الكتاب يذكر رحلة أخرى إلى مدينة أرّجان(٥) بالقرب من شيراز على طريق الحاج.

(١) تاريخ الحكماء ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) انظر مثلا ٥٦ - ٥٩ ص

(٣) انظر : سيرة ابن الخفيف ٤٤ ، ٤٦ ، ولمزيد من التفاصيل عن « حجات ابن خفيف » انظر - ص - ١٠٨ - ١٠٩ من Sobieroj, Ibn Hafif as - Sirazi.

(٤) انظر ٢٢٧ - ٢٢٩ ص ؛ حيث يروى المؤلف قصة طريفة عن علاقة حب بين زوجين من الحمام لاحظهما فى المسجد الحرام بمكة المكرمة ، وقصة أخرى عن جمل عاشق هاجه الحزن لفراق ناقته الحبيبة وظل صائما حتى مات . فهل كانت فكرة تأليف كتاب عن الحب فى ذهنه ، فأعانته على اختزان هذه الملاحظات الدقيقة ؟

(٥) انظر ٢٤٤ - ٢٤٩ص .

ويصف الرجل - فى لغته الجميلة المعبرة - زيارة أخرى إلى « بيت الفيل » ، فى بغداد على الأرجح (١) .

وفى القصة التى أشرنا إليها آنفا عن « شكح المنجم البغدادى » يحكى لنا القفطى بعض تفاصيل زيارة للديلمى إلى بغداد ،التقى فيها - مع جماعة من أصدقائه - بوزير الوقت « مؤيد الملك » للشفاعة فى حاجة لأحدهم عنده ، ثم حضر وليمة معهم عند أحد معارفهم ببغداد اسمه ابن الوتار(٢) .

ويورد القشيرى فى « الرسالة »(٣) الخبر التالى عن رحلة أخرى : « يحكى عن أبى الحسن الديلمى أنه قال : دخلت أنطاكية لأجل أسود ، قيل لى إنه يتكلم على الأسرار ، فأقمت فيها إلى أن خرج(٤) من جبل « لكام » ، ومعه شىء من المباح(٥) يبيعه ، وكنت جائعا منذ يومين لم آكل شيئا ، فقلت له: بكم هذا ؟ وأوهمت أنى أشترى ما بين يديه ، فقال : اقعد ثَم، حتى إذا بعناه نعطيك ما تشترى به شيئا ، فتركته وسرت إلى غيره أوهمه أنى أساومه ، ثم رجعت إليه وقلت له : إن كنت تبيع هذا ، فقل لى بكم ؟ فقال : إنما جعتَ يومين ، اقعد ثَمَّ ، حتى إذا بعناه نعطيك ما تشترى به شيئا ، فقعدت، فلما باعه أعطانى شيئا ، ومشى ، فتتبعته ، فالتفت إلى وقال : إذا عرض لك حاجة ، فأنزلها بالله - تعالى ، إلا أن يكون لنفسك فيها حظ ، فتحجب عن الله - تعالى » . واغلب الظن أن الديلمى فى هذا الخبر هو مؤلفنا ، والقصة تتمشى مع طبيعة شخصيته كما تبدو فى كتاب « العطف » .

هذا ما لدينا الآن اعتمادا على نص « العطف » وبعض المصادر الخارجية

---

(١) انظر العطف ٢٢٩ ص . وراجع هوامشنا على هذا الموضع من الترجمة الانجليزية .
(٢) تاريخ الحكماء للقفطى ٢١١ - ٢١٢
(٣) القشيرى : الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، ١٨١ .
(٤) فى المرجع السابق : أخرج .
(٥) كذا ، ولعلها الملح .

ولعل دراسة تفصيلية لكتاب « السيرة » ، الذى أرّخ فيه لشيخه ، تكشف عن المزيد من المعلومات عن رحلات الديلمى وسمات شخصيته الفكرية .

أبرز من أثروا فيه

لا نعرف من شيوخ الديلمى المباشرين الذين لازمهم وأخذ عنهم وأسهموا فى صقل شخصيته الفكرية والروحية إلا ابن خفيف ، لكن هناك شيوخا غير مباشرين قد أسهموا فى ذلك أيضا ، عرفهم من خلال صلته بابن خفيف أو من طرق أخرى .

(أ) فأما ابن خفيف ، شيخ شيراز الذى لازمه الديلمى ، فهو أبو عبدالله محمد بن خفيف بن اسكفشاذ[1] ، الذى جذب أنظار الباحثين لمكانته المرموقة بين صوفية شيراز فى حياته وبعد مماته ، ولصلته بالحلاج . وقد حفظ لنا التاريخ سيرته التى كتبها الديلمى ، وحققتها ونشرتها أنا مارى شيمل ، وقدمت لها ، وألحقت بها فصولا تتضمن معلومات هامة عن ابن خفيف ، وقام الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا بترجمتها إلى العربية فى القاهرة . ثم أنجز الأستاذ فلوريان صبيروى رسالته الهامة للدكتوراة عن ابن خفيف ، متضمنه تحقيق كتابه « الاقتصاد » مع تعريف تفصيلى بشيوخه ومعارفه وتلاميذه ، ومنهم الديلمى .

ويمكن أن نستخلص مما أورده الديلمى ، فى « السيرة » المشار إليها آنفا ، أن ابن خفيف ولد فى شيراز سنة ٢٦٨ / ٨٨٢ أو بعدها ، عقيب استيلاء

(١) يرد هذا الاسم بصيغ مختلفة ، اخترنا ما ورد فى شد الإزار للجنيد الشيرازى بتحقيق القوذينى ٣٨ وقارن السلمى : طبقاته (تحقيق Redersen)

(٢) انظر السيرة ٨٨ وقارن شميل : سيرت - المقدمة ١٣ ، ويرجح صبيروى أن ميلاد ابن خفيف لايمكن أن يسبق عام ٨٨٢ - انظر Ibn Hafif as - Sirazi ٢٢١ .

عمرو بن الليث الصفّارى على المدينة ، وكان والده من قادة الديالمة فى جيش عمرو ، الذين أسهموا فى استعادة الصفارية الهيمنة على فارس ، وكانت معه زوجه ، أم عبد الله بن خفيف ، أثناء إقامته فى شيراز . فجذور ابن خفيف ترجع إلى العناصر الديلمية المحترفة للجندية ، التى قدر لها قبل موته أن تسيطر على مقاليد الأمور فى المنطقة الوسطى من العالم الإسلامى حينذاك ، وهى الجذور التى ينتمى إليها أيضا على بن محمد الديلمى صاحب « العطف »[1] .

وشخصية ابن خفيف العلمية والصوفية ، التى امتدت فى تلميذه الديلمى على نحو ما ، قد تكونت فى جو تغلب عليه روح سنية معتدلة ؛ فقد درس الفقه على شيخ الشافعية ابن سريج الذى عمل قاضيا بشيراز ثلاث سنين بعد عام ٢٩٦ هـ[2] ، والتقى ابن خفيف أيضا بأبى الحسن الأشعرى فى البصرة بعد تحوله إلى المذهب السنى، وتأثر به ، حتى إن الباقلانى شيخ الأشاعرة فيما بعد عندما زار شيراز وجد ابن خفيف يدرس لمريديه كتاب « اللمع » للأشعرى[3] ، وما نشرته « شميل » من كتاب « المعتقد الصغير » لابن خفيف ، الذى أوردته ضمن ملاحقها لكتاب « سيرت ٠٠ » ، يؤكد اتجاهه الأشعرى السنى[4] . واشتغل ابن خفيف بالحديث حتى قيل عنه : « كان لا ينام كل ليلة حتى يكتب من صحاح الأحاديث عشرين حديثا بعد ما فرغ عن ورده ، وله مسند حديث ، وروى عنه الحافظ أبو نعيم الأصفهانى وغيره » [5] . وقد تتلمذ الديلمى عليه فى هذا العلم ، ويوجد فى كتاب « السيرة » - على امتداد ثلاث صفحات - بعض ما رواه عن شيخه من أحاديث بأسانيدها[6] .

---

(١) انظر صبيروى : ابن خفيف الشيرازى ، ٨٩ ، ١٧٥ .
(٢) انظر السيرة ١٧٢ - ١٧٤ ، صبيروى : ابن خفيف ٥٧ .
(٣) انظر شميل : سيرت ٣٤٠ - ٣٦٥ .
(٤) شد الإزار ٤٢ .
(٥) السيرة ٢٥٣ - ٢٥٦ .

ويتسق مشرب ابن خفيف الصوفي مع هذا التكوين العلمي ، فقد لبس الخرقة من أبي محمد رويم ، وصحب الجريريَّ وأبا العباس بن عطاء ، وكان ينصح مريديه: « اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون اسمعوا لهم وسلموا ما قالوا ، وهؤلاء الحارث بن أسد المحاسبي ، وأبو القاسم الجنيد بن محمد ، وأبو محمد رويم بن محمد ، وأبو العباس بن عطاء ، وعمرو بن عثمان المكي »[1] . وكان حريصا على الجماعة وعلى الصف الأول في المسجد حتى في شيخوخته الفانية ؛ يروى عنه الديلمي في « السيرة » قوله : « إذا سمعتم حي على الصلاة ولم تجدوني في الصف الأول من المسجد ، فاطلبوني في المقابر »[2] .

لكن ابن خفيف ، مع هذا ، حرص على لقاء الحلاج في سجنه ، وروى بعض كراماته ،وكان يدافع عنه ، وإن كان لا يوصي تلاميذه باتباعه ولا يوصيهم بالاعتراض عليه في الوقت نفسه . وهذا هو الموقف الذي ينزع إليه الديلمي في كتاب « العطف »[3]. وقد روى أيضا لقاء شيخه بالحلاج وإعجابه به في كتاب « السيرة »[4] .

هذا ، وقد تعرض ابن خفيف - كغيره من الشخصيات البارزة - لاتهامات بعض معاصريه ، ومنهم القاضي الأديب أبو علي المحسن بن علي التنوخي (ت ٣٨٤ / ٩٩٤) ، ذو الميول الاعتزالية ، الذي رماه وأتباعه باستباحة الزنا . وردد هذه التهمة ابن الجوزي فيما بعد[5] . وشخصية ابن خفيف التي تطالعنا من النصوص والروايات المعاصرة المتكاثرة

(١) شد الإزار ٤٣
(٢) السيرة ٢٦٢
(٣) انظر ٥٠ - ٥٦ ، ٩٠ - ٩٢ ص ، وشد الإزار ٤٢
(٤) انظر السيرة ١٦٠ - ١٦٣ ، ١٦٥ - ١٦٦
(٥) انظر التنوخي : نشوار المحاضرة ٣/٢٢٨ - ٢٢٩ ، وابن الجوزي : تلبيس إبليس ٣٦٩ - ٣٧٠

لا تتسق مع مثل هذا السلوك الفاجر ، وتضعف لدى أى منصف الثقة بمثل هذا الاتهام ، الذى تلقفه ابن الجوزى - على فضله - دون تبين أو تحقق .

ولابن خفيف مصنفات كثيرة ، قيل إنها تبلغ الثلاثين ، بينها كتابان في المحبة: أحدهما « كتاب المحبة » ، والآخر « كتاب الودّ والألفة » ، ذكرهما الديلمى فى « السيرة » ضمن مختصراته[1] . وذكر فى « العطف » أيضا أنه ألف « مسألة » فى جواز إطلاق العشق على الله ومن الله ، وأنه كان ينكر ذلك حتى وقعت إليه مسألة لأبى القاسم الجنيد فى العشق ، فقال به وألف فيه[2] . ولكنا لم نعثر على شيء من هذه الثلاثة ، إلا إن كان بعض ما نقله الديلمى فى « العطف » مأخوذا منها أو من أحدها .

وتوفى ابن خفيف - كما يذكر الديلمى فى « السيرة »[3] - فى الثالث والعشرين من رمضان سنة ٣٧١ هـ ، وله من العمر - كما قيل - ما بين ١٠٥ و ١١٤ سنة . وينص الشيرازى فى « شد الإزار » على أنه « توفى ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة - رحمه الله[4] » . وإذا لاحظنا تاريخ مولده الذى لايمكن أن يسبق تاريخ حملة عمرو بن الليث الصفّارى على شيراز فى ٢٦٨هـ مع تاريخ وفاته الذى تتفق المصادر أنه سنة ٣٧١ ، فعمره لا يزيد عن ١٠٣ من السنين الهجرية[5] .

(ب) ومن الشيوخ الذين تأثر بهم الديلمى بطريق غير مباشر ، ويظهر أثرهم فيه واضحا من نصوص كتاب « العطف» ، عدد من أعلام التصوف فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع من الهجرة . ونرجح أن يكون تأثيرهم

---

(١) السيرة ٢٥٧

(٢) ٩ - ١٠ ص .ولكن ينقل ابن تيمية فى الفتوى الحموية الكبرى ٤٧ ، من كتاب باسم « اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات » لابن خفيف ، نصا ينكر فيه « إطلاق تسمية العشق على الله - تعالى » ، فلعله من مؤلفاته الباكرة ، قبل أن يغير رأيه فى المسألة.

(٣) السيرة ٢٦٤ ، وقارن سيزكين ١/ ٦٦٤

(٤) شد الإزار ٤٥ - ٤٦ .

(٥) قارن ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ٢٠١/١٥ ، حيث يذكر فى خبر أنه عاش ١٠٤ سنة .

فيه قد تم من خلال صلته بالشيخ ابن خفيف . فمنهم :

١ - الحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩ / ٩٢٢) ، وهو من أبرزهم ، وينقل المؤلف بعض أقواله وآرائه فى « العطف » ، وقد أشرنا إلى متابعته لشيخه فى موقفه منه . وهو فى الحقيقة متأثر به ، وإن كان يتحفظ على بعض آرائه ، ونرجح أنه استمد عنوان كتاب « العطف » من شعره ، كما سنوضحه فيما بعد .

٢ - وأبو القاسم الجنيد بن محمد (ت ٢٩٨ / ٩١٠) ، سيد الطائفة وشيخ أهل الصحو ، والذى قيل إن ابن خفيف قد صحبه - وإن كان بعض الباحثين يتشككون فى هذه الصحبة[1] - وأوصى بتقليده ومتابعته ، كما مر . وهو الذى كتب المسألة فى العشق التى دعت ابن خفيف أن يغير رأيه فيه ويكتب مسألته . وقد تابعه تلميذه الديلمى فى ذلك[2] .

٣ - وأبو عبد الله عمرو بن عثمان المكى (ت حوالى ٢٩٧/ ٩١٠ ، وقيل ٢٩١ أو ٢٩٦) ، الذى صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز ، وكان معارضا للحلاج، وكتب كتابا فى المحبة يروى عنه الهجويرى فى « كشف المحجوب »[3] ، ويهتم الديلمى بنقل آرائه فى مواضع عديدة من « العطف »[4] .

٤- وأبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد الأعرابى المعروف بابن الأعرابى (ت ٣٤١ / ٩٥٢) ، الذى يقال إنه ألف فى الفقه والحديث ، والسير والتاريخ ، إلى جانب ما كتب فى الزهد والتصوف . لقيه ابن خفيف فى مكة المكرمة كما يحكى الديلمى فى السيرة[5] . وقد ألف كتابا فى

(١) انظر سيرت (شيمل) ، المقدمة ١٦ ، وصبيروى : ابن خفيف الشيرازى ٤٣ ، بناء على ما ورد فى طبقات السلمى (تحقيق Pedersen) ٥٣٥ .
(٢) العطف : ٩ - ١٠ ص .
(٣) انظر الهجويرى : كشف المحجوب ٢ /٥٥٢ - ٥٥٣ .
(٤) انظر العطف ٣٥، ٦٩-٧١، ٧٣، ٨٧، ١٧٨-١٧٩ ، ٢٤٠ - ٢٤١ ، ٢٩١ - ٢٩٧ ص .
(٥) السيرة ١٣٤ - ١٣٥

« اختلاف الناس فى المحبة » ، نقل عنه الديلمى فى « العطف » [1] .

(جـ) وممن تأثر بهم الديلمى أيضا ، كما يفيد كتاب « العطف » وبعض المصادر الأخرى ، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر :

١- محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠/٩٢٣) ، الذى أخذ عنه الديلمى كثيرا من الأخبار التاريخية المتعلقة بقصص الأنبياء فى الباب الأخير من « العطف » ، حيث يصرح بنقله عنه[2] . وذكره أيضا فى « السيرة » ضمن شيوخ شيخه ابن خفيف الذين لقيهم وسمع منهم بعض الأحاديث فى بغداد[3]

٢ - والمسعودى (ت ٣٤٥ / ٩٥٦؟) أو مصدر قريب منه ، فإننا نتوقع أن الديلمى ربما أخذ عن المسعودى بعض أقوال المتكلمين فى المحبة والعشق ، اعتمادا على الجزء المفقود من كتابه « أخبار الزمان » ، الذى تعرض فيه لموضوع المحبة ، أو على رواية مفقودة لكتابه المشهور « مروج الذهب » ، أو أن كلا من « المروج » و «العطف» قد رجعا إلى مصدر واحد ، نظرا للتقارب الشديد بينهما [4] .

٣ - وأبو حيان على بن محمد التوحيدى ، الذى اقترح ماسينيون - كما سلف - أنه الفيلسوف الذى لقيه الديلمى وروى عنه[5] . وقد صرح أحد المؤرخين بلقائه إياه وسماعه منه . يقول الشيرازى فى « شد الإزار » : « قال الديلمى فى مشيخته : ما رأيت فى سفرى ولا حضرى أكمل أدبا من أبى عبد الله الحسين . . ، وسمعت أبا حيان: يقول : حضرت مع أبى عبد الله الحسين بجامع الأهواز ،

---

(١) ٩٨ - ١٠٩
(٢) العطف : ٢٧٢ ص
(٣) السيرة ٢٥٣
٤) انظر مثلا ٦٢ - ٦٤ ، ٨٥ - ٨٦ ، ١٦١ - ١٦٥ ص وهوامشها من « العطف »
(٥) انظر مامر فى ص ١٢٥ .

فسأله أبو أحمد الحصاص مسألة في البِرّ ، فتكلم بنحو عشرين ورقة »[1] . وقد رجحنا - بناء على هذا الخبر - رأى ماسينيون أن أبا حيان التوحيدى هو الفيلسوف الذى يقصده الديلمى فى قوله : « وسئل بعض الفلاسفة- وأنا حاضر »[2] .

ويوجد بالتأكيد كثير غير هؤلاء ممن لقيهم المؤلف أو تأثر بهم ، سواء من طريق شيخه ابن خفيف أو من طريق آخر ، لكن بدرجة أقل فى أكثر الحالات ، وسترد أسماء بعضهم فى فهارس الكتاب وتعليقاته .

مؤلفات الديلمى :

للديلمى مؤلفات يغلب عليها جميعا الطابع الصوفى ، وقد حفظ لنا التاريخ اثنين منها فى صورة كاملة ، وهما :

١ - كتاب « العطف » ، الذى نقدمه فى هذا العمل ، وسنتعرض له بالتفصيل بعد هذه الفقرة .

٢ - كتابه الذى يتضمن سيرة شيخه ابن خفيف ، الذى ألفه بالعربية ، ثم فُقد أصله العربى ، وبقيت لنا منه ترجمة فارسية قام بها ابن جنيد الشيرازى ، ونشرتها بتركيا الأستاذة آنا مارى شميل بعنوان « سيرت أبو عبد الله بن الخفيف الشيرازى »، عام ١٩٥٥ ، ونشير إليه بقولنا « سيرت » . ثم قام بنقله إلى العربية ، عن نشرة شميل الدكتور / إبراهيم الدسوقى شتا كما ذكرناه آنفا ، ونشره بالقاهرة سنة ١٩٧٧ ،ونشير إليه باسم (كتاب السيرة) أو السيرة .وكنا قد اعتمدنا أثناء التحقيق على نشرة شميل الفارسية ، ثم أطلعنا بعد ذلك على ترجمة شتا وأفدنا منها فى إعداد هذه المقدمة . هذا ، وقد أعيد نشر تحقيق شميل فى طهران بعناية توفيق سبحانى سنة ١٩٨٤ .

وللديلمى مؤلفات أخرى لم تزل مفقودة ، وإن وصلنا أجزاء من أحدها ، وهو

٣ - كتاب « المشيخة » ، الذى ذكر

---

(١) شد الإزار ١٠٤

(٢) العطف ٥٦ ص .

فيه بعض الأعلام من الصوفية والعلماء وتراجمهم ، وهو ، وإن لم يزل مجهولا في صورته الكاملة ، قد بقيت منه أجزاء متنثرة ، ليست بالقليلة ، في بعض المصادر ، من أهمها :

- « شيرازنامه » ، لمعين الدين زركوب شيرازي ، وقد طبع أكثر من مرة ، نشره بهمن كريمي في طهران سنة ١٩٣١ ، ثم أعيد تحقيقه ونشره بعناية إسماعيل واعظ جوادي ، في طهران أيضاً .

- كتاب « شد الإزار في حط الأوزار عن زوار المزار » ، تأليف معين الدين أبي القاسم الجنيد الشيرازي ، الذي حققه كل من الأستاذين محمد قزويني وعباس إقبال ونشراه في طهران سنة ١٣٢٨ هـ ش / ١٩٤٩ ، وتتضمن نشرتهما تعليقات نفيسة مستفيضة على النص ، وإحالات بالغة الفائدة إلى مراجع هامة تتعلق بما احتواه الكتاب .

ويبدو أن كتاب « المشيخة » قد أثر على الحياة الصوفية وتقاليدها ، وخاصة بمدينة شيراز ، واتخذه بعض كتّاب السير نموذجا للتأليف في هذا الباب ، ومنهم الجنيد الشيرازي ، صاحب « شد الإزار » المذكور آنفا ، وغيره[1] .

أما المؤلفات التي لم يصل إلينا منها شيء سوى العنوان فاثنان ، هما :

٤ - كتاب « أسرار المعارف » ، الذي ذكره الديلمي نفسه مرة واحدة في كتاب « العطف » ، حيث أورد الحديث : « أنا أكرم على الله من أن يتركني في قبري فوق ثلاث » ، ثم قال « وقد ذكرت شرح هذا في كتاب أسرار المعارف »[2] .

٥ - وقد ذكر المستشرق الألماني هـ . ريتر في مقدمة نشرته لكتاب «مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب »لعبد الرحمن بن محمد الأنصاري المشهور بابن الدباغ ، أن للديلمي أيضا رسالة باسم « العقيدة الصحيحة » ، وإن لم يبين ما اعتمد عليه في ذلك[3]

---

(١) انظر شد الإزار ٤ ، ١٧٧ حيث يذكر ترجمة الشيخ صائن الدين حسين بن محمد (ت ٦٦٤ / ١٢٦٥ - ١٢٦٦) وأن له رسالة عن « تاريخ فارس » كتبها على طريقة الديلمي والمقاريضي » .

(٢) ٢٨٠ - ٢٨١ ص .

(٣) ابن الدباغ : مشارق ، ص هـ من المقدمة .

(ب) الكتـــــــاب

سنتناول هنا أهـمية الكتاب وأثره ، ونسبته إلى مؤلفـه ، وعنوانه ، ومضمونه بوجـه عام ،وأهم مـصادره . ونبـدأ الآن بالنقطة الأولى .

أهمية الكتاب وأثره :

ألمحنا فيما سبق إلى ما يـتميز به كتابنا هذا من مـكانة خـاصـة فـى التسـلسل التاريخى للمؤلفـات الإسلامية فى « نظرية المحبة » بأبـعادها الروحية والاجتماعية ، و إلى ما حفظه لنا من نصوص هامة ، فى هذا الصدد ، نفتقد الآن مصادرها الأصلية . وإلى ما عـساه قد أحـدثه من تأثير روحى وفكرى فى هذه البـيـئة التى شـغل فـيهـا الديلمى وشيخه ابن خفيف - كما لعله قد ظهر مما سبق - مكاناً مرموقا .

وقد يشهد لهذا أو يرشح له ما يتداوله شيـوخ « الطريقة الأويسية » المعاصرون عن « سند » طريقـتهم الذى يبدأ بـعلى - كرم الله وجهـه - فأويس ، فـسلمان ، فـابن سليم ،فابن أدهم ، فالبلخى ، فالنخشبى ، فالإصطخـرى ، فالحـذاء ، فابن خـفيف الذى يعد عندهـم « خاتم المتقـدمين وإمام المتأخرين » وعنه أخذ الأكار فالكازرونى ، ثم جماعة بعـد ذلك منهم رزوبهان البقلى الشيرازى ونجم الدين الكبرى[1] .

وقـد أورد الهـجـويـرى فى « كـشف المحجوب » بعض المعلومات عـن فـرقة أو طـريـقة صـوفيـة أسـماهـم « الخفيفة »[2] ، يبدو أنها جـماعة كانت تنتـمى إلى التيار الصـوفى المعروف اليـوم باسم «الأويسيـة» ولكنها تأثرت بطريقة التـربية الروحية لابن

---

(١) انظر مولانا محمد صادق عنقا شاه :من الفكر الصوفى الإيرانى المعاصر ، ترجمة الدكتورين السباعى وشتا ، ص٥٠

(٢) الهجويرى : كشف المحجوب ٢/ ٤٨٨ - ٤٩٢ .

خفيف . غير أنه لم يذكر اسم الديلمى فى هذا الموضع.

وبالرغم من المكانة التى يبدو أن الديلمى كان يتمتع بها بين صوفية شيراز ومن الأثر الذى مارسته كتبه فى أوساطهم ،وبخاصة كتاباه : « المشيخة » و « السيرة » ، كما ذكرناه فيما سبق ، فإننا لم نكد نعثر ، بشأن كتاب « العطف» ، على دلائل واضحة تبين أثره فى هذه البيئة ذات الطابع الصوفى العميق ، اللهم إلا أمرين :

الأول: الرجلان اللذان يتضمنهما الإسناد المدون على صفحة العنوان بالمخطوطة الوحيدة لكتاب « العطف » وهما من أبرز رجال المدرسة الصوفية الشيرازية ، وقد أولى الدكتور فاديه اهتماماً كبيرا لهذا الإسناد فى مقدمة ترجمته الفرنسية ،وإن كان الدكتور صبيروى قد تعقب هذا الجانب من عمل فاديه بالنقد والمراجعة[1] . ونظراً لكثرة التفاصيل التى أوردها ، والتى تتضمنها مصادرنا أيضاً ، فسنكتفى هنا بخلاصة تبين مدى الاهتمام بالكتاب وروايته فى البيئة المذكورة .

والثانى : ما تضمنته مؤلفات روزبهان البقلى الشيرازى (ت ٦٠٦ / ١٢٠٩) الثلاثة ، « عبهر العاشقين » و « شرح شطحيات » بالفارسية ، و « مشرب الأرواح » بالعربية ، من اقتباسات ونقول عن كتب الديلمى ، مما أشار إلى بعضه فاديه فى مقدمة ترجمته . ويصرح الشيرازى نفسه فى « مشرب الأرواح » بأخذه عن الديلمى .

(أ) فأما الإسناد ، فيرجح صحته ورود رجاله عدة مرات فى ترجمة ابن عساكر لابن خفيف فى « تاريخ مدينة دمشق»[2].

فأول راو للكتاب هو أبو الحسن بن بكران بن الفضل ، الذى

(١) انظر فاديه : ترجمة ، المقدمة ، وصبيروى : ابن خفيف الشيرازى ٢٦ - ٢٧ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٢٩٦/١٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

يرويه - فيما يبدو - عن مؤلفه مباشرة . ويمكن الاطمئنان إلى ما قرره فاديه من أنه هو الشخص الذى ذكره الهجويرى باسم أبى الحسن على بن بكران الشيرازى ، ووصفه بأنه من أكابر صوفية فارس[1] ، وروى عنه بطريق السماع خبرا يتعلق بحياة الشيخ ابن خفيف . ونحن لانعرف شيئا عن تاريخ مولده أو وفاته ، ولكن يمكن أن نفترض ، بناء على معلوماتنا عن الهجويرى نفسه ، أنه قد لقى أبا الحسن بن بكران فى وقت ما خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، وهذا يتيح لابن بكران ، على كل حال ، أن يدرك الديلمى ويروى الكتاب عنه بطريق مباشر .

والرجل الثانى فى هذا الاسناد ، الذى يروى الكتاب عن ابن بكران ، هو أبو شجاع محمد بن سعدان المقاريضى (ت ٥٠٩ / ١١١٥ - ١١١٦) ، الذى لا نعرف تاريخ ميلاده أيضا ، غير أننا نستطيع أن نفترض أنه ، مع تأخر تاريخ وفاته ، قد روى الكتاب عن شيخه ابن بكران فى شبابه الباكر . وقد يعين على ذلك أنه فى سلسلة أتباع الشيخ ابن خفيف يأتى فى الجيل الثانى ، وبينه وبين ابن خفيف رجل واحد هو الشيخ أبو على الحسين بن عبد الله المقاريضى[2] ، ولأبى شجاع « مشيخة » كتلك التى كتبها الديلمى ذات ذكر فى الحياة الصوفية بشيراز[3].

ويؤكد ما افترضناه من طول عمر أبى شجاع ومكانته بين صوفية شيراز ما قاله صاحب « فردوس المرشدية » كان الشيخ أبو شجاع .. عالما فاضلا كاملا، وكان القطب نحو خمسين عاما »[4]

(١) انظر الهجويرى : كشف المحجوب ٣٨٨/١ . ٤٨٨/٢ ، وفاديه : ترجمة ١٩ - ٢٠، وقارن بابن عساكر ، الذى يذكر ابن بكران فى مكانين فى ترجمته لابن خفيف باسم « أبى الحسن على بن بكران الصوفى » (تاريخ مدينة دمشق ٢٩٦/١٥ ، ٢٩٩) .
(٢) انظر شد الإزار ١٠١ .
(٣) السابق ١٠١ ، ١٧٧ .
(٤) محمود بن عثمان : فردوس المرشدية (تحقيق Meier) ، ٣٢

فكلا الشيخين اللذين يضمهما إسناد « العطف » ، كما ذكرنا ، من كبار صوفية شيراز ، مما يوحى بحرص هذه البيئة الصوفية على تداول الكتاب وتدارسه ، والعناية بتوريثه للأجيال المتعاقبة طبقا لتقاليد الرواية والإسناد فى العلوم الإسلامية . ويبدو أن هذه العناية قد استمرت بعد كتابة نسختنا المروية بالإسناد المذكور - أو الأصل الذى أخذ عنه ناسخها - كما سيتبين فى الفقرة التالية .

(ب) وأما المجال الثانى ، وهو تأثر روزبهان البقلى بالديلمى ، فتبدو مظاهره واضحة فى تأثر روزبهان فى كتبه الثلاثة المذكورة آنفا ، بمحتويات كتاب « العطف » على نحو بالغ الوضوح والعمق ، وبمحتويات كتاب « السيرة » للديلمى أيضا ، مع التصريح بمصدر هذا التأثر فى بعض المواضع القليلة .

فأما كتاب « مشرب الأرواح » ، وهو المشهور باسم « ألف مقام ومقام » ، فيورد فيه البقلى وصف الديلمى للعشق بأنه « غليان الحب[٢] » ، ويصرح بنقله عنه ، ومن الواضح أنه ينقل ذلك عن الباب الرابع من كتاب « العطف » . على أن الكتاب يحتوى - فى السياق نفسه - أقوالا أخرى مقتبسة من كتاب « العطف » . دون تصريح بالنقل عنه ، منها أقوال أبى حفص الحداد ، وأبى القاسم الجنيد ، وهرقل ، وابن خفيف فى العشق ، بنفس الصيغة الواردة فى « العطف » تماما أو على نحو قريب جدا منها ، بما يقطع بنقله عنه[٢] . ويفعل البقلى نفس الشىء عند بيان « حد الصبابة » الذى رواه الديلمى عن أبى سعيد ابن الأعرابى[٣] .

وأما فى « شرح شطحيات » ، فيورد روزبهان نصا مطولا على مدى أربع

(١) روزبهان البقلى : مشرب الأرواح ١٣٥ ، وقارن العطف: ٤٧ ص .
(٢) مشرب الأرواح ١٣٥ ، وقارن العطف : ٢٥ - ٢٦، ٣٥ ، ٤٩ ، ٧١ ص .
(٣) مشرب الأرواح ١٥٥، وقارن ٣٧ ص .

صفحات عن رأى الحلاج فى أصل العشق نعتقد - مع ماسينيون - أنه مأخوذ من كتاب « العطف » ، لوحدة السياق والمضمون واللغة ، مع ملاحظة فروق الترجمة ، كما أشرنا فى تعليقاتنا[1] . وفى مواضع أخرى من الكتاب ينقل روزبهان عن بعض كتب الديلمى ، ويصرح باسمه فى موضعين يتعلقان بأخبار الشيخ ابن خفيف : أحدهما عن رأيه فى الحلاج وفى بعض أشعاره ، والآخر عن صلته ببعض شيوخ البيضاء . ومن المؤكد أن روزبهان كان ينقل عن كتاب « السيرة » فيما يتعلق بالواقعة الأولى[2] .

وأما فى « عبهر العاشقين » ، فإن روزبهان يعتمد اعتمادا واضحا على كتاب « العطف » ، وينسج على منواله ،فى ذكر عناوين العديد من الفصول وترتيبها وكثير من محتوياتها ، وقد لفت هذا التشابه الشديد نظر « فاديه » ، فضمن مقدمة ترجمته الفرنسية لكتاب « العطف » نصا من كتاب روزبهان ، مقارنا إياه بما يقابله من أوائل « العطف » عن جواز إطلاق العشق على الله ومن الله ، على نحو يبرز تأثره بالديلمى ومدى دينه له ، وإن كان روزبهان نفسه لا يصرح بذلك[3] . غير أنه فى نقله لعبارات الديلمى ، يصف ابن خفيف بقوله « شيخنا وسيدنا أبو عبد الله محمد بن خفيف » ، بعد أن ذكر مشايخ كثيرين دون أية صفة ، وهذا أحرى أن يصدر عن الديلمى ، لا عن روزبهان ، وهو الموجود لفظا وسياقا - بخلاف قليل - فى كتاب « « العطف »[4] .

---

(1) شرح شطحيات ٤٤١ - ٤٤ . وكان ماسينيون قد أشار إلى هذا النص ، وألحقه بكتابه Essai sur les origines du lexique techinque de la mystique musulmane (ط ١٩٥٤ ، ٤٢٤ - ٤٢٦) الذى أصدره فى باريس عام ١٩٢٢ وانظر مقالته : Interférences philosophiques ص ٥٠ - ٥٦ ، وقارن ٢٣٢ هامش ٣

(2) شرح شطحيات ٤٢ - ٤٣ ، ٤٣٢ - ٤٣٣ ، وقارن السيرة ١٦٥ - ١٦٦ .

(3) انظر فاديه : ترجمة ١٣ - ١٤ ، وقارن العطف ٩ - ١٠ ص ، وعبهر العاشقين ٩ - ١٠ .

(4) انظر عبهر العاشقين ١٠ وقارن العطف : ٩ ص .

والمواضع المتشابهة كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال ، لا الحصر ، الفصل السادس من « العبهر » فى « كيفية جوهر العشق الإنسانى وماهيته » ، الذى يتضمن المعانى وبعض الأشعار التى أوردها الديلمى فى الفصل الثالث من الباب الرابع من كتاب « العطف » خاصا برتب المحبة ودرجاتها . وكذا فى بداية الفصل السابع من « العبهر » يقترب روزبهان مما أورده الديلمى عن الحلاج فى « العطف » عن العشق الذاتى[1] . وأخيرا فإن قارىء كتاب « العطف » سيكتشف بنفسه طبيعة العلاقة بين الكتابين حين يجد فى فهرس موضوعات « العبهر » : « الفصل الرابع : فى فضيلة المحبين الذين يألفون الحسن والمستحسن ، والمحبوبين المستحسَنين » ، و « الفصل الخامس : فى الحُسن والحَسَن والمستحسن » الخ[2] .

نسبة الكتاب :

أما عن نسبة كتاب العطف إلى الديلمى ، فبالرغم من أننا لا نجد التصريح بهذه النسبة فى المصادر القديمة التى تيسرت لنا فهناك شواهد خارجية وأخرى داخلية على صحتها .

(أ) فأما الخارجية : فاتفاق الباحثين المعاصرين على تلقى هذه النسبة بالتسليم والقبول ، من أمثال ريتر وماسينيون وفاديه وشميل ، وعدم تشكك أى منهم فى صحة هذه النسبة .

وأهم من ذلك شهادة روزبهان البقلى ، وتوازى نصوصه فى كتبه المذكورة آنفا مع محتويات كتاب « العطف » ، وتصريحه فى أحد المواضع بالأخذ عن الديلمى ، عند تعريفه العشق بأنه غليان الحب ، وإن لم يصرح باسم الكتاب

(١) عبهر العاشقين ٤٤ ، وقارن العطف ٥١ ص ومابعدها .
(٢) عبهر العاشقين ١٢ - ١٣ ، وقارن العطف ، الباب الثالث .

المأخوذ منه ، لكن المقارنة تدل على أنه مأخوذ من كتاب « العطف » كما ، سلف بيانه[1] .

(ب) وأما الشواهد الداخلية فتتمثل فى:

١ - ما ورد على صفحة العنوان من المخطوطة الوحيدة الباقية لكتاب « العطف » ، من تصريح بنسبة الكتاب إلى « أبى الحسن على بن محمد الديلمى » برواية ابن بكران عنه ، ثم المقاريضى عن ابن بكران ، وقد أوضحنا حال هذين الراويين اللذين تضمنهما الإسناد المذكور فيما سبق ، بما يدعو إلى قبول ما تقرره صفحة العنوان من المخطوط الوحيد ؛ لاتساقه مع المصادر التاريخية الأخرى .

٢ - والتصريح داخل صفحات المخطوط - لا على صفحة العنوان فحسب - بقول مؤلفه ، أو راويه ، في بعض المواضع: « قال صاحب الكتاب»[2]، وفي مواضع أخرى مماثلة : « قال على بن محمد »[3] ، وهو اسم الديلمى .

٣ - التشابه القوى بين ما حكاه الديلمى عن الشيخ ابن خفيف عن شيخه بمكة أبى الحسن المزين عند تلقينه الشهادتين لأبى يعقوب الأقطع ، فى كل من كتاب « العطف » وكتاب « السيرة»[4] ، وهذا الأخير يقطع الباحثون - فضلا عن مضمون الكتاب نفسه - بنسبته إلى أبى الحسن الديلمى ، تلميذ ابن خفيف[5] . هذا بالإضافة إلى وحدة أسلوب الكتابين ، وما يدل عليه أسلوب كتاب « العطف » ومضمونه من أنه تأليف تلميذ مباشر لابن خفيف يعرف تطور آرائه ، ويسجل وقائع من حياته الخاصة ، ويطلع على بعض مؤلفاته بخطه بعد موته ، ويتابعه فى آرائه ومشربه . وكلها ملامح تتفق مع شخصية

(١) راجع ما مر عن البقلى الشيرازى ١٣٩ - ١٤١ .
(٢) انظر مثلا العطف : ٣١ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ ص .
(٣) انظر السابق ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ١٧١ ، ٢٢ ص .
(٤) انظر ٢٩٦- ٢٩٧ ص ، وقارن السيرة ١٢١ - -١٢٢ .
(٥) إنظر السيدة ٨٧ ، ٨٩ ، ٢٥٨ حيث يصرح المترجم الفارسى لكتاب السيرة بنسبته إلى الديلمى .

أبى الحسن الديلمى صاحب « السيرة » ، مما يؤكد صحة نسبة « العطف » إليه[٢] .

وبهذه الشواهد مجتمعة ، داخلية وخارجية ، يمكن للمرء أن يطمئن علميا إلى صحة نسبة الكتاب إلى على بن محمد الديلمى ، الذى تبينا ملامح شخصيته فى الجزء الأول من هذه المقدمة .

مضمون الكتاب :

يتناول الكتاب - كما ألمحنا من قبل - ظاهرة الحب الإلهى ، والحب بوجه عام ، بالدراسة والتحليل الدقيق المستوعب ، فى مستوياتها المختلفة ، الإلهية والإنسانية والكونية ، ويعنى بالبحث عن حقيقتها وعلتها ، ومظاهرها وآثارها ، وآراء الباحثين فيها على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم الفكرية ، من أطباء وحكماء ، ولغويين وأدباء ، وصوفية وعرفاء ، ومتكلمين وفقهاء ، وغير هؤلاء ، حتى مجاهيل الأعراب وعوام الناس . ولا يفوت المؤلف دوما أن يعقب برأيه الخاص ، وتجاربه الذاتية ، وملاحظاته الطريفة ، إلى جانب ما تلقاه من شيوخه ورواه عنهم ، مع تأويله وفهمه لهذه المرويات والآثار .

يبدأ الكتاب بالخطة التفصيلية للأبواب والفصول ، التى اتبعها المؤلف فعلا بتصرف قليل ، ثم يقدم - بعد تمهيد سريع فى الاستدلال على جواز إطلاق العشق والمحبة على الله - تعالى ومنه ، أى كونه موضوعا للمحبة والعشق وفاعلا لهما أيضا - بمقدمات عن فضل الحب والمحبوب والمحب ، ثم يُتبع هذه الأبواب بابا رابعا عن سر التسمية وأصل كلمتى الحب والعشق واشتقاقهما فى اللغة العربية مزاوجا بين أقوال اللغويين من جانب ، وأقوال شيوخ الصوفية من جانب آخر .

ويدخل بعد ذلك فى صميم الموضوع فيفرد بابا للكلام عن « أصل المحبة والعشق ومبدئهما » ، ثم يعرض لجوهر المحبة وحقيقتها ، ثم يدرس « أقاويل الناس فى

(٣) قارن ٩ - ١٠ ، ٢٨٩ - ٢٩١ ، ٢٩٦ - ٢٩٩ ص .

المحبة » ، ثم صفة العشق والمحبة وخاصة لدى الأدباء ، ثم يبين صفات المحبة المحمودة ، لدى طوائف المفكرين والصوفية ، ثم يدرس أقوال « من ذم المحبة لعلة » ، لأنها لا تذم لذاتها أبدا ، ثم يبين « أفعال المحبة والعشق وشواهدهما » لدى مختلف الباحثين وخاصة الصوفية ، ثم يفصل الكلام عن الآثار والشواهد ، فيفرد بابا لشواهد محبة الله للعبد ، ثم لشواهد محبة العبد له ، ثم لشواهد المتحابين فى الله ، ويلى ذلك باب فى ذكر محبة الخواص من المؤمنين ، وآخر فى ذكر محبة عامة المسلمين، ثم فى ذكر الحب لدى كل ذى روح ، ثم يعرض بعد ذلك لمعنى كلمة « شاهد » ، ولحد كمال المحبة ، ثم يذكر من مات عشقا ومن قتل نفسه عشقا ، ويختم الكتاب بدراسة بعض الأخبار فى موت المحبين من الإلهيين ، من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ومن الأولياء - رضوان الله عليهم أجمعين ،

ويعجب القارىء لهذا الكتاب ، الذى مضى على تأليفه ألف عام ، لما يستم به من تناسق فى التركيب ، واستيعاب فى التناول ، وموضوعية فى الشرح والتحليل ، مع غلبة الطابع الصوفى والنزعة الروحية بطبيعة الحال · كل أولئك يعرض فى طرافة محببة ، ممتزجا بمشاعر حميمة ، وملاحظات دقيقة ، لا تصدر إلا عن نفس مهذبة ، وعقل متفتح ، وتأمل طويل ، وذات تكاد تختلط بطبيعة الموضوع ·

عنوان الكتاب :

عنوان الكتاب يرجع إلى تراث· المفكرين المسلمين الذين اهتموا بأسرار الحروف ورمزيتها ، كالحلاج والتسترى وابن مسرة وغيرهم من المفكرين والصوفية(١) .

---

(٣) ينظر أخبار الحلاج (ط ماسينيون وكراوس) ٩٦ ، ومحمد كمال جعفر : من التراث الصوفى لسهل بن عبد الله التسترى ١ / ٢٦٩ ، وله أيضا : من قضايا الفكر الإسلامى ٣٢٢ - ٣٢٤

ويرمز العنوان إلى العلاقة بين الله وخلقه ، وهى علاقة المحبة والتعاطف والألفة ؛ فالألف رمز للذات الإلهية مع كمالاتها (= الله جل جلاله) ، التى هى معدن الحب الحقيقى والجمال الخالص ؛ واللام هى رمز الوجود الإنسانى أو الكون الجامع المخلوق (= آدم أو الإنسان) ، والعلاقة بينهما (ويرمز لها بالألف واللام أو اللام ألف: لا) هى علاقة الألفة والعطف والمحبة فى أكمل صورها وأصفاها .

والعنوان يشى بمذهب المؤلف الذى عبر عنه فى مواضع عديدة من كتابه - وبخاصة فى المقدمات بالباب الثالث ، وفى الباب العشرين الذى شرح فيه المعنى الاصطلاحى لكلمة « شاهد[1] - وهو أن أصل الحب وسره وحقيقته ومبدأه هو من الله عز وجل . ،وأن « العطف » منه - تعالى - هو إمالته زمام إرادة العبد إليه سبحانه ، فينشغل به عما سواه ، وإن كان يرى - فى الوقت نفسه - مجالى الجمال فى كل شىء ، ويمارس الحب بمستوياته وألوانه المحمودة[2]

فالحب دوما هو للحبيب الأول ، والحنين إنما هو لأول منزل ، حتى يعود الإنسان المحب بعد رحلة الاغتراب فى عالم الأكوان إلى مرجعه ومثواه ، فى جوار حبيبه ومولاه ، وهو ما اعتبره الديلمى خاتمة المطاف ، وجعله آخر أبواب الكتاب .

ونحن نتفق مع « ماسينيون » فى ترجيحه أن هذا العنوان مقتبس من تراث الحلاج[3] بوجه خاص ، وعلى نحو أكثر تحديدا ، من المقطوعة الشعرية الحلاجية التى رواها الديلمى نفسه فى الباب السادس

(١) انظر ٣٢٠ - ٢٣٤ ص ، وقارن رسالة كتاب الميثاق للجنيد ضمن « رسائل الجنيد » (تحقيق على حسن عبد القادر) ٤٣ - ٤٤ .

(٢) انظر روزبهان البقلى : مشرب الأرواح ١٠٤ - ١٠٥ ، حيث يورد روزبهان فصلا فى معنى العطف ويصف أصل العطف بأنه حفظ الله المريد « عن الوقوف على شىء دونه » .

(٣) انظر ماسينيون Interférences philosophiques ٢٢٩ .

من « العطف » ، والتى تشرح طبيعة العشق الأزلية ،وحقيقة العلاقة بين العبد ومولاه فى رأى الحلاج ،والدلالة الرمزية للألف واللام على هذه العلاقة الخاصة بينهما فى حالى الجمع والفرق ، والمحو والصحو ، على حد سواء ؛ إذ يقول :

لما بدا البدءُ أبدى عشقَهُ صفةً

فيمن بدا ، فتلالا فيه لألاءُ

واللام بالألفِ المعْطوفِ مُؤتلفٌ

كِلاهما واحدٌ فى السبقِ مَعْناهُ

وفى التفرق إثنانِ ، إذا اجتمعا

فى الافتراقِ ، هما عبدٌ ومولاءُ(١)

وبرغم التفاوت اللفظى بين ما فى عنوان كتابنا وما فى هذه الأبيات ، إذ الألف هنا معطوفة وفى العنوان مألوفة ، واللام هنا مؤتلفة وفى العنوان معطوفة ، برغم ذلك ، فالمعنى فى النهاية واحد، والتشابه أوضح من أن يؤكد ، وإن كنا لا نستبعد فى الوقت نفسه أن يكون الديلمى قد راعى - فى هذه التسمية - عنوان كتاب للحلاج ، ينسبه إليه صاحب الفهرست ، هو « خزائن الخيرات ، المعروف بالألف المقطوع والألف المألوف(٢) »،ولا نستبعد أيضا أن يكون الديلمى قد اطلع على هذا الكتاب الحلاجى المفقود الآن . على أن الحلاج يكثر من استخدام المعنى الرمزى للألف واللام فى التعبير عن علاقة العارف بمولاه فى مواضع أخرى من الأقوال والأخبار المنسوبة إليه(٣) ، التى كانت متاحة للديلمى - مع اهتمامه الخاص بالحلاج - على نحو أوضح مما هى بين أيدينا الآن .

ولعل فيما أوردناه هنا ، عن مغزى التسمية ومصدرها ، ما يغنى عن الإطالة فى موضوع الحروف وأسرارها ،

---

(١) ٩٠ ص

(٢) انظر ابن النديم الفهرست (ط فلوجل) ١٩٢ ، وقارن ماسينيون Passion (ط ١٩٢٢) ٢/ ٨١٩

(٣) انظر أخبار الحلاج مع الطواسين (مكتبة الجندى بمصر) ٤٥ ، ٦٦ - ٦٧ .

الذى كان يحظى - كما يستفاد من كلام الديلمى نفسه - بعناية صوفية عصره [(١)] ، والذى استفاض واستبحر بعد ذلك وكانت له آثاره السلبية والإيجابية[(٢)] .

مصادر الكتاب

سبق أن ذكرنا فى حديثنا عن حياة المؤلف بعض مصادر فكره بوجه عام ، ومن تأثر بهم من الشيوخ والعلماء من خلال شيخه ابن خفيف أو من طرق أخرى ، ونذكر الآن بعض المصادر المهمة التى يظهر أثرها فى كتاب « العطف » بوجه خاص ، بادئين بالمصادر الصوفية لأهميتها ، ثم نعرض بعد ذلك للمصادر غير الصوفية .

١ - ابن خفيف . لعل أهم هذه المصادر - كما هو متوقع - شيخه أبو عبد الله بن خفيف ، سواء بما ورثه عنه ، فيما نرجح ، من اهتمام بدراسة موضوع المحبة والعشق ، كما مر آنفا ، أو بما اقتبسه الديلمى من رسائل شيخه المفقودة الآن فى هذا الموضوع ، أو بما أورده فى « العطف » من أقواله وآرائه المنثورة .

وقد سبق أن ذكرنا ثلاثة أعمال لابن خفيف فى المحبة ، ماتزال كلها مفقودة . ومن النصوص القليلة التى أوردها المترجمون لابن خفيف ومن تعرضوا لآرائه فيما بعد أقوال ومرويات تتعلق بالمحبة والعشق ، ربما يكون البعض منها من بقايا هذه الأعمال .

ومن أهم هذه الشذرات والمرويات ما تورده شميل فى ملاحق كتاب « سيرت » عن سؤال جرى فى مجلس ابن سريج ، شيخ ابن خفيف فى الفقه ، وأجاب عنه ابن خفيف إذ يقول : سَألَنا يوما القاضى أبو العباس بن سريج - وكنا نحضر مجلسه لدرس الفقه - فقال : محبة الله فرض أو غير فرض ؟ قلنا : فرض ، قال: ما الدلالة على ذلك ؟ فقرأت قوله -

(١) انظر ٧٥ - ٧٦ ص .

(٢) انظر مثلا ابن عربى : فتوحات ١ / ٢٦٠ وما بعدها ، وروزبهان البقلى:شرح شطحيات ٦٠ - ٦١

تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم ... أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا ... ﴾[1] ، فتواعدهم[2] الله - تعالى - على تفضيل محبتهم لغيره على محبته ومحبة رسوله ، والوعيد لا يقع إلا على الفرض »[3] .

ويأخذ الديلمى هذا المعنى عن شيخه لإثبات وجوب المحبة فى موضعين من كتاب « العطف » ، دون أن يصرح بنسبته إلى شيخه[4] . وهذا الخبر يظهر أين يقف الديلمى وشيخه من الخلاف الذى بدأته « الجهمية » فى أمر المحبة لله ومن الله فأنكروهما ، وتابعهم فى ذلك المعتزلة ومتأخرو الأشاعرة ، مخالفين فى ذلك جمهور علماء المسلمين [5] .

والقارىء لكتاب « العطف » يجد الكثير من الآراء والأقوال المنسوبة لابن خفيف متعلقة بنظرية المحبة مما قد لا يجد له نظيرا فى مصدر آخر . ولعل من أكثرها أهمية ما يورده الديلمى فى أوائل الكتاب عن جواز « إطلاق العشق على الله ومن الله » ، من أن شيخه كان ينكر ذلك زمنا حتى قرأ مسألة لأبى القاسم الجنيد فى العشق « ذكر فيها معنى العشق واشتقاقه وماهيته ، فقال به ورجع عن إنكاره ، وجوزه وصنف فيه مسألة »[6] . ونحسب أن هذه « المسألة » كانت ضمن مصادر الديلمى ، الذى يأخذ برأى شيخه فى جواز العشق على الله ومن الله ، وفى بيان ماهية العشق واشتقاقه [7] ؛ وفى تقسيم كتاب « العطف » بوجه عام ، كما قد يفهم من الشواهد التالية :

* يورد الديلمى فى « الباب الرابع : فى معنى اسم المحبة واشتقاقها ومعانيها» ،

(١) التوبة : ٢٤ .
(٢) كذا ، ولعلها : فوعدهم أو فتوعدهم .
(٣) سيرت (شميل) ٢٥٨ ، وقارن السيرة (شتا) ٣٠٧ .
(٤) ٩٧ ، ١٩٧ ص .
(٥) انظر بل : Love Theory ٥٦ - ٥٩ ، ١٠٩ - ١١٠ ، ٢٠٤ - ٢٠٥ .
(٦) ٩ - ١٠ ص . قارن ص ١٢٩ فيما سبق .
(٧) السابق ٣٦ ص

وفى الفصل المتعلق بأقوال شيوخ الصوفية فى ذلك ، رأى شيخه ابن خفيف فى اشتقاق لفظ المحبة : « وقال شيخنا أبو عبد الله محمد بن خفيف : يحتمل أنه مأخوذ من قوله - تعالى : ﴿ يحبهم ﴾ فأفاض على الأسرار من حبه فاحتواها ، وألبسها لبسة من محبوبها ، فساغ فى وصفها أن يسمى ذلك حبا ، باسم الحق ووصفه » (١) .

* ثم يذكر الديلمى شيخه فى « الباب الخامس : فى أصل المحبة والعشق ومبدئهما » مرتين :

أولاهما : ما يحكيه عن ابن خفيف متعلقا بأهل دمشق « أنهم قالوا : إن أصل العشق الحب ، ثم الرؤية ، ثم العشق .. » ويتبعه بخبر عن أرميا النبى وخطاب الله - تعالى - إياه(٢) .

والأخرى - وهى أهم من سابقتها : ما يحكيه عن ابن خفيف فى بيان أصل المحبة « من محبة الحق لعباده تتولد تأثيرات لابسة لقلوبهم ، وغشاوة تظهر على أسرارهم ؛ فيكونون بذلك موصوفين ، وإن لم يكونوا لها كاسبين ...»(٣) وربما كان أصل المحبة هذا متصلا بفكرة « الشاهد » التى يشرحها الديلمى فى الباب العشرين من كتاب العطف .

وفى كتاب « العطف » مواطن أخرى يذكر فيها الديلمى آراء شيخه وأقواله ، سواء صرح بذلك أم لم يصرح ، منها ما يذكره عن شيخه فى بيان المحبة(٤) ، وبشأن بعض الأخبار عمن ماتوا عشقا ، كخبر شعوانة الأبلية ، إذ يقول الديلمى : « ووجدت فى كتاب للشيخ أبى عبد الله محمد بن خفيف - رحمة الله عليه - وبخطه ، قال : .. الخ »(٥) ، وكخبر أبى يعقوب الأقطع(٦) ، وخبر الشاب

(١) السابق .
(٢) السابق ٧١ ص
(٣)السابق ٧٣ ص
(٤)٩٢ ص .
(٥) ٢٨٩ ش ٢٩٠ ص .
(٦) ٢٩٦ - ٢٩٧ ص .

المباركى[1] ، ومواضع أخرى ، أشرنا إلى بعضها فيما سبق . وخبر الأبلية يؤكد اعتماد المؤلف أثناء كتابته على بعض أعمال شيخه التى عثر عليها بعد موته ، كما يؤكد أن بعضها - على الأقل أحدها - كان بخط الشيخ .

(ب) ـ الحلاج : ربما جاز لنا أن نذكر المصدر الحلاجى تاليا للشيخ ابن خفيف ضمن مصادر الديلمى فى «العطف» سواء كان ذلك من طريق شيخه أو من طريق آخر ، فقارىء « العطف » يجد أثر الحلاج واضحا ، وآراءه مبثوثة فى مواطن عدة ، نشير إليها هنا بالإيجاز .

يذكر الديلمى الحلاج فى كتابه لأول مرة ضمن شيوخ الصوفية المشاركين له فى الرأى بشأن جواز استخدام العشق فى معنى المحبة بين العبد وربه[2] .

ثم ينقل عنه نصا مطولا بشأن أصل العشق ، باعتباره أثرا للوجد الإلهى الذاتى فى الأزل ، والخطاب العلوى بين الذات وبين صفاتها ، وهى نظرية « العشق الذاتى» عند الحلاج ، ومن وافقه . ومن الخطاب بين الذات والصفات - كما يصفه الحلاج فى هذا النص - يكون التجلى فى عالمى الملك والملكوت ، مضمخًا بآثار العشق الذاتى القديم ، فيظهر عندئذ الفرق بين الملك والمالك والمملوك ويعرف الفعل والفاعل والمفعول ، وذلك فى الباب الخامس من العطف ، « فى أصل المحبة والعشق »[3] .

ويبدو الديلمى فى الفصل السادس منه متأثرا بفكر الحلاج على نحو ما ، إذ

---

(١) ص ٢٩٧ - ٢٩٩ .
(٢) ص ٩ .
(٣) ص ٥٠ - ٥٦ .
(٤) ص ٩ .

يقـول: فـأبرز الحق - تعـالى - من الأزل لجميع أسمائه المـشتركة تأثيرات هى كانت الحـــدث ، الذى هو جـنب الأزل ... فـالمحـبـة التى كـانت أول بارز برز ... فانقسم ثلاثة : محبا ومـحبوبا ومـحبة ، وهـى كانـت فى الأصل واحدا .. »[1] ولعل النَّفَس الحلاجى واضح فى ذلك .

٣ - ثم ما يرد فى العـطف بعد ذلك من آراء وأقـوال حلاجـية بشـأن « ماهيـة العـشق والنور الأزليـة ، وعن الطبـيـعـة الخاصة للعشق ، وما يتخلل ذلك من شعر للحـلاج ، وهى الأبيـات التى رجـحنا - فيما سبق - أن الديلمـى قد استوحى منها عـنوان كتـابه العـطف[2] . وعـن مفـهوم « المحـو » الصوفى فـى بـيتـين للحـلاج ضمن قصة وقـعت لـه فـى الأهـواز [3] ، وعـن « شواهد المحبة » ومـا يترتب عليها من فناء صفات المحبين[4] . وأخيرا يورد الديلمى بضعة أبيات للحلاج تصـور فكرة « الاتحاد » الحلاجية، ويعقب عليها بقوله: هذا من الاتحاد[5] .

ولعلـه من المناسب هـنا أن نورد رأى الديلمى فى مثـل هذه الفكرة ؛ إذ يقول : فـى الفـصل الـسابع مـن الباب السابع من « العطـف »: « وفرقة زعـمت أن المحبة ، ألا تفـارق مـحبـوبك ولا يفـارقك ، ولا يكون بينك وبـينه خـلاء ، . ويقـولون : نحـــن الله ، والله نحـن - تـعـــالى الله وجل »[6] .

فآخر هذا القـول يوحى برفضه لفكرة الاتحاد .

(جـ) هـذا ، وللـديـلمـى فـى كتـاب « العطف » - بالإضافة إلى أقوال وكتابات كل من شـيـخه ابـن خفـيف والحـلاج - مصادر صوفـية أخرى عديدة ، ومن أهمها

---

(١) السابق ٧٤ - ٧٥ ص .
(٢) السابق ٩٠ -٩٣ ص
(٣) السابق ١٤١ - ١٤٢ ص
(٤) السابق ١٧٩ ص .
(٥) السابق ٢٣٩ ص .
(٦) ١٠٨ ص .

عمرو بن عثمان المكى وأبو القاسم الجنيد وأبو سعيد ابن الأعرابى ، ولكل منهم - كما ذكرنا آنفا - مؤلف مفقود فى المحبة والعشق ، يظهر أثره فى كتابنا هذا :

(أ) فأما عمرو بن عثمان فيضمن الديلمى كتابه آراء له ونصوصا مطولة أحيانا فى مواضع ثمانية ، بعضها مجرد تكرار لما أورده فى موضع سابق ، نشير إلى أهمها فيما يلى :

١- أول من يذكره الديلمى ، ويقتبس من أقواله فى الفصل الخاص بأقوال شيوخ الصوفية فى اشتقاق لفظ المحبة هو المكى[١] .

٢ - ثم يورد ثلاثة أقوال له فى الفصل الخاص بآراء الصوفية ، فى أصل العشق والمحبة ؛ تتضمن كون المحبين أعلاما لمحبته - تعالى - وبيان سر فرحهم بذكره ، وكيف تصير المحبة عشقا[٢] ، وأن أصلها يرجع إلى النظر إليهم بعين المحبة ، يوم استخراج الذر من ظهر آدم .

٣ - وينقل عنه فى الفصل الخاص بأقوال الصوفية فى نفس المحبة جوابا لمن سأله عن المحبة : بأنها ما دخل فى القلوب من لطيف المعنى الذى تعلقت به بحق المحبوب[٣] . ويرجع معناه إلى نظرية المحبة فى عالم الذر التى ذكرها فى أصل المحبة ، كما أشرنا آنفا .

٤ - ثم يذكر له قولاً فى « دلائل المحبة » وأنها الشوق والحنين إلى اللقاء والتحرق والألم لامتناعه[٤] .

٥ - وفى حد كمال المحبة : ينقل عنه نصا فى المحو والفناء والاصطلام ، بلا وفاة الموتى ولا بقاء الأحياء[٥] .

---

(١) السابق ٣٥ ص .
(٢) السابق ٦٩ - ٧١ ، ٧١ - ٧٣ ص .
(٣) السابق ٨٧ ص .
(٤) السابق ١٧٨ - ١٧٩ ص .
(٥) السابق ٢٤٠ - ٢٤١ ص .

٦ - وآخر المقتبسات وأطولها عن المكى ما يورده الديلمى فى خواتيم كتابه - فى باب « موت الإلهيين » من العشق والمحبة - وهما قصتان : إحداهما قصة حكاها عمرو عن الزقاق عن أحد أصحابه الذى حضر موت أحد الصوفية ودفنه ، وكيف ظهر له فى المنام بعد موته ، فى موكبه إلى الجنة ، وكيف لقيه فى قصره بالجنة ، فأوصى بإكرامه . والأخرى قصة حكاها عمرو أيضا عن أبى سعيد الخراز عن بعض متعبدى بغداد ، بشأن ميت نزل ليدفنه فى قبره ، فلما انحلت عقدة الكفن خاطبه الميت : أما إنى سأنفعك ، فغشى عليه ، وأخرج محمولا [1] .

(ب) وأما الجنيد بن محمد ، فلعله فى استخدامه مصطلح « العشق » كان متأثرا بشيخيه : الحارث المحاسبى ، الذى ترك مقالة فى المحبة رواها أبو نعيم فى الحلية[2]، وأبى يزيد البسطامى المعروف بالفناء والقول بالعشق الإلهى . وكثير مما فى العطف من أقوال الجنيد يتصل بمسألة العشق ، ولعله مأخوذ من « مسألته » التى أشار إليها الديلمى فى أوائل كتابه[3] وإلى تأثيرها على شيخه ابن خفيف .

والموضوع الثانى الذى يقتبس فيه الديلمى من الجنيد هو المتعلق باشتقاق كلمة « العشق »[4] .

ثم يذكر رأيه فى صيرورة المحبة عشقا جوابا لمن سأله عن أصل العشق ، بأن أصله المحبة ، وتزداد حتى تصير عشقا . وفى هذا الموضع نفسه يورد الديلمى قصيدة طويلة للجنيد بالغة الأهمية،

(١) السابق ٢٩١ - ٢٩٦ ص .
(٢) انظر الحلية ١٠ / ٧٦ وما بعدها .
(٣) العطف ٩ - ١٠ .
(٤) السابق ٣٥ ص .

لاتخلو من غموض فى كثير من أبياتها، فى معنى مبدأ العشق والمحبة ومنتهاهما ، وفناء المحبة عن جميع الصفات ، وسائر النسب والإضافات[1] .

وفى باب « نفس المحبة وماهيتها » يورد جواب الجنيد لمن سأله عن نفس المحبة والعشق ، بما يؤكد رأيه السابق فى صيرورة المحبة عشقا ؛ فالعشق عنده غليان المحبة عند بلوغها الغاية[2] .

ثم يروى عن الجنيد قصة تتعلق بأحد مريديه الذى غاب عن الحلقة ؛ حياء من شيخه ، لانشغاله بذى وجه جميل ، فزاره ولم ينكر حاله ، وقال هى محبة لا نقمة. وفى ختام القصة يورد الديلمى بيتين فى المحبة للجنيد ، وبعد أن يلم بأقوال شيوخ آخرين يذكر مقالة الجنيد : « فقدنا ثلاثة أشياء لا نكاد نجدها حتى الممات : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء »[3]

وفى باب « شواهد المحبة » يورد الديلمى أبياتا ثلاثة رائعة الجمال تلقاها الجنيد مكتوبة فى رقعة من شيخه وخاله السرى السقطى[4] . وهو آخر المواضع التى ترد فيها أقوال الجنيد .

(جـ) وأما أبو سعيد المشهور بابن الأعرابى - وهو أقرب هؤلاء الشيوخ الثلاثة زمنا من الديلمى - فقد نقل الديلمى عن كتابه المفقود « اختلاف الناس فى المحبة » فى مواضع ثلاثة :

أولها : نص هام فى باب (معنى اسم المحبة واشتقاقها) عن درجات المحبة ومراتبها ومقاماتها ، والاسم الذى تعرف به عند كل درجة ، ثم ينقل عن أبى سعيد

---

(١) السابق ٦٥ - ٦٨ ص .
(٢) السابق ٨٧ .
(٣) السابق ١٣٩ - ١٤١ ص .
(٤) السابق ١٧٨ ص ، وقارن رسائل الجنيد ، ص ٤٣ .

شرحه لمعانى هذه الأسماء بلغة صوفية بالغة الدقة والعمق ، تكشف - فضلا عن قيمتها الروحية الذاتية - مرحلة من مراحل تطور المصطلح الصوفى[1] .

والنص الثانى : وهو أكثر نفاسة وأهمية من سابقه ، على أهميته ونفاسته أيضا ، يرد فى الباب السابع من كتاب « العطف » ، الذى أعطاه الديلمى عنوان كتاب ابن الأعرابى : « اختلاف الناس فى المحبة » . ويبدأ بقول الديلمى : « قال أبو سعيد أحمد بن [محمد بن] زياد الأعرابى فى كتاب « اختلاف الناس فى المحبة » أقاويل بلا ذكر قائليها ، فقال : اختلفوا فى المحبة ، فكانوا فى الأصل سبعة أصناف » . ثم يذكر الأصناف السبعة التى يحتوى كل منها على بضع فرق ، يبلغ مجموعها أربعا وأربعين فرقة تمثل مختلف اتجاهات الفكر الإسلامى حينذاك فى باب المحبة ، بما فى ذلك آراء المحافظين من أهل السنة ، وآراء الفرق الأخرى من معتدلى الشيعة وغلاتهم .

ويغلب على ظننا أن الباب السابع من « العطف » كله اختصار أو اقتباس لما احتواه كتاب ابن الأعرابى ، ولا يبعد أن يكون الديلمى قد ضمنه بعض التفاصيل من مصادر أخرى . ويستغرق هذا الباب ما يربو على عشر صفحات من مخطوطة كتاب « العطف » ، فهو يمثل - إن صح حدسنا - أطول نص مقتبس فى الكتاب ، ويقدم إلينا قطعة هامة جدا ، لا نجدها فى مصدر آخر ، من عمل ابن الأعرابى المفقود - إن لم يكن كله[2] .

وفى منتصف كتاب « العطف » تقريبا يورد الديلمى نصا آخر لابن

(١) السابق ٣٦ - ٣٨ ص .
(٢) ٩٨ - ١٠٩ ص .

الأعرابى ، يشـرح فيه قـول ، رابعة حين سئلت : « كـيف حـبك للرسـول ؟ » فـأجـابت : « إنـى أحـبـه ، إلا أن حب الخالق شـغلنى عن حب المخلوق » . وهو شرح ينم عن الفـهم لحقائق التـصوف من ناحـيـة ، وللذوق رابعـة فيـه من ناحـيـة أخرى[1] .

هذا ولا يخـفى على قـارىء كـتـاب العطف أن هناك مصادر صوفـية أخرى قد استعان بها مـؤلفه ، إلا أنها أقل أهمية مما سبق ، ومن ذلك ما نقلـه عن أبى سليمان الدارانى (ت ٢١٥ / ٨٣٠ - ٨٣١) عن طريق تلميذه أحـمد بن أبى الحوارى (ت ٢٣٠ / ٨٤٤ - ٨٤٥) ، وعن ذى النون المصرى (ت ٢٤٦ / ٨٦١) ، ويتـضمن أشعارا تنسب إليـه ، وعن المحدث الكوفى الزاهد سفيان الثورى (ت ٩٥ / ٧١٣)، وعن سـمنون المحب المعـاصـر للجنيـد ، وكثير غير هؤلاء .

ولا نستطيع أن نغفل فى هذا المجال التعرض للنص الذى رواه الديلمى عن سهل بن عـبد الله التسـترى (ت ٢٨٣ / ٨٩٦) ،متعلقـا بنظرية « النور المحمدى » الشائعـة لدى الصوفـية ، وهو نص مطول هام جدا[2] . ويأتى ذكر التـسـترى مرتين بعد ذلك فى كـتـاب « العطـف »[3] . هذا بالرغم مما عرف عن ابن خفيف من مقاومة لمذهب « السـالمية » الذين تتلمـذ شيـخهم على التسترى[4] .

(د) من الطبيعى أن يستعين الديلمى فى تأليف كتابه بمصادر غير صوفية ،وأهم هذه المصادر ما يلى :

(أ) الطبـرى مـحمـد بن جـرير ، صـاحب التاريخ والتـفـسيـر ، الذى ينقل الديلمى عنه عدة أخبـار تاريخية بشىء من التصرف ، ويصرح بذلك فى الموضع الذى يروى عنه فيه خبر الخضر - عليه السلام[5]

وقد ساعدتنا المقارنة بين نص « العطـف » وكتابى الطـبرى ، المشار إليهمـا آنفاً على تحـرير النص فى عـدة مواضع من البـاب الأخير كما قد يلاحظ القارىء فى تعليقاتنا عليه وقد يكون من المناسب أن نشير هنا ما سبـق من إلى أن الديلمى يذكر ابن جـرير ضمن شيوخ ابن خـفيف الذين سمع منهم الحديث فى بغداد[6]

(١) انظر ١٥٢ ص . وهناك موضع آخر فى العطف يُذكـر فيه قول منسوب لشخص كنيتـه أبو سعيد ، لكن لا نقطع بأنه ابن الأعرابى ، وذلك فى ٧٠ ص .
(٢) السابق ٦٧ - ٦٨ ص .
(٣) السابق ٨٧ ، ٢٩١ ص .
(٤) شميل : سيرت ٢١٢ .
(٥) العطف ٢٧٢ ص ، وقارن هوامشنا على المواضع الأخرى .
(٦) شتا : السيرة ٢٥٣

(ب) وممن رجع إليهم الديلمى من المؤرخين أيضا - فيما يبدو - المسعودى، صاحب « مروج الذهب » وصاحب «أخبار الزمان » وهو الكتاب الذى تناول فيه موضوع « العشق » بالتفصيل ، كما ينص المسعودى فى « المروج »[1] . ومن أهم النصوص التى يبدو أن الديلمى قد نقلها عن المسعودى ما أورده فى الفصل الرابع من الباب الخامس ، « فى قول المتكلمين فى أصل العشق والمحبة وما تولدا منه » . وقد وردت هذه الأقاويل فى المروج ، « فى سياق مجلس عقده الوزير البرمكى يحيى بن خالد (ت ١٩٠/٨٠٥) ودعا إليه نخبة من متكلمى عصره[2] . ويغلب على ظننا أن أقوال المتكلمين فى المحبة كانت تحت يد الديلمى اعتمادا على كتاب المسعودى :« أخبار الزمان » ، أو مصدر مشترك لهذين الكتابين ثم قام بتوزيعها على مواضع عديدة من كتابه عند بيان رأى المتكلمين[3] .

(جـ) ويرجع الديلمى أيضا إلى أبى العباس أحمد بن منصور ، أحد علماء شيراز البارزين فى عدة فنون ، ووالد أبى عبد الله البيطار الذى سلف ذكره فى حياة المؤلف[4] ، وصاحب « مشيخة » ينقل عنها الديلمى خبرا عن ثابت البنانى ، وآخر يتعلق بالعمامى ، أحد صوفية الرقة[5] .

وهناك مصادر أخرى عديدة فى مجالات متنوعة ، لا يعينها المؤلف على وجه التحديد ، لكنه يذكرها على وجه الإجمال ، كأهل اللغة ، والأدباء ، والأعراب ، والفلاسفة الأوائل ،

---

(١) المسعودى : مروج ٦/ ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) ٦٢ - ٦٤ ص ، لاحظ هوامشنا عليها ، وما مر فى ص ٣٣ ، وقارن المروج ٦ / ٣٦٨ - ٣٨٦ .

(٣) انظر ص ١٣١ فيما سبق .

(٤) راجع ماسبق فى ص ١٢٣، ١٣١ - ١٣٢

(٥) ٢٨٧ ، ٢٩٩ ص .

والأطبـاء ، والمنجـمين ، والمتكلمين ، مما هو مثبوت فىٌ فصول الكتاب كله .

وقد يكون من قبيل ذلك أيضا ما نقله فى بعض المواضع عن « أحد الفلاسفة»(١) ومـا نقله عن كـتـاب للعـالم الفلكى أبى معشـر ، ولكن بطريقة غير مـباشرة ، بل نقلا عن بفعل أهل العلم(٢)

والكتـاب يكشف عن ثقافـة متنوعـة رحبـة الأبعاد ، وليس من اليسـير فى هذه المقـدمة أن نحـصى مصـادره ومراجـعه ، فنكتفى بما تيسر من ذلك .

وقد يسوغ لنا - بالنسبة لما زخر به من أشعار فى الحب - الإنسانى منه والإلهى - أن نتوقع أن المؤلف كان يعـتمد على كتب من طراز « الزهرة » لابن داوٗد و « اعتلال القلوب » للخرائطى ، ومجموعات الشعر المتـداولة حينذاك ، وأنـه كان يرجع أيضـا إلى مصادر أخرى صوفـية ، قد لا تـكون موجـودة الآن ، نظرا لما يحويه الكتاب من أشـعار للجنيـــد والحلاج وغـيرهمـا من أعـــلام الطريـــق ، ومـنقطوعـات أخـرى لا توجد فى دواوين أصحابها المتداولة الآن والله أعلم .

---

(١) ٥٦ ص ، وقد رجحنا أن المقصود به أبو حـيان التوحيدى ، كما اقترح مـاسينيون ، راجع ماسر فى ١٢٣ - ١٣٣ - ١٣٤ فيما سبق .

(٢) ٥٦ ص .

(جـ) طريقة التحقيق

١ـ أسباب إعادة التحقيق :

اتجهت همتنا أول الأمر - أنا والدكتور يوسف بل أستاذ العربية فى جامعة برجن بالنرويج - إلى ترجمة هذا الكتاب من العربية إلى الإنجليزية ، لتيسير الإفادة منه للناطقين بهذه اللغة ، ثم وجدنا أنه من الضرورى ،بعد مراحل العمل الأولى التى اعتمدنا فيها على نشرة الأستاذ « فاديه » ، وبعد اكتشافنا للصعوبات التى تكتنفها ، أن نقوم بإعادة تحقيق النص العربى من جديد ، اعتمادا على المخطوطة العربية الوحيدة ، المحفوظة فى مكتبة « توبنجن » لكى نقدم للباحثين وللمثقفين نص الكتاب ، وترجمته الإنجليزية ، بطريقة تمثل قراءتنا نحن للأصل ، وفهمنا له ومعالجتنا إياه .

ونجد من الحق علينا أن نشكر الأستاذ « فاديه » الذى كان له فضل إخراج الكتاب إلى الناس لأول مرة فى أوائل الستينات ، وإن كانت نشرته تلك قد جاءت مشوبة ببعض العيوب والأخطاء فيما يتعلق بالنص نفسه ، كما أنها خلت من التعريف بالكتاب ومؤلفه ، ومن الفهارس المعتادة ، وقد كان النص بحاجة إلى بعض التعليقات والإيضاحات التى لم يقم بها محققه . وإن كان قد قام ببعض هذه الأمور فى ترجمته الفرنسية للكتاب فيما بعد .

ولهذا كله قمنا بإعداد هذه النشرة التى راعينا فيها - بتوفيق الله - التعريف بالمؤلف وكتابه أولا . ثم تحرير النص طبقا للأصل وللنصوص الموازية له ، والأبحاث المتعلقة به فى اللغات العربية والفارسية والتركية من ناحية ، والإنجليزية والفرنسية والألمانية من ناحية أخرى .

كما عنينا بالتعليق عليه : للتعريف بما

ورد فيه من أعلام ، إلا ما فاتنا أو تعذر التعريف به أو كان بالغ الشهرة . ولتخريج النصوص الواردة فيه سواء كانت قرآنية أو نبوية أو شعرية أو غيرها . كما ألحقنا به فهارس تفصيلية على النحو المعهود .

وحاولنا - بوجه عام - أن نقوم النص بقدر الاستطاعة ، وأن نضيء جوانبه بالتعليقات التي بذلنا فيها جهداً كبيراً ، استغرق أمدا طويلا ، ونأمل أن يجد المطلعون على هذه النشرة الجديدة بأنفسهم مبررات إعادة التحقيق ، ويستقبلوها بشيء من الثقة والاطمئنان بإذن الله .

٢ - وصف الأصل :

اعتمدنا - كما سلفت الإشارة على نسخة مكتبة « توبنجن » الخطية ؛ حيث لم نستطع العثور على سواها ، وسنعتمد في وصفها هنا على صورتها « الفوتوجرافية » التي تفضلت إدارة المكتبة بإرسالها إلينا،وهي تقع في ثلاثمائة صفحة عدا صفحتي العنوان والخاتمة ، وفي كل صفحة ١٣ سطرا . ويحيط بالصفحات الأولى منها - من صفحة البسملة إلى ص ١٧ - إطار مستطيل (١٠ × ١٤ سم) أهمله الناسخ بعد ذلك فيما بقي من الكتاب .

وقد روجعت هذه النسخة بعد كتابتها ، حيث دوّن الناسخ ،بالخط نفسه ، ما سقط من النص أثناء النسخ على الهامش الأيمن أو الأيسر مع الإشارة إلى ذلك في موضع السقط ، وهذا السقط يكون أحيانا كلمة أو بعض كلمة[1] ، وأحيانا عبارة أو جملة[2] وأحيانا أخرى سطرا كاملا[3]. وقد تتعدد مواضع هذا السقط المضاف على الهامش فيصل أحيانا في الصفحة الواحدة إلى أربعة مواضع[4] ، مما يدل على عناية طيبة بالمراجعة ، وإن كنا نعتقد أن هناك مواضع من السقط

(١) انظر مثلا ٢ ، ٣، ٤ ، ٦ ، ١٠، ١٤، ١٩، ٢٨ ، ٣١، ٣٥ ، ٣٩ ، ص .
(٢) انظر مثلا ١١ ، ٢٤ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ص .
(٣) كما في ٦٣ ، ١٨٩ ص .
(٤) كما في ٩٠ ، ١١٤ ص مثلاً .

لم تتدارك عند المراجعة ، نبهنا نحن إليها على طريقتين : الأولى بزيادتها فى صلب المتن داخل معقوفتين علامة الزيادة لضرورتها للسياق [1] والأخرى بالإشارة إليها فى تعليقاتنا بالهامش إن لم تكن ضرورية [2]

وعلى « صفحة العنوان » من المصورة يوجد بخط الناسخ نفسه : « كتاب عطف الألف والمألوف [كذا] على اللام المعطوف تأليف الشيخ الإمام العارف أبى الحسن على بن محمد الديلمى - رحمه الله تعالى - برواية الشيخ أبو [كذا] الحسن ابن بكران بن الفضل رواه عنه أبى [كذا] شجاع محمد بن سعدان المقاريضى[3] - رضى الله تعالى عنه وأرضاه . » وحول هذا إطار فى شكل مثلث مقلوب ، ينتهى عند رأسه فى أسفل الصفحة بحلية زخرفية ، لعله من عمل الناسخ أيضاً

ويوجد فوق الإطار كلمات قليلة ، وإلى جانبه «ختم عربى » يبدو أنه لأحد من تملكوا الكتاب ، وفى أقصى الشمال من أسفل الصفحة يوجد « تملك » آخر على النحو التالى : « كتاب الألف من كتب الفقيه .... الخ » يبدو أنه أقدم من تملك صاحب الختم ، وضرب عليه بالقلم لإخفائه ، وقد حاولنا قراءة بعض محتوياتهما وتعذرت قراءة البعض الآخر .

وأما صفحة الخاتمة فى آخر الكتاب فتحتوى على سطرين كاملين وبضع كلمات أخرى ملونة بشكل رأسى ، علامة الختام . وهى تتضمن جزءا من الدعاء الذى ختم به الديلمى كتابه على النحو التالى : « عند لقاء ربنا ، والعفو العام عند حسابنا ؛ إنه ولينا والقادر عليه [كذا] وصلى الله على سيدنا [كذا] محمد ،وآله، أصحابه[كذا] ،

(1) كما فى ١٧١ ، ٢٢٧ ص مثلا .
(2) كما ٣٧ ص مثلا .
(3) انظر ما كتبناه فيما سبق عن سند الكتاب ونسبته .

الطيبين الطاهرين أجمعين إلى يوم الدين ، وسلم . . .»

ويوجد بعد ذلك سطر واحد ، ضرب عليه بالقلم بحيث تصعب قراءته جدا ويرغم الصعوبة البالغة يمكننا أن نتوقع - على تردد شديد - أنه يتضمن شيئا يتعلق بالناسخ .

وقد أحيطت أكثر الكتابات التى وردت فى هذه الصفحة الأخيرة بإطار فى شكل مثلثين متداخلين يحيطان بالكلمات الختامية المرتبة رأسيا بما يقرب من شكل المثلث المقلوب ، كالعادة فى خواتيم الكتب ، ومنها السطر الذى ضرب عليه .

وطراز الخط الذى استخدمه الناسخ هو قلم نسخ معتاد . وكان يحرص فى الصفحات الأولى على تشكيل أكثر الكلمات ، وإن كان التشكيل ، وبعض الشواهد الأخرى ، تدل على أن الناسخ لا يتقن قواعد اللغة العربية[1] ، كما أن النقط بالنسبة للحروف المعجمة جاء مضطربا فى أحيان كثيرة ، كما تدل عليه تعليقاتنا وخاصة فى الأجزاء الأولى من النص . وكان الناسخ يبرز عناوين الأبواب والفصول وبدايات الأشعار وبعض الأقوال بتكبير الأحرف واستخدام حبر مغاير[2] وقد يلجأ أحيانا إلى استخدام أشكال زخرفية فى هذه المواضع ، وفى غيرها أحيانا، وغالبا ما يقصد بهذه الزخارف استكمال الأسطر الناقصة فى المواضع الهامة وحول العناوين[3] .

خطوات التحقيق

١ - بدأنا بنسخ المخطوطة طبقاً لقواعد الإملاء الحديثة ، مراعين فى ذلك تقسيمها إلى فقرات بحسب مقتضيات المعنى وطبيعة الأسلوب، مستخدمين علامات الترقيم المستقرة فى العربية

(١) انظر صفحة العنوان فى أول النص المحقق .
(٢) انظر الصفحات المصورة من الأصل ، وصفحة العنوان من النص المحقق .
(٣) انظر مثلا ٧ ، ٨، ٤٧، ٥٦، ١٨٥، ٢٢٠ ، ٢٢٥ من المخطوطة الأصلية .

المعاصرة ، مصلحين اختلال النقط والتشكيل المشار إليه آنفا ، مع الإشارة إلى بدايات صفحات المخطوط بخط مائل فى الصلب وذكر رقم الصفحة على الهامش بحذاء هذا الخط . ويؤسفنا أن نوع «البنط» الذى استخدم فى الطباعة لم يسمح بوضع أية علامة تشكيل فوق الألف المهموزة ، كما لم يسمح بوضع علامة المد فى مثل كلمة « الله » وكلمة « الرحمن » .

وعنينا بمراجعة هذا النسخ مرات عديدة للاطمئنان إلى سلامته ، ووضعنا التصحيحات التى أثبتها الناسخ بخطه على الهامش وحدد مواضعها - كما ذكرنا فيما سبق - فى صلب المتن ، وقلما أضفنا إلى المتن ما ليس فى الأصل (الذى رمزنا له بالحرف ص) ، فإن فعلنا جعلناه بين معقوفتين علامة الزيادة ، وذلك حين تقتضيه الضرورة فحسب . وقد لاحظنا أن أخطاء الناسخ التى صحح منها الكثير فى المخطوط ترجع إلى أمور منها الضعف اللغوى للناسخ كما ذكرنا ، وإلى أنه - فيما نرجح - كان يعتمد أثناء النسخ على أصل مكتوب بين يديه ينقل عنه ؛ إذ هناك أخطاء نظرية ترجع إلى تشابه الكلمات وتداخل السطور مع العجلة فى النقل[1] ، وترجع أيضا إلى أسباب سمعية؛ إذ يبدو أن الناسخ كان يعتمد أحيانا على من يقرأ له من الأصل المكتوب. فيخطىء فى تسجيل مايسمع[2].

٢ - ومن الطبيعى أن تصادفنا فى هذه المرحلة مشكلات القراءة ، وقد استعنا أحيانا - كما ذكرنا فى تعليقاتنا بالهامش - بما أثبته الأستاذ « فاديه » فى نشرته لهذا الكتاب (التى رمزنا لها بالرمز ف) ،وقد حرصنا أن نشير بالهوامش الى ما أفدنا فيه من قراءاته ، إن كانت ذات مغزى ، أما ما

---

(١) كما فى ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢ ، ١٢٥، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨، ٢١٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ من المخطوطة الأصلية .

(٢) كالذى نبهنا عليه فى ٦٣ ، ٦٥ ، ٨٩ ، ٢٥٢ ص .

اتفقنا فيه معه من الكلمات العادية فكثير بطبيعة الحال ، ولا يستحق التنبيه عليه .

وحين خالفناه لتغييره ما فى الأصل أو لاجتهاد له فى القراءة لا نقره عليه أشرنا إلى ذلك بالهامش أحيانا ، وخاصة فى الأجزاء الأولى من النص ، وسكتنا عن هذه الإشارة فيما بعد ذلك .

واستعنا أيضا بالاجتهادات التى قام بها الأستاذ « ريتر » فى قراءة مواضع قليلة من الأصل ، ألحقها الأستاذ « فاديه » بنشرته المذكورة ، وأشرنا بالهوامش إلى ما كانت فيه معونة حقيقية لنا ، وقد نشير أحيانا إلى ما نخالف فيه كلا من « فاديه » و «ريتر» كما يلاحظ القارئ .

كما استفدنا أيضا – فى هذا الصدد – بتحقيق الأستاذين «بيستر فلت» و«جوتاس» (المشار إليهما فى الهوامش بالرمز : بج) للحوار الذى دار بين أرسطو وتلاميذه ، وحكى الديلمى أجزاء منه فى عدة مواضع من الكتاب(1) .

وكان لما قام به الأستاذ «فالزر» من ترجمة لأحد فصول الأصل الى الإنجليزيه(2) ، وما قام به الأستاذ «ماسينيون» من عمل مماثل فى الفرنسية(3)، وما قام به الأستاذ «فاديه» من ترجمة النص كله الى الفرنسية – كان لهذا كله فائدة قيمة لنا ، سواء فى مرحلة القراءة وتحرير النص ، أوفى مرحلة التعليق عليه والإيضاح له .

وقد استعنا فى هذه المرحلة والتى تليها بمصادر صوفية وتاريخية وأدبية ودينية تضم نصوصا موازية لما فى الأصل أعانت على حسن قراءته أيضاً كما سيلاحظه القارىء فى مواطن عديدة ، ومن أهمها ؛ « مروج الذهب » للمسعودى ، و « روضة المحبين » لابن القيم ، و « الواضح

(1) انظر العطف ٥٩ – ٦٠، ١٥٦ ت – ١٦٠ ، ٢٤١ – ٢٤٢ ص والتعليقات بهوامشها .

(2) السابق ٥٩ – ٦٠ ص هوامشها .

(3) السابق ٤٨ – ٥٠ ، ٧٤ – ٧٨ ، ٩٠ – ٩١ ، ١٤١ ، ١٧٩ ، ٢٣٩ ص وهوامشها .

المبين » لمغلطاى ، و « مصارع العشاق » للسراج ، و « ذم الهوى » لابن الجوزى ، و « منازل الأحباب » للحلبى ، و « منية المحبين » للحنبلى ، و « تزيين الأسواق » للأنطاكى ، و « حلية الأولياء » لأبى نعيم ، و « الرسالة » للقشيرى ، و « كشف المحجوب » للهجويرى ، و « التاريخ – وجامع البيان » للطبرى ، وكثير غيرها .

٣ – وعنينا فى المرحلة الثالثة بالتعليق على النص لإيضاحه وتنوير جوانبه ، والتعريف بأعلامه ، وتخريج نصوصه ، وربط أجزائه بعضها ببعض ، وبما قد يعين قارئه أثناء المطالعة بوجه عام .

وفى هذا الصدد ، عنينا بالنصوص القرآنية أولا ، ومراجعتها على « مصحف الملك » المطبوع بالقاهرة ، مع ذكر اسم السورة ورقم الآية فيها بالهامش . كما أولينا عناية خاصة بتخريج الأحاديث القدسية والنبوية ، مستعينين بدواوين السنة ومصادرها المتعددة التى تيسرت لنا ، وإن فاتنا – على ما بذلنا من جهد – تخريج القليل منها . ونظرا لطول فترة العمل فى التحقيق ، فقد ظهر كتاب « موسوعة أطراف الحديث النبوى الشريف » لأبى هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول (بيروت ١٤١٠ / ١٩٨٩) بعد أن كدنا نفرغ من عملنا ، فاستعنا به فى بعض النصوص (ورمزنا له بالحرفين « مط ») ، وخاصة تلك النصوص التى لم نكن قد عثرنا عليها فى مراجعنا السابقة

وحاولنا أن نقارن النصوص الشعرية الكثيرة الواردة فى الأصل بمظانها من الدواوين ، والمجموعات الشعرية ، وكتب الأدب المتعددة ، للتوثيق والإيضاح وخدمة للقارئ المعنى بذلك ، وإن تعذر علينا القيام بذلك فى القليل منها . وقمنا بجهد مماثل بالنسبة للنصوص التاريخية ، وبخاصة تلك التى تتصل بقصص الأنبياء السابقين وأممهم ، فقارناها بما فى المصادر الإسلامية وغيرها – وبخاصة العهدين القديم والجديد – على النحو الذى يلمسه القارئ المتخصص . كما

حاولنا أن نعرف بالأعلام الواردين فى النص - إلا ما اشتهر جداً - وفاتنا من ذلك القليل النادر .

ونظراً لأن النص الصوفى يلم بجوانب فلسفية - فضلا عن طابعه الدينى - فقد عنينا ، خدمة للقارئ المتخصص ، بمقارنته بالعديد من النصوص المماثلة والمشابهة فى مختلف المجالات الفكرية والروحية - كما ألمحنا فيما سبق ، مستفيدين فى ذلك بما نشر من نصوص ودراسات فى العربية والفارسية والتركية من اللغات الشرقية ، وفى الإنجليزية والفرنسية والألمانية من اللغات الغربية ، وربما كان الجهد المشترك لباحثين ، أحدهما عربى مصرى وهو شخصى الضعيف ، والآخر مستشرق أمريكى وهو الأستاذ الدكتور/ يوسف بل ، نموذجا للتعاون الجاد بين رجال البحث العلمى فى الشرق والغرب .

هذا ، وقد اضطررنا أحيانا ، لأسباب عملية ، أن نلجأ أثناء التحقيق أو إعداد المقدمة إلى استخدام أكثر من نشرة للمرجع الواحد ، فما كثر استخدامه حاولنا أن نثبت بياناته أولا فى قائمة المراجع ، ثم أوردنا ما قل استخدامه ، مع الإشارة فى الهوامش إلى مايعيِّن النشرة عند الضرورة .

ونظراً لقيامنا بترجمة الكتاب إلى الإنجليزية ، قبل دفع هذا العمل إلى المطبعة ، فقد أحلنا إلى تلك الترجمة فى بعض المواضع ، كما يلاحظ القارئ .

٤ - وقد حرصنا أن نمهد للنص بمقدمة عن المؤلف وأعماله ، وبخاصة كتاب « العطف » ، على النحو الذى سبق ، نظرا لعدم شهرته لدى القارئ العربى ، ولخلو النشرة السابقة من مثل هذا التمهيد ، الذى نأمل أن يعين القارئ فى مطالعة النص نفسه ، واستيعابه ، والاستمتاع به .

كما ألحقنا بالنص فهارس تفصيلية على النحو المعهود فى التحقيق ، راعينا فيها - عدا فهرس الموضوعات بطبيعة

الحال - أن نذكر أرقام صفحات الأصل المخطوط المثبتة على هوامش نشرتنا هذه ، نظرا لثباتها ، ولتيسير المقارنة بين نشرتنا هذه والترجمة الإنجليزية التي قمنا بها على من يرغب فى ذلك من القراء .

ولا يفوتنا أن نشكر من أعانونا على إخراج هذا النص الهام من العلماء والباحثين الذين لا نستطيع أن نحصيهم أو نوفيهم حقهم من الشكر ، وفى مقدمتهم :عبد الفتاح الحلو - رحمه الله ، ومحسن مهدى ، والسعيد بدوى ، وچان كلود فاديه ، وجون هنويك ، وجـ . فان إس ، وإميل كومرر ، وأنجليكيا هارتمان ، وفؤاد سزكين ، وحامد طاهر ، وعلى عشرى زايد ، وأحمد محمود إبراهيم ، وفلوريان صبيروى ، وريجيس مورلون ، والفقيد جورج شحاته قنواتى .

كما نتوجه بالشكر إلى أعضاء مجلس البحوث القومى بالنرويج ، ومركز البحوث الأمريكى بالقاهرة ، وجامعة ولاية نيويورك ، وجامعة برجن بالنرويج ، لإسهامهم فى تيسير إتمام هذا العمل ، بدعم رحلات الزميل الأمريكى المشارك فيه إلى القاهرة ، أثناء فترة النهوض به .

ونأمل أن يكون هذا النص - بإذن الله - فاتحة خير لسلسلة من النصوص فى الحب الإلهى ، نشرف بتقديمها للباحثين والمثقفين فى الشرق والغرب ، ومن حسن الطالع أن تكون الفاتحة أقدم نص عربى من نوعه فى أيدى الناس اليوم ، فلقد سبق الديلمى رجال - ممن ذكرنا وممن لم نذكر - بالتأليف فى « ظاهرة الحب » ووصلت إلينا أعمالهم ، لكنهم عنوا - كما أشرنا سلفا - بالجوانب الأدبية ، لا بالجوانب الميتافيزيقية والروحية والكونية ، وهذه الجوانب الأخيرة هى التى أفاض فيها الديلمى على نحو لم يسبق إليه فيما نعلم من نصوص الصدر الأول ، وإن كان قد تبعه كثيرون من الصوفية والفقهاء وخاصة من رجال

المذهبين الظاهرى والحنبلى الذين أفاضوا وأمتعوا ، وبرعوا وأبدعوا ، فى تناول هذه الظاهرة - كما بينت ذلك الدراسات الحديثة[1] - على غير ما قد يتوقع بعض المثقفين المعاصرين .

ولعل فى النص الذى بين أيدينا ،وما يمثله من تراث عريض فى الفكر الصوفى والثقافة الإسلامية،ما يحقق إحدى حاجات الإنسان من حيث هو إنسان ، وخاصة فى عصرنا الذى كادت تعصف فيه المادة وإيحاءاتها بحقيقة الحب بل بحقيقه الإنسان نفسه .

وبعد ، فقد « قال صاحب الكتاب : قد نشرت فى هذا الكتاب نكاتا وإشارات كثيرة - كرهنا تعدادها - لم نشرحها ولم نبن عنها ، وتركناها لمن بعدنا؛ رياضة لعقولهم وامتحانا لمعرفتهم ، فليطلبها طالب الحق بجهده ، فإنه يظفر بها على قدر حظه من المعرفه . وذكرنا فيه ألفاظا يحتاج فيها إلى شرح العبارة ، فأهملناها لمعنيين : أحدهما خوف التطويل ، والثانى رجاء منا أن يتولى شرحها من بعدنا من أعطى منها شيئاً إن أعطى .ونسأل الله التوفيق فى جميع أمورنا»[2] . ونحن لاندعى أننا من هؤلاء الذين كان يتوقع المؤلف أن سيأتوا من بعده ، ويضموا جهدهم إلى جهده ، بفهم إشارته وشرح عبارته ، وإن كنا قد بذلنا فى ذلك غاية جهدنا ، ولعلنا قد مهدنا سبيل القارئ الفطن ليظفر ،هو - على قدر جهده الخاص - بأسرار الخطاب ، والمضامين الحقيقية لهذا الكتاب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

حسن محمود عبد اللطيف الشافعى

عضو المجمع

(١) انظر مثلا :يوسف بل : نظرية الحب عند متأخرى الحنابلة ، وابن حزم طوق الحمامة تحقيق الطاهرمكى . ومصطفى عبد الواحد : دراسة الحب فى الأدب العربى، ودين محمد ميرا صاحب : الحب الإلهى فى التصوف ، بين الإسلام والنصرانية . ومحمد حسن عبد الله : الحب فى التراث العربى . ومحمد غنيمى هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية .

(١) العطف : ٣١ ص .

الجملة الاسمية بين الإطلاق والتقييد

رأى وتصنيف

للأستاذ الدكتور / محمد حماسة عبد اللطيف

مدخل:

يمكن القول بأن هناك نوعين من الجملة الاسمية ، النوع الأول الجملة الاسمية المطلقة والنوع الثانى هو الجملة الاسمية المقيدة .

والذى أعنيه بالجملة الاسمية المطلقة هو الجملة الاسمية التى لاتقييد فيها من أى نوع . والمقيِّد فى هذه الحالة هو « الناسخ » بأنواعه المختلفة. وقد اخترت هذه التسمية: «المطلقة» لتكون فى مقابل «المقيدة»؛ فقد قال النحاة من لدن سيبويه عن كان وأخواتها إنها لمجرد إفادة الزمن فى الجملة الاسمية ، فهى قيد يضاف إلى الجملة لم يكن موجودا من قبل ،ومثل كان وأخواتها أفعال المقاربة فهى جميعا «روابط وقيود للمسند وهو الخبر»[1] وقالوا أيضا إن «المسند فى باب كان هو الخبر و« كان » قيد له»[2] فكل جملة اسمية دخل عليها ناسخ من النواسخ «جملة مقيدة» سواء أكان هذا التقييد بإضافة الزمن إلى الجملة الاسمية أم بإضافة معنى آخر إليها لم يكن موجودا من قبل عن طريق عنصر لغوى جديد على العنصرين المكونين (المسند إليه - المسند) وتتمثل هذه المعانى المقيِّدة فى معانى المقاربة، والرجاء، والشروع والتوكيد، والتمنى، والاستدراك، والتشبيه والنفى. هذا المعنى الجديد الذى يضفيه الناسخ على الجملة الاسمية يستتبعه تأثيرإعرابى فيغير الحالة التى كانت عليها الجملة الاسمية قبل دخوله . فالجملة الاسمية المطلقة - إذن- هى الجملة الاسمية التى لم يَنْصَبّ على طرفيها معا ناسخ من النواسخ أى أطلقت من قيد الناسخ بما يقيدها به من معنى .

فجملة مثل «الله غفور رحيم» جملة مطلقة ، وإذا قلنا «كان الله غفوراً رحيما» أو «إن الله غفور رحيم» فإنها تصبح جملة اسمية مقيدة ؛ لأن كلا من الناسخين المقيدين «كان» و«إن» قد انصب على المبتدأ والخبر معا ، أما إذا كان فى الخبر وحده نوع من التقييد - بهذا المعنى- كما

(١) انظر حاشية الخضرى على ابن عقيل ١ / ١٥٦
(٢) حاشية الصبان على الأشمونى ٢/ ٢٣٥

إذا قلنا مثلا : «محمد كان صادقًا أمينًا» فإن هذه الجملة ليست جملة اسمية مقيدة بل مطلقة ؛ لأن انصباب «كان» هنا ليس على المبتدأ بل على ضميره ، والجملة على هذا النحو مكونة من (مبتدأ وجملة اسمية مقيدة هي الخبر) ، والإسناد في «كان صادقا أمينا» ليس إسنادا أصليا ولكنه إسناد فرعي ، ومعنى هذا أن الجملة الاسمية لا تعد جملة اسمية مقيدة إلا إذا كان الناسخ منصبا بتأثيره الإعرابي على كل من المبتدأ (لاعلى ضميره) والخبر معا ، أو بعبارة أخرى على طرفي الإسناد الأصلي في الجملة الاسمية .

وتتمثل دراسة الجملة الاسمية المطلقة في بيان أنواعها ، ومعرفة مكونات كل نوع أو أجزائه ، والتعريف بكل مكوّن أو جزء وخصائصه ، والربط بين هذه الأجزاء ومعرفة وسائل هذا الربط ، والتطابق بين هذه الأجزاء ، والترتيب بينها ، ومدى حرية هذا الترتيب أو التزامه ، ويمكن تصنيف الجملة الاسمية المطلقة في ثلاثة أنواع :

الأول - الجملة الاسمية التامة .

الثاني - الجملة الاسمية المجزوءة .

الثالث - جملة الوصف مع مرفوعه .

١ - الجملة الاسمية التامة :

هناك فكرة أساسية في نظرة النحاة العرب إلى الجملة وهي أنه لابد من وجود «الإسناد» بطرفيه . وطرفاه في الجملة الاسمية هما (المبتدأ والخبر) . ولابد أن يراعى هذان الطرفان في اعتبار الجملة مراعاة كبيرة ، فإذا كانا مذكورين فإن الجملة حينئذ قد اكتمل لها عنصراها ، وإذا ذكر أحدهما دون الآخر فإن العنصر الثاني لابد أن يكون في الحسبان ، ولا يمكن اعتبار أحدهما فحسب جملة مستقلة ، مع إفادته معنى يحسن السكوت عليه ، في نظر كثير من النحاة ، وذلك لأن الإسناد في تعريفهم «رابطة» بين شيئين ، أو «حكم» بأحد الطرفين على الآخر[1]، أو «تعليق خبر بمخبر عنه»[2] في الجملة الاسمية .

والذي أعنيه بالجملة الاسمية التامة هو الجملة التي اكتمل لها عنصراها ، وتحقق فيها الإسناد بطرفيه (المبتدأ والخبر) ،

---

(١) انظر : الرضي ١/٨ (٢) السيوطي : همع الهوامع ١/٥ (٣) الفتح ، الآية ٢٩ (٤) الفتح : الآية ٩٠
(٥) آل عمران ، الآية : ١٣٩ (٦) يوسف ، الآية ٩٠ (٧) لقمان ، الآية ١١ (٨) الجاثية ، الآية : ٢٩
(٩) الفاتحة ، الاية ٢ (١٠) الفرقان ، الآية ٢٤ (١١) البقرة ، الآية ٢٢٦ (١٢) لقمان ، الآية : ١٢ .

وكان المبتدأ فيها من أسماء الأعلام مثل «محمدٌ رسولُ الله»[1] أو الأسماء الموصولة مثل «والذين معه أشداَّء على الكفارِ رُحَماء بينهم»[2] أو الضمائر المنفصلة للرفع مثل «وأنتم الأعلَونَ»[3] و « أنا يوسف»[4] أو أسماء الإشارة مثل « هذا خلق الله »[5] و« هذا كتابنا »[6] أو المعرف بالأداة مثل « الحمدُ لله »[7] أو بالإضافة مثل «أصحابُ الجنة يومئذ خيرٌ مستقرا»[8] أو من النكرات المخصصة مثل «ولَعَبدٌ مؤمنٌ خيرٌ من مشرك ولو أعجبكم»[9] أو العامة مثل «ومَنْ يشكُرْ فإنما يشكرُ لنفسه.، ومن كفر فإن اللهَ غنيٌّ حميدٌ»[10] ويمكن تحديد الجملة الاسمية التامة بعبارة أكثر اختصارا فيقال : «هي ما لم يكن المبتدأ فيها وصفا رافعا لما يكتفى به ، ولم يجب حذف أحد طرفيها ، وتطابق فيها الجزآن . فقد اشتُرِط في هذا التحديد ثلاثة شروط :

الأول :

ألا يكون المبتدأ وصفا رافعا لما يكتفى به فإذا كان كذلك فهذا ما سوف يُتناول تحت عنوان جملة الوصف مع مرفوعه .

الثاني : ألا يكون أحد جزأيها واجب الحذف ، فإذا كان كذلك فهذا ما سوف يتناول تحت عنوان الجملة الاسمية المجزوءة . أما إذا كان أحد الجزأين محذوفا لدواع اقتضاها الموقف اللغوى فى التعبير – وهو ما يسمى بالحذف الجائز – فهذا داخل فى النوع الذى نتناوله هنا وهو الجملة الاسمية التامة ، فالحذف الجائز لأحد عنصرى الجملة الاسمية لا يغير نوعها فهى ماتزال تامة لأن العنصر الآخر مفهوم من السياق وذلك كما فى قوله تعالى : «قال فرعون : وما ربُّ العالمين. قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما»[11] فالإجابة تضمنت الخبر فقط «ربُّ السموات» ، وحذف المبتدأ لأنه مفهوم من سياق الكلام وتقديره «هو» يعود على «رب العالمين» ، وهذا الحذف ليس لازماً ، لأنه قد يذكر هذا المحذوف فى مواقف مماثلة كما فى قوله تعالى :«وما تلك بيمينك ياموسى.قال : هى عصاى»[12].

وفى قوله تعالى : « قال : فمن ربكما ياموسى. قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى»[13] .

---

(1) الفتح ، الآية ٢٩ (٢) الفتح : الآية ٢٩

(٣) آل عمران ، الآية : ١٣٩ (٤) يوسف ، الآية ٩٠ (٥) لقمان ، الآية ١١ (٦) الجاثية ، الآية : ٢٩

(٧) الفاتحة ، الآية ٢ (٨) الفرقان ، الآية ٢٤ (٩) البقرة ، الآية ٢٢٦ (١٠) لقمان ، الآية : ١٢ .

(١١) الشعراء : الآية ٢٣ ، ٢٤ (١٢) طه ، الآية ١٧ ، ١٨ (١٣) طه ، الآية ٤٩، ٥٠

والإجابة هنا تضمنت المبتدأ والخبر معا، ولم يشأ أن يحذف أحد العنصرين وهو هنا «المبتدأ» لأن الموقف هنا يقتضى ذكر الطرفين معا استلذاذا للحديث مع الذات العلية فى الآية الأولى «هى عصاى» ومحاولة للإطالة فى الكلام ، وكان من الممكن فى الإجابة أن يقول «عصاى أتوكأ عليها» وأما الجملة الثانية «ربنا الذى أعطى كل شى خلقه ثم هدَى» فإن الموقف هنا اقتضى ذكر المبتدأ (ربنا) ، وكان من الممكن حذفه اعتماداً على السياق ، لكن موسى - حسب التعبير القرآنى - أراد أن يؤكد هذا المعنى عن طريق حصر إعطاء كل شئ خلقه وهداه فى (ربنا) ليبطل دعوى فرعون المزعومة بربوبيته هو دون سواه ، وقد أراد أيضا أن يكشف لفرعون عن اعتزازه الشديد بإضافة (رب) إليه هو وأخيه وقد التقط هذا من قول فرعون المنكر المستهزئ «فمن ربكما» حيث يبين أنه يؤمن بما ينكره ويوقن بذلك يقينا لا ينازعه فيه شئ من الشك . هذه الجمل التي يذكر أحد طرفيها المبتدأ أو الخبر ، ويكون الطرف الآخر مفهوما من السياق ، ويكون المتكلم مختارا بين ذكره أو حذفه حسبما يحدده الموقف وتمليه ملابساته - هذه الجمل تعد من الجمل الاسمية التامة .

الثالث :

أن يتطابق الجزآن فى العدد (الإفراد والتثنية والجمع) والنوع (التذكير والتأنيث) فإذا قلت مثلا :

«محمدٌ ناجح» فهذه جملة اسمية تامة سواء تقدم «محمد» أم تأخر . فإذا قلت «ناجحٌ محمدٌ» فكلمة «محمدٌ» مبتدأ مؤخر، وكلمة «ناجح» خبر مقدم سواء سبقت بنفى أو استفهام أم لم تسبق بواحد منهما ، وهذا هو تحليل الكوفيين والزمخشرى وابن الحاجب لمثل هذا التركيب الذى يكون فيه كل من المبتدأ والوصف (الاسم المشتق) مفرداً وتقدم فيه الوصف ؛ ولهذا أوجبوا فى قوله تعالى « أراغبٌ أنت عن آلهتى ياإبراهيم»[1] أن يكون محمولا على التقديم والتأخير.[2]

(١) مريم ، الآية ٤٦ .

(٢) انظر : شرح شذور الذهب لابن هشام ١٨٢ . وقد أعرب هذه الآية على أنها مبتدأ وفاعل سد مسد الخبر كل من ابن الأنبارى (البيان فى غريب إعراب القرآن ٢/١٢٧) والعكبرى (إملاء ما من به الرحمن ٢/١١٤ ، ١١٥) ومكى بن أبى طالب القيسى (مشكل إعراب القرآن ٤٥٦). وهو اتجاه البصريين الذين يجيزون هذا الوجه (مبتدأ + فاعل سد مسد الخبر) والوجه الآخر (مبتدأ مؤخر وخبر مقدم) فى حالة إفراد كل منهما واعتماده على نفى أو استفهام .

ويقول الزمخشرى عن هذه الآية «وقدم الخبر على المبتدأ فى قوله (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم) ؛ لأنه كان أهم عنده، وهو عنده أعنى ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته ، وأن آلهته ما ينبغى أن يرغب عنها أحد وفى هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمّا كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه»(١).

ولكن أبا حيان يبين أن المختار فى إعراب «أراغب أنت» أن يكون «راغب» مبتدأ ، لأنه قد اعتمد على أداة الاستفهام و«أنت» فاعل سد مسد الخبر ، ويقول فى ترجيح هذا الإعراب : «ويترجح هذا الإعراب على ما أعربه الزمخشرى من كون «أراغب» خبرًا و«أنت» مبتدأ بوجهين :

أحدهما : أنه لا يكون فيه تقديم ولاتأخير،إذ رتبة الخبر أن يتأخر عن المبتدأ.

والثانى : أن لا يكون فصل بين العامل الذى هو «راغب» وبين معموله الذى هو «عن آلهتى» بما ليس بمعمول للعامل ، لأن الخبر ليس هو عاملا فى المبتدأ بخلاف كون «أنت» فاعلا فإنه معمول (أراغب) فلم يفصل بين (أراغب) وبين « عن آلهتى» بأجنبى ، إنما فصل بمعمول له»(٢).

إذن أمامنا اتجاهان فى إعراب مثل هذا التركيب ، ومن الواضح أن اتجاه الزمخشرى- ومعه الكوفيون وابن الحاجب- قائم على فهم النص فى سياقه وملابساته ويرتب عليه معنى لطيفا يدرَك من خلال تركيبه ، ولذلك أميل إلى هذا الاتجاه وأدعو إلى تعميمه فى كل نظائره فكل وصف مفرد بعده اسم مفرد يكون الوصف فيه خبرا مقدما والاسم التالى له مبتدأ مؤخرا .

وأما الترجيح الذى قدمه أبو حيان لإعراب هذه الآية على النحو الذى أعربها به ، فإنه ترجيح قائم على أساس قواعد وضعها النحاة أنفسهم ، وهى غير مسلمة عند الجميع ، وأبو حيان لا يراعى فى ترجيحه إلا هذه القواعد فحسب دون النظر إلى النكتة اللطيفة التى يتضمنها

---

(١) الزمخشرى ، الكشاف ٣/ ٤١٣

(٢) أبو حيان ، البحر المحيط ٦/ ١٩٥ وانظر له أيضا : النهر الماد بهامش البحر المحيط ٦/ ١٩٢ وانظر أيضا بهامشه الدر اللقيط لتاج الدين الحنفى ٦/ ١٩٤.

توجيه الزمخشرى الذى نظر للآية نظرة بلاغية يقتضيها سياق الآية وملابسات الموقف .

وما أسميه هنا بالجملة الاسمية التامة يسميه النحاة بالمبتدأ الذى له خبر. والجملة الاسمية التامة تفترق عن غيرها فى أمور :

أولها- أن المبتدأ فيها - وهوالمسند إليه- يكون اسما صريحا نحو «الله ربنا» و«محمد نبينا» ومؤولا بالاسم الصريح نحو «وأن تصوموا خير لكم»[1] أى «وصيامكم خير لكم» فـ (أن تصوموا) مؤول بـ«صيامكم».

ثانيها- أن المبتدأ فى الجملة الاسمية التامة لا يحتاج إلى شئ يعتمد عليه ، وأما الوصف مع مرفوعه فلابد أن يعتمد على نفى أواستفهام.[2] فى رأى كثرة النحاة.

ثالثها - أن الجملة الاسمية التامة يجوز أن تدخل عليها النواسخ المختلفة ، على خلاف جملة الوصف مع مرفوعه التى لاتقبل من النواسخ إلا ما يفيد النفى[3] فحسب بخلاف الجملة الاسمية المجزوءة التى لا تقبل النواسخ مطلقا[4].

رابعها- أن الجملة الاسمية التامة يجوز فيها أن يتقدم الخبر على المبتدأ إلا إذا طرأ على التركيب ما يمنع ذلك ، على خلاف جملة الوصف مع مرفوعه .

وتتألف الجملة الاسمية التامة من المبتدأ والخبر . والمبتدأ لابد أن يكون اسما صريحا أو مؤولا بالاسم . وأما الخبر فلابد أن يكون واحدا مما يأتى :

١ - الوصف : والمقصود به اسم الفاعل أو اسم المفعول أو الصفة المشبهة أو صيغة المبالغة أو اسم التفضيل ، وبعبارة أكثر اختصارا يقال إن الوصف هو ما أخذ من الفعل للدلالة على حدث وصاحبه . فكلمة (كاتب) مثلا تدل على أمرين : الكتابة ، والذات التى اتصفت بها ،

---

(١) البقرة ، الآية ١٨٤ (٢) انظر شرح شذور الذهب لابن هشام ١٨٠ (٣) انظر شرح الكافية للرضى ٢/٢٩٧

(٤) انظر شرح الكافية ١/٨٧٠ والأخفش والفراء يجيزان : إن قائما الزيدان . والكوفيون يجيزون هذه ويجيزون أيضا : ظننت قائما الزيدان . وكلاهما بعيد عن القياس على حد تعبير الرضى .

وكلمة (مضروب)- وهى اسم مفعول- تدل أيضا على شيئين : الضرب - وهو الحدث- والشخص أو الذات التى اتصفت بوقوع الضرب عليها ، وهكذا كل مشتق من الفعل على هذ النحو . والإخبار بالوصف هو الأكثر .

٢ - الاسم الذى فى قوة الوصف - على حد تعبير النحاة- وهو الاسم الذى يؤدى ما يؤديه الوصف ، أى ينقل إلى الوصفية ، وذلك كقولك : « محمدٌ أسدٌ » فـ (أسد) اسم جامد ولكن معناه هنا «شجاع» ، وإذا قلت «هذا زيد» فـ«زيد» هنا اسم جامد ، ولكن معناه «صاحب هذا الاسم» وإذا قلت «محمد ذو خلق» فـ (ذو) اسم جامد ولكن معناه «صاحب خلق» وهكذا .

٣ - الجملة ، سواء أكانت جملة اسمية أم فعلية .

٤ - شبه الجملة (الظرف والجار والمجرور) .

والمبتدأ - إذا كان معربا - لابد أن يكون مرفوعا بعلامة الرفع المعروفة له (الضمة) إذا لم يكن مما يرفع بغيرها ، أو (الواو) أو (الألف)، وتقدر عليه الضمة فى المواضع الآتية :

١ - إذا كان المبتدأ مفردا مضافا إلى ياء المتكلم مثل «ربّى أكرمَنِ»(١) .

٢ - إذا كان المبتدأ اسما مقصوراً مثل : « الهُدَى هُدَى الله».

٣ - إذا كان المبتدأ اسما منقوصا مثل : « القاضِى عادلٌ».

٤ - إذا كان مصدرا مؤولا مثل «وأنْ تَصُومُوا خيرٌ لكم»(٢) .

٥ - إذا كان اسما منقولا عن جملة مثل : «تأبَّطَ شرًا شاعرٌ قديِمٌ».

٦- إذا كان المبتدأ مجرورا بحرف الجر الزائد مثل قولهم «بِحَسْبِكَ دِرْهَمٌ».

ولست أرى رأى من يقول - كابن خالويه - إن المضاف إلى ياء المتكلم لا علامة فيه لأن الياء تذهب بالعلامة ، ولا رأى من يقول إن الاسم المنقوص والمقصور لا علامة فيه ، ولا رأى من يقول إن المضاف إلى ياء المتكلم مبنى(٣)؛ لأن كل وظيفة نحوية لابد لها من علامة إعرابية تخصها وتعرف بها ، ولأن كل اسم من

(١) الفجر ، الآية ١٥ (٢) البقرة ، الآية ١٨٤ .

(٣) أنظر إعراب ثلاثين سرة لابن خالويه : ٧٩ ، وشرح الرضى للكافية١/ ٣٥ . ولست أميل مع الرضى إلى أن المضاف إلى ياء المتكلم مبنى لأن مسلك العربية مع المبنيّات أنّها لاتضاف ، ولكن هذا مضاف إلى ياء المتكلم يمكن وصفه .

هذه إذا أتبع باسم آخر تظهر عليه العلامة الإعرابية كان مرفوعا ، فليست العلامة فى الحقيقة للاسم من حيث هو اسم ولكنها للموقع الذى يكون فيه ، ولهذا السبب نفسه يكون المبتدأ ، إذا كان اسما مبنيا ، فى محل رفع . وبذلك يكون المصطلح «مبتدأ» ملخصا لأمورة كثيرة منها الرفع ، والرتبة لأن المبتدأ لايكون إلا مرفوعا مقدما إلا إذا طرأ على التركيب ما يستدعى تأخيره ، ومنها الصيغة لأن المبتدأ لايكون إلا اسما أو مافى تأويله ، ومنها التعيين (التعريف والتنكير) لأن المبتدأ لا يكون إلا معرفة أو مافى حكمها وهو النكرة المخصصة .

وما ينطبق على المبتدأ من حيث العلامة الإعرابية ينطبق أيضا على الخبر غير أن الخبر يفترق عن المبتدأ فى أنه من الممكن أن يكون جملة فتكون فى محل رفع ، أو شبه جملة فتكون بحسب متعلقها على التفصيل الذى تورده كتب النحو .

٢ - الجملة الاسمية المجزوءة :

لم يتناول النحاة هذا النوع من الجمل على الوجه الذى أحب أن أتناولها به ، ولكنهم - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - لا يقرون بوجود الجملة إلا إذا كان هناك إسناد بطرفيه (المبتدأ والخبر) ، وهناك بعض التراكيب لم يكتمل لها هذان الطرفان ، بل وجد طرف واحد فقط ولم يمكن فى التعبير المستعمل أن يظهر الطرف الآخر مطلقا ، ومع ذلك نجد كثيرا من النحاة لا يعترف بهذا ، ويصر على اعتبار طرف آخر ، ويرى أنه محذوف «وجوبا» ومعنى الحذف الواجب أنه لا يمكن أن يظهر على الإطلاق بل إن ظهوره فى بعض هذه التراكيب قد يخل بالمعنى المقصود ويذهب به .

ونحن لا نعيب على نحاتنا هذا المسلك، فهم قد أرادوا الاطراد لنظامهم الذى وضعوه لتحليل اللغة وفهم تراكيبها، وقد يكونون فى كثير مما ذهبوا إليه على حق ، ولكننا نسمح لأنفسنا أيضا أن نعيد النظر فيما قدموا إلينا ، وبطبيعة الحال لن نغير اللغة نفسها ، فليس هذا فى وسع أحد ، ولكن الذى نود تغييره بعض هذه النظرات الخاصة بتحليل بعض التراكيب،

وليست مخالفتهم في ذلك خروجا أومروقا على إجماعهم يوجب العذل واللوم ، وإجماعهم لا يلزم أحدًا باتباعهم فإن «إجماع النحويين ليس بحجة على من خالفهم»[1] كما يقول ابن مضاء ، وقد قال أبو الفتح ابن جنى من قبله « اعلم أن إجماع أهل البلدين (يعنى أهل البصرة وأهل الكوفة) إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده ألا يخالف المنصوص والمقيس على المنصوص ، فأما إن لم يعط يده بذلك فلا يكون إجماعهم حجة عليه ، وذلك أنه لم يرد ممن يُطاع أمره في قرآن ولا سنة أنهم لا يجتمعون على الخطأ ، كما جاء النص عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قوله : « أمتى لاتجتمع على ضلالة» وإنما هو علم منتزع من استقراء هذه اللغة ، فكل من فُرِقَ له عن علةٍ صحيحة وطريقٍ نَهْجَةٍ كان خليلَ نفسه وأبا عمرو فكره»[2].

إننا نرى أن المعوّل كله على إفادة المعنى، فإذا كان التركيب مفيدا لمعنى يحسن السكوت عليه، فلا داعى لتكلف البحث عن طرفى الإسناد ، ومعنى هذا أننا ننظر إلى هذه التراكيب على أنها جمل مفيدة، وإن لم يتحقق لها اكتمال طرفى الإسناد . إذن مانعنيه بالجمل الاسمية المجزوءة هو الجمل التى أفادت معنى يحسن السكوت عليه من غير أن يكون موجودا فى التركيب إلا اسم واحد مرفوع ، وقد تناولها النحاة من قبل على أن بعضها قد حذف منه الخبر، وبعضها الآخر قد حذف منه المبتدأ ،وسوف أعرضها أولا كما عرضها النحاة ثم أعقب عليها بما أرتئيه فيها من رأى :

يقول النحاة : يجب حذف الخبر وجوبا فى أربعة مواضع هى على النحو الآتى :

١- إذا وقع المبتدأ بعد «لولا» الامتناعية وكان الخبر كونا عاما مثل«لولا أنتم لكنا مؤمنين»[2].

٢ - إذا كان المبتدأ نصا فى اليمين مثل « لعمرُك إنهم لفى سكرتهم يعمهون»[3].

٣ - إذا وقع بعد المبتدأ واو هى نصٌ فى العطف والمعية مثل «كلُّ رجلٍ وضيعتُه».

٤ - إذا كان المبتدأ مصدرا أو اسم تفضيل مضافا إلى مصدر بعده حال تسد

(١) الرد على النحاة لابن مضاء : ٧٤ (ط دار الاعتصام) .
(٢) الخصائص لابن جنى ١٨٩/١ ، ١٩٠ (ط دار الكتب) .
(٣) سورة سبأ ، الآية ٣١ . (٤) سورة الحجر ، الآية ٧٢ .

مسـد الخبرولا تصلح أن تكون هى الخـبر مثل «ضربى العبد مسيئًا »، و« أكثُر ضربى العبد مسيئا»

كـما يجب حـذف المبتدأ فى مـواضع هى:

١ - إذا كان الخـبر نعتا مـقطوعا للرفع مـثل « أعـوذ بالله من الشـيطانِ الرجـيمُ» برفع الرجيم .

٢ - إذا كـان الخبر مخصوصا بالمـدح أو بالذم مثل « نعم الرجل أبو بكر ».

٣ - إذا كان الخـبر صريحـا فى القسم مثل « فى ذمتى لأحجن إلى بيت الله » .

٤ - إذا كان الخـبر مصـدرا نائبا مناب فعله مثل « فصبرٌ جميلٌ » [1] .

بعـد عـرض هذه المواضع على الوجـه الذى قرره النحـاة - أود أن أعرض ما أراه فى عـلاج هذه التراكـيب المختلفـة ، ولن أبعد - فى الوقت نفسـه - عما يراه بعض النحاة ، وسـيُرى أننى أهتـدى ببعض هذه الآراء ، وأوّل ما أراه فى ذلك أن ما يسمى بالنعت المقطوع للرفع ينبغى أن نخرجه من إطار الجملة المجزوءة ، لأن هذا لا يعدو أن يكون مـخالفة فـى الإعراب أو ترخصا فـيـه من أجل إثارة الانتـبـاه ولفت النظر للسامـع بوسيلة صوتـية لعلها تـصدم أذنه ومألوفه اللغوى فيلتفت إلى ما يقال بهدف تأكيد هذه الصـفة ، وذلك أن قطع النعت مخالـفته للمنعوت بالرفع إن كـان المنعوت منصـوبا أو مجـرورا ، وبالنصب إن كـان المنعوت مـجرورا أو مرفوعـا ، ولا يخرج فى الوقت نفسه عن كونه «نعتا» فإذا قلنا : «رأيت مـحـمّـدا العـاقلُ» ونطـقنا كلمـة «العاقل» مرفـوعة فإن النحاة -كـما سبق- لايرضيـهم أن تكون هذه الكلمة مرفـوعة دون أن تكون فى وظيـفة نحـوية تستـحق الرفع ولذلك قالوا إنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هو» وهذه لا يمكن أن تظهر على الإطلاق، وما قالوه هنا يتفق فى غايته مع مـا نراه من إرادة توكيـد صـفة العـقل فى الجـملة السالفـة ولكن عن طريق افتـراض جملة تؤكد هذه الـصفة . وأرى أنه يكفى فى إعراب هذه الكلمة «العاقل» بالرفع هى وأمثـالها أن نقول إنهـا نعت مقطوع للرفع فـحـسـب دون أن نتكلف القـول بأن هناك مبتدأ محـذوف وجوبا ، ففى هذا تعويص

(١) سورة يوسف ، الآية ١٨

للمسائل، وهنا يجب أن نقول فى تحليل النعت إنه يتبع منعوته ، وقد يرفع وقد ينصب لإرادة تأكيد الصفة المذكورة فهناك نعت مقطوع للرفع ، ونعت مقطوع للنصب .

ويجب أن نُخرج من إطار الجملة المجزوءة كذلك ما أورده النحاة فى حذف الخبر وجوبا فى أسلوب القسم مثل «لعمرُك لأفعلنّ» وما أوردوه فى حذف المبتدأ وجوبا كذلك مثل «فى ذمتى لأفعلنّ» لأنى أرى أن أسلوب القسم يجب أن يعالج منفصلا تحت نوع خاص من الجمل يسمى بالأساليب الخاصة ، وكذلك أسلوب المدح والذم لأن هذه تراكيب خاصة تلزم طريقا واحدا فى التعبير .

وفى تحليل أسلوب «لعمرك» .... يكفى أن نقول إن اللام للقسم وعمرك مقسم به مرفوع والكاف فى محل جر ، وبعد ذلك تعرب جملة جواب القسم ، ولاداعى لأن نتكلف خبرا محذوفا وجوبا ، لأن الذى دفع نحاتنا القدماء إلى تكلف هذا أنهم لم يعترفوا بوجود مايسمى بالجملة المجزوءة .

وأما أسلوب «فى ذمتى لأجتهدن» مثلا فلا أرى بأسا على الإطلاق - برغم أن النحاة يمنعون هذا - من أن يكون الجار والمجرور «فى ذمتى» بغير متعلق ، لإفادة القسم ، ثم هى بعد ذلك عبارات محدودة جدا .

وأما أسلوب المدح والذم فإن النحاة لا يدخلونه فى الجملة الاسمية المحذوف أحد طرفيها وجوبا - وهو المبتدأ - إلا إذا كان المخصوص بالمدح أو بالذم مؤخرا مثل «نعم الخلق الصدق» و«بئس الخلق الكذبُ» وكذلك «نعم خلقا الصدقُ» و«بئسَ خلقا الكذبُ» فإن كلاً من «الصدق» و«الكذب» تعربان إما مبتدأ والجملة قبله فى محل رفع خبر مقدم ، وعلى هذ الوجه لا حذف فى التركيب ، والتركيب بهذا الاعتبار جملة اسمية تامة ، وإما أن يعربا خبرا لمبتدأ محذوف تقديره «هو» وهو محذوف وجوبا فى رأيهم .

وقبل تحليل هذا الأسلوب على الوجه الذى نرتضيه أشير إلى أنه كثيرا ما تكتفى أداة المدح (نعم) أو الذم (بئس) أو (ساء) بالاسم المرفوع بعدها أو بالتمييز وهذا هو الاستعمال القرآنى فقد وردت هاتان الجملتان فى القرآن الكريم إحدى وثمانين مرة[1] موزعة على «نعم» و «بئس»

(١) يمكن مراجعة هذه الآيات فى سورها مستعينا بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم فى مواد نعم وبئس وساء ص ٧٠٩ ، ١١٣ ، ٣٦٧ .

و«ساء» ولم يرد من جميع هذه الجمل إلا أربع جمل فقط بها ما يسمى بالمخصوص بالذم ، وهذه الجمل هى «بئس الوردُ المورودُ»[١] و«بئس الرِّفْدُ المرفودُ»[٢] و«بئس الاسْمُ الفسوقُ بعدَ الإيمان»[٣] و«ساء مثلا القومُ الذين كذبوا بآياتنا»[٤].

وأود أن أشير أيضا إلى أنه عندما يكون المخصوص بالمدح أو بالذم مقدما ويعرب مبتدأ لا تكون جملة الخبر محتاجة إلى رابط يربطها بالمبتدأ من تلك الروابط اللفظية لوجود العموم فيه الذى يندرج تحته المبتدأ ، فكأن المبتدأ قد تكرر بنفسه ، يقول سيبويه «وأعلم أنه محال أن تقول : عبد الله نعم الرجل ، والرجل غير عبد الله ، كما أنه محال أن تقول : عبد الله هو فيها ، وهو غيره»[٥] فتطابق المخصوص بالمدح أو بالذم مع الاسم المرفوع بعد أداة المدح أو الذم كتطابق الاسم مع ضميره عند سيبويه ، وعند المبرد أيضا[٦].

وعندما يكون المخصوص بالمدح أو الذم مقدما لا يختلف النحاة فى إعرابه مبتدأ خبره الجملة بعده ، ولكنهم يختلفون عندما يؤخر ، فمنهم من يعربه مبتدأ ، ومنهم من يعربه خبرا لمبتدأ محذوف وجوبا ، ومنهم من يعربه بدلا من فاعل نعم أو بئس ، ومنهم من يعربه مبتدأ خبره محذوف وجوبا[٧]. وهذا الاختلاف بطبيعة الحال يشير إلى الاضطراب فى تفسير هذا التركيب وتحليله .

والذى نخلص إليه من كل هذا أننا لا نرى فعلية كل من نعم وبئس وما يؤدى معنى المدح أو الذم مثلهما ، بل هى أدوات لإفادة المدح أو الذم ، وكل أداة من هذه الأدوات تضام اسما مرفوعا ولا يليها إلا إذا كان معرفا بال أو مضافا إلى ما هو معرف بأداة التعريف (ال) مثل : «نعم الخلقُ الصدقُ» أو «نعم خلقُ المؤمنِ الصدقُ» ويكون تحليل هذه الجملة على الوجة الآتى :

نعم : أداة مدح .

الخلق : ضميمة أداة المدح ، مرفوع .

الصدق : بدل من (الخلق) .

وقد رأى هذا الرأى من قبل ابن كيسان إذ ذهب إلى أن المخصوص بالمدح فى حالة تأخيره يعرب بدلا من المرفوع قبله ، وكذلك أبو على الفارسى وابن السراج

---

(١) سورة هود آية ٩٨ (٢) سورة هود آية ٩٩ (٣) سورة الحجرات آية ١١ .
(٤) سورة الأعراف آية ١٧٧ (٥) كتاب سيبويه ٢/١٧٧ (٦) انظر المقتضب ٢/١٤٩.
(٧) انظر هذا الخلاف فى الأشمونى ٣/٣٧ وانظر خلافات أخرى فى صفحة ٣٣ من الجزء نفسه وانظر الهمع ٢/٨٧ .

وأشار الأشمونى إلى أن ابن مالك يجيز هذا فى شرح التسهيل .

وقد أُخِذ على هذا الرأى أمران :

أولهما : أن هذا المخصوص لازم وليس البدل بلازم بل قد يؤتى به أو لا يؤتى به.

ثانيهما : أن هذا المخصوص لا يصلح لمباشرة أداة المدح فى كثير من أمثلته فإذا قلت : نعم الرجل محمد فلا يمكنك أن تقول : « نعم محمدٌ » .

ونقل السيوطى الرد على الاعتراض الثانى وهو أنه يجوز أن يقع بدلا ما لايجوز أن يلى العامل بدليل «إنَّك أنت»[1] حيث تعرب «أنت» بدلا من الكاف ولا يصح أن يقال «إنَّ أنت» .

وقد نقل الصبان ردا على الاعتراض الأول فقال : قد يقال لا مانع من كونه لازما لكونه مقصوراً ، وكونُه تابعا لايقدح فى 'للزوم كتابع مجرور(رب)[2].

وقد تُسبق ضميمة أداة المدح أو الذم باسم نكرة يعرب تمييزا مثل : « نعم رجلاً محمدٌ » ويكون تحليل هذه الجملة على الوجه الآتى :

نعم : أداة مدح .

رجلا : تمييز منصوب .

محمد : ضميمة أداة المدح ، مرفوع .

ويؤيد إعراب (محمد) ضميمة لأداة المدح (نعم) أن الكسائى والفراء يذهبان إلى أن (محمد) فى مثل هذا التركيب تعرب فاعلا لـ (نعم) ، ولكننا لا نرى فعلية نعم وبئس ولذلك فليس لها فاعل ، ولكنها أداة تحتاج الى ضميمة معينة ، وقد تحذف الضميمة المرفوعة ويكتفى بذكر التمييز المنصوب فى التركيب الأخير .

بعد هذا يبقى من المواضع الثمانية التى عولجت فى النحو القديم على أنها جمل اسمية تامة حذف أحد جزأيها أربعة مواضع فحسب هى التى نعدها من الجمل الاسمية المجزوءة وهى كل تركيب أفاد معنى يحسن السكوت عليه من غير أن يتحقق فيه ركنا الإسناد .

إن الإيمان بالشكل اللغوى سوف يغنينا عن كثير من الخلافات والتعسف وتكلف التأويل ، فعندما نعتد بالجملة المجزوءة قسما من أقسام الجملة نجد أنفسنا فى غير حاجة إلى كثير من التأويلات البعيدة التى يرفضها الواقع اللغوى ، وبذلك نطبق ما نراه من أن الجملة الاسمية المطلقة خالية من نظرية العامل .

---

(١) انظر الهمع ٢/ ٨٧

(٢)حاشية الصبان ٣/ ٣٧

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن بعض النحاة القدماء يعترفون بالمبتدأ الذى لاخبر له ، وفى الوقت نفسه لا يجيزون حذف الخبر وجوبا إلا إذا كان هناك فى التركيب ما يسد مسده ، ففى حالة الاسم المرفوع المعطوف عليه اسم آخر بواو تفيد معنى (مع) ذهب الأخفش والكوفيون وابن خروف وابن عصفور إلى أنه كلام تام لا يحتاج إلى تقدير مثل «كلُّ رجلٍ وَضيْعَتُه» وفى مثل «حَسْبُك ينم الناس» قيل عن حسبك: هو مبتدأ لا خبر له لأنه بمعنى « اكفف » واختاره ابن طاهر[1] وقد ذهب الفراء إلى أن الاسم الواقع بعد « لولا» ليس مبتدأ بل مرفوع بها لاستغنائه بها كما يرتفع الفاعل بالفعل[2] .

فهذه إشارات نجد فيها سندا لدعوى وجود ما يسمى بالجملة المجزوءة ويقول المرحوم إبراهيم مصطفى «والذى عَوصَ الأمر على النحاة ما قرروه من أن كل جملة يجب أن تشمل مبتدأ وخبرا أو فعلا وفاعلا ولم يعرفوا الجملة الناقصة»[3] .

وينبغى أن نعيد النظر فى تحليل ما نسميه الجملة المجزوءة ، ولا بأس أن نضع مصطلحات خاصة تعين على تخلص هذه الجمل المجزوءة مما ألصقت به وحسبت عليه من قبل ، ولن نطلق على الاسم المرفوع فى هذه الجملة المجزؤة «مبتدأ» لأنهم قالوا فى تعريف المبتدأ إنه اسم مخبر عنه ، وهذه النماذج لاخبر فيها مطلقا .

أولا : الاسم المصاحب وهو الاسم المرفوع المعطوف عليه اسم آخر بواو هى نص فى المعية مثل : كلُّ رجلٍ وضَيْعَتُه».

ومن المعروف أن النحاة يقدرون خبراً محذوفا وجوبا تقديره «مقترنان» ولا نرى هذا التقدير ، لأن الجملة مفيدة من غيرهذا التقدير ، ويكفى فى إعرابها أن نقول:

كل : اسم مرفوع مصاحَب (بفتح الحاء أو بكسرها) .

رجل : مضاف إليه .

الواو : عاطفة بمعنى مع .

ضيعته : معطوف على «كل» والهاء فى محل جر مضاف إليه .

ومن الواضح أن الضمير هنا يربط بين الاسمين مع العطف .

---

(١) انظر الهمع ١/١٠٥ (٢)السابق نفسه (٥) إحياء النحو :١٤٢

وقد ذهب الكوفيون والأخفش إلى أن « نحو: كلُّ رجل وضيعته , مستَغْنٍ عن تقدير خبر لأن معناه : مع ضيعته ، فكما أنك لو جئت بمع موضع الواو لم تحتج إلى مزيد عليها ، وعلى ما يليها فى حصول الفائدة ، كذلك لا تحتاج إليه مع الواو ومصحوبها»[١] وقد اختار هذا المذهب ابن عصفور ورأى أن هذا كلام تام لا يحتاج إلى خبر[٢] وعبارة السيوطى نقلا عن الكوفيين أن الخبر لم يحذف وإنما أغنت عنه الواو[٣]، وأشار أيضا إلى أن ابن خروف اختار هذا المذهب .

ونحن نرى أنه لا يصح أن يوجد مبتدأ بدون خبر ، فإذا كان هذا التركيب فى غير حاجة إلى الخبر فلا داعى للقول بأن الاسم الموجود مبتدأ لأن هذا يدفع إلى تقدير خبر واعتقاد أنه محذوف ، ويكفى أن نقول فى إعرابه: « اسم مرفوع مصاحَب» ومصاحب بصيغة اسم الفاعل أى بكسر الحاء أو بصيغة اسم المفعول أى بفتح الحاء أيهما شئت لأنه من المفاعلة وما صاحب فقد صوحب .

ثانيا : المصدر المضاف الواقع بعده حال لا تصلح أن تكون خبرا ، وكذلك «أفْعَل» إذا أضيف إليه هذا المصدر ، وقد مثل له النحاة بقولهم : «ضَرْبى زيداً قائمًا» و«أتمُّ تبيينى الحقَّ منوطًا بالحكم» ومثل له الأشمونى بقوله صلى الله عليه وسلم: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[٤] ومن ذلك فى الشعر قول رؤبة بن العجاج(٥) :

وَرَأْىُ عَيْنَىَّ الفَتَى أباكا
يُعْطِى الجَزِيلَ فَعَلَيْكَ ذَاكَا

وقول الأعشى(٦) :

عَهْدِى بِهَا فِى الحىِّ قد سُرْبِلَتْ
بيضاءَ مِثْلَ المهرةِ الضَّامرِ

وقول الآخر[٧] :

خيرُ اقترابى من المولى حليفَ رضًا
وشرُّ بعدِىَ عَنْهُ وهُوَ غَضْبَانُ

(١) الأشمونى ١/٢١٧

(٢) إنظر شرح ابن عقيل ١/١٠٧

(٣) الهمع ١/١٠٥

(٤) الأشمونى ١/ ٢١٩

(٥) الدرر اللوامع للشنقيطى ١/٧٧ .

(٦) الدرر اللوامع للشنقيطى ١/٧٧

(٧) السابق

وقد اختلف النحاة فى تحليل هذا التركيب اختلافا غير يسير ، ولذلك يقول السيوطى «وهذه المسألة طويلة الذيول كثيرة الخلاف ، وقد أفردتها قديما بتأليف مستقل[1]» وحتى لانقع فى مثل هذا الخلاف أرى أن نكتفى فى تحليل هذا التركيب (ضربى زيدا قائما) بما يأتى :

ضربى : مصدر فِعْلِى[2] مضاف والياء فى محل جر مضاف إليه .

زيدا : مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة .

قائما : حال منصوب .

وهناك كثير من النحاة قالوا عن هذا المصدر إنه «لاخبر له»[3] .

فإذا كان لا خبر له فليس مبتدأ ، لأن المبتدأ هو ما له خبر فى رأينا .

ثالثا : المصدر الذى يؤتى به بدلا من اللفظ بفعله سواء أكان يقصد به الخبر أم الإنشاء ،وسواء أكان مرفوعا أم منصوبا مثل :

«سمعٌ وطاعةٌ» و «صَبْرٌ جميل» والمصادر التى يدعى بها وذلك قولك : تُرْبًا وجندلا وما أشبه هذا[4]، ومن ذلك قولهم «مرحبًا وأهلا وإن تأتنى فأهلَ الليلِ والنهار» ، وزعم الخليل رحمه الله – حين مثله أنه بمنزلة رجل رأيته قد سدد سهمه فقلت : «القرطاسَ» أى أنت عندى ممن سيصيبه .... فإنما رأيت رجلا قاصدا إلى مكان أو طالبا أمراً فقلت : مرحبا وأهلا ، أى أدركت ذلك وأصبت فحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه فكأنه صار بدلا من «رحبت بلادك وأهِلَتْ»[5] ويقصد سيبويه وأستاذه الخليل بهذا أن دلالة الحال المشاهدة وملابسات الموقف اللغوى أغنت عن ذكر الفعل ، فصار حذفه من الكلام ضروريا ، لأن ذكره يعد فضولا من القول ولغوا ، ونحن نوافقهما على هذا ، ونزيد عليه أن هذا المحذوف المرفوض لا اعتداد به ، إذ إن دلالة الكلام المذكور كافية فى إفادة المعنى ومغنية عما سواه .

ويكفى فى تحليل هذا النوع من الجمل المجزوءة أن نقول فى مثل : «صبرٌ جميل» مصدر مرفوع إذا كان مرفوعا أو مصدر منصوب إذا كان منصوبا ، وقد ذكر سيبويه أن هذه المصادر قد ترفع يقول : «ومنهم من يرفع» ويقول «وقد رفعه بعض

---

(١) الهمع ١/١٠٥ (٢) المقصود بكلمة «فعلى» أن المصدر يعمل عمل فعله فى هذا التركيب

(٣) أنظر الهمع ١/ ١٠٥ (٤) انظر سيبوية ١/ ٣١٤ (بولاق) (٥) سيبويه ١/ ٢٩٥ (بولاق)

العرب» وقد أفاض سيبويه فى ذكر نماذج كثيرة لهذه المصادر ونقل الرفع فيها والنصب كذلك ما عدا المصادر المضافة مثل : سبحان الله ومعاذ الله وحنانيك ولبيك وسعديك فليس فيها إلا النصب ، وقد نص على أن معنى المرفوع من هذا هو معنى المنصوب «وفيه المعنى الذى يكون فى المنصوب»[1] ولذلك قال المبرد عن هذه المصادر «كل هذا معناه فى النصب ومعناه فى الرفع واحد»[2] ويقول ابن يعيش «ألا ترى أنك إذا قلت : سلام عليك وويل له بالرفع كان معناه كمعناه منصوبا»[3].

رابعا : الاسم المرفوع الواقع بعد لولا الامتناعية على شريطة أن تفيد مع هذا الاسم معنى مستقلا مثل قوله تعالى « ولولا فضل الله عليكم ورحمته[4]» ويعرب على أنه اسم مرفوع بعد لولا وكفى ،وهذا هو مذهب الفراء[5] والكوفيين الذين يرون أن (لولا) ترفع الاسم بعدها وقد ناصرهم فى هذا الرأى وظاهرهم عليه ابن الأنبارى وتصدى لتفنيد آراء البصريين[6].

وأما لولا الامتناعية التى لا تستقل مع الاسم المرفوع بعدها بمعنى مستقل فليست من الجمل المجزوءة ، بل هى من الجمل الاسمية التامة ولكن ليس خبر المبتدأ بعدها محذوفا وجوبا كما يرى كثير من النحاة بل إن خبرها مذكور وهو ما يسمى جواب «لولا» وبهذا نتجاوز كثيرا من الخلافات ، وما ذهبنا إليه هو رأى ابن الطراوة الذى يرى أن جواب لولا أبدا هو خبر المبتدأ ولم يرض رأيه هذا ابنَ هشام فصدره بقوله : وزعم ابن الطراوة ، ولكن السيوطى يعطى له ما يستحق فيقول : «وذهب قوم إلى أن الخبر بعد لولا غير مقدر وأنه الجواب ، وإن كان البصريون يرون أنه لايصح أن يكون الخبر لخلوه غالبا من العائد ، مع هذا يرون أنه سد مسد الخبر .[7] ولابأس فى هذا لاختلاف لولا عن جميع أدوات الشرط فى أنها لا يليها فعل .

(1) سيبويه ٣١٤/١ (2) المقتضب للمبرد ٣/ ٢١٧ (3) شرح المفصل لابن يعيش ٩٣/١

(4) سورة النور فى الآيتين ١٠ ، ٢٠ (5) انظر شرح الرضى على الكافية ١٠٤/١ .

(6) انظر المسألة رقم ١٠ من الإنصاف ١/ ٧٠ (تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد) .

(7) انظر : سيبويه ٢/ ١٩٢ والمقتضب ٣/ ٧٦ والإنصاف : ٥٢ والمغنى ٢١٥/١ والهمع ١/ ١٠٥

(8) انظر شرح الرضى على الكافية ١/ ١٠٤ والهمع ١/ ١٠٥ .

٣ - جملة الوصف مع مرفوعه :

يُدْرِج النحاة مثل هذا التركيب : «أقائم المحمدان» تحت الجملة الاسمية التامة، وعند تحليله يقولون إن الهمزة للاستفهام و«قائم» مبتدأ مرفوع و«المحمدان »فاعل سد مسد الخبر ، ويقولون مثل هذا فى نحو «أحَيٌّ والداك»(١) وكذلك فى مثل «أمحمود أخواك؟» غير أنهم يعربون كلمة «أخواك» نائب فاعل فى المثال الأخير ، ويرون أن الاسم المشتق فى هذا التركيب يؤدى ما يؤديه الفعل يقول ابن يعيش « واعلم أن قولهم « أقائم الزيدان ؟ » إنما أفاد نظراً إلى المعنى إذ المعنى « أيقوم الزيدان؟ » فتم الكلام لأنه فعل وفاعل ، وقائم هنا اسم من جهة اللفظ وفعل من جهة المعنى ، فلما كان الكلام تاما من جهة المعنى أرادوا إصلاح اللفظ فقالوا أقائم مبتدأ والزيدان مرتفع به وقد سد مسد الخبر من حيث إن الكلام تم به ولم يكن ثَمَّ خبرٌ محذوف على الحقيقة » (٢).

ومعنى هذا أن هذه الجملة تتألف إما من (مبتدأ وفاعل) أو من (مبتدأ ونائب فاعل) وهم يقولون إن الإسناد بطرفيه هو الذى تنعقد به الجملة ، وطرفا الإسناد إما أن يكونا المبتدأ والخبر فى الجمل الاسمية التامة أو أن يكونا الفعل والفاعل فى الجمل الفعلية التامة أو الفعل ونائب الفاعل . وكل من المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل يعد مسندا إليه فى جملته .

إذن جملة « أقائم المحمدان ؟ » تتألف من «مسند إليه + مسند إليه» وأحدهما من الجملة الاسمية والآخر من الجملة الفعلية ، أى أخذت المسند إليه من الجملتين . وهذا وضع غريب فى تركيب هذه الجملة ، وهذا ما دعانا إلى إفرادها بمعالجة خاصة .

وينبغى أن يسمى هذا التركيب « الجملة الوصفية » جريا على عادة النحاة فى نسبة الجمل إلى صدرها ، وصدر هذه الجملة هو الوصف ، والمقصود بالوصف : اسم الفاعل مثل قائم وناجح ومكرِم (بكسر الراء) ومستخرِج (بكسر الراء) ، واسم المفعول مثل مضروب ومحمود ومنصور ومكرَم (بفتح الراء) ومستخرَج

---

(١) صحيح البخارى ٤/ ٧١ (طـ الشعب) .

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ١/ ٩٦ .

(بفتح الراء) والصفة المشبهة مثل كريم وحليم وقوى وشهم وشجاع ، غير أن هذه التسمية قد تلتبس بالجملة الواقعة نعتا ، ولذلك آثرنا الإبقاء على تسمية النحاة لها «الوصف مع مرفوعه» مع ملاحظة أنها يجب أن تكون مستقلة عن الجملة الاسمية التامة والمجزوءة .

والذى جعل النحاة يعدون هذا التركيب من الجملة الاسمية التامة أنهم يجعلون مصطلح «الاسم» فى العربية شاملا لأنواع مختلفة منه مع أن بعض هذه الأنواع يمكن أن يستقل بصفات خاصة ومن هذه الأنواع التى يمكن أن تستقل بصفات خاصة تفردها عن الاسم «الوصف»(1) ولما رأى النحاة أنه يختلف عن الاسم قالوا إن له مرفوعا أغنى عن الخبر ، وراعوا ذلك فى تعريفهم للمبتدأ حيث عطفوا بـ (أو) عليه «الوصف الرافع لما يكتفى به» وقالوا إن «أو» فى التعريف للتنويع لا للتخيير .

وهناك بعض النصوص للنحاة توحى بإدراكهم لهذه الفروق بين الوصف وغيره سأكتفى منها بنصين فقط أولهما للرضى الذى يقول فى التعقيب على تعريف ابن الحاجب للمبتدأ الذى ذكر فى حده «أو الصفة الواقعة بعد حرف النفى وألف الاستفهام رافعة لظاهر»ومثل لذلك بقوله : «ما قائم الزيدان وأقائم الزيدان ». يقول الرضى «هذا هو حد المبتدأ الثانى، والنحاة تكلفوا إدخال هذا أيضا فى حد المبتدأ الأول فقالوا إن خبره محذوف لسد فاعله مسد الخبر ، وليس بشىء ، بل لم يكن لهذا المبتدأ أصلا من خبر حتى يحذف ويسد غيره مسده ، ولوتكلفت له تقدير خبر لم يتأتَّ إذ هو فى المعنى كالفعل والفاعل لا خبر له فمن ثَم تمَّ بفاعله كلاما من بين جميع اسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة ولهذا أيضا لا يصغر ولا يوصف ولا يعرف ولا يثنى ولايجمع(2)» والنص الثانى من كلام ابن هشام الذى يعقد مقارنة بين هذين النوعين من المبتدأ فيقول ضمن هذه المقارنة « ولا يكون المبتدأ المستغنى عن الخبر فى تأويل الاسم البتة ، بل ولا كل اسم بل يكون اسما هو صفة نحو «أقائم الزيدان» و «ما مضروب

---

(1) يفرد الدكتورتمام حسان «الصفة» بقسم مستقل ، وقد قسم الكلمة إلى سبعة أقسام بدلا من ثلاثة أقسام وهى الاسم والصفة والفعل والضمير والخوالف والظرف والأداة (انظر اللغة العربية معناها ومبناها من صفحة ٩٠ إلى ١٣٢) وانظر أيضا كتابى « العلامة الإعرابية فى الجملة» من صفحة ٦٤ إلى ٨٧ حيث ناقشت هذا التقسيم وتقسيمات أخرى (مطبوعات جامعة الكويت ١٩٨٤) . ودار الفكر العربى ١٩٨٨ .

(2) شرح الكافية للرضى ٨٦/١

العمران» .... والمبتدأ المستغنى عن الخبر لابد أن يعتمد على نفى أو استفهام[1] :

ومن خلال هذين النصين نستطيع أن نتبين خصائص جملة الوصف مع مرفوعه ، غير أننا تلافيا للخلط بين هذا النوع وسابقيه - نود ألا نقول عن الوصف هنا فى تحليله إنه مبتدأ ، ويكفى فى إعرابه أن نقول إذا كان اسم فاعل أو صفة مشبهة «وصف فاعل مرفوع وما بعده فاعل» وإذا كان اسم مفعول نقول «وصف مفعول وما بعده نائب فاعل» .

ومن خصائص هذه الجملة الوصفية أنه لا يتطابق فيها الوصف مع المرفوع بعده ، فيلزم الوصف الإفراد فلا يثنى ولا يجمع، ويلزم التنكير فلا يعرف ولا يوصف أيضا ولا يصغر ، ولا يشترط مثل هذا فى «المبتدأ». ومن أمثلة ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم « أحىٌّ والداك ؟ »[2]وقولنا : أناجح المحمدان؟ ، أناجح المحمدون ، وإذا أعربنا الجملة الأخيرة مثلا قلنا :

الهمزة : للاستفهام .

ناجح : وصف فاعل مرفوع .

المحمدون : فاعل مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم .

فإذا ثنى الوصف أو جمع بحيث نقول أناجحان المحمدان؟ ، أو أناجحون المحمدون؟ فإن هذه تتحول إلى جملة اسمية تامة تقدم فيها الخبر وتأخر المبتدأ جوازا .

فجملة الوصف مع مرفوعه لا تطابق بين جزأيها ، ولذلك سبق أن اخترنا أن مثل «أراغب أنت ؟ » جملة اسمية فقط وهو ما ذهب إليه كثير من النحاة وليس الوصف فيها إلا خبرا مقدما .

وجملة الوصف مع مرفوعه لا يدخل عليها من النواسخ إلا ما يفيد النفى وهى بذلك تختلف عن الجملة الاسمية ، ولابد أن تسبق بنفى أو استفهام . ولا يشترط هذا فى الجملة الاسمية .

الجملة الإسمية المقيَّدة .

وأما الجملة الاسمية المقيدة فالمراد بها كل جملة اسمية تامة قيدت بأحد المقيدات التى تسمى «النواسخ» ، وهذه النواسخ

---

(١) شرح شذور الذهب لابن هشام : ٢٣٠ .

(٢) صحيح البخارى ٤/ ٧١ (ط الشعب)

مقيداتُ للجملة الاسمية لأنها تضيف إليها معانى لم تكن موجودة من قبل من جانب وتؤثر فى أجزائها إعرابيا من جانب آخر ، وقد تقيد الجملة بمقيدات غير مؤثرة إعرابيا أيضا ، ولكننا لانعد المقيدات هنا إلا ماكان له تأثير إعرابى ، والمقيدات المؤثرة متعددة وهى على النحو الآتى :

(أ) - مقيدات الزمن ، وهذه هى كان وأخواتها ما عدا «ليس» والمقيدات الدالةعلى المقاربة تُضم هنا إلى كان وأخواتها لأنها تدل على قرب وقوع الخبر ، والقرب هنا زمنى ، وكذلك المقيدات الدالة على الرجاء والشروع لأنها من حيث أدرتها وجدتها دالة على الزمن المرجو وقوع الخبر فيه أو الذى شرع فى حدوث خبرها فيه .

وقد نجد بين أخوات كان ما قد يكون ظاهر أمره ليس دالا على الزمن وهو «صار»وهو يفيد التحويل كما يقول نحاتنا، ولكن مدلول التحويل نفسه لا يكون إلا بالانتقال من حالة إلى حالة ، وكل حالة ما دامت مختلفة عن الأخرى لابد أن تكون فى زمن معين ، لأن الشىء لايكون على حالين فى زمن واحد، ومثل «صار»ما يلحق بها سماعا لا قياسا مثل آل ورجع وحال وارتد[1].

(ب) مقيدات النفى : وهى «ليس»والمشبهات بها «ما - لا - لات- إنْ» وهذه ترفع الاسم وتنصب الخبر ، و«لا» النافية للجنس ، وهذه تنصب الاسم إذا كان مضافا أو شبيها بالمضاف لأنها لاتتركب مع اسمها إذا كان غير مفرد ، أما إذا كان اسمها مفردا فإنها تتركب معه .

ولذلك يبنى على ما ينصب به ، وأما خبرها فإنه يكون مرفوعا .

(جـ) مقيدات التأكيد : وهى إنَّ وأنَّ ، وهى تضيف معنى التأكيد إلى الجملة الاسمية التامة ، وإن كانت أنَّ المفتوحة الهمزة - كما يرى بعض المحدثين[2]- ليست إلا واسطة لنقل التأثير إلى الجملة ، ولذلك فهى حرف مصدرى ، والحروف المصدرية وسائط لنقل التأثير إلى الجملة الفعلية والاسمية، و (أنّ) هى المختصة بالجملة الاسمية فأنَّ وما دخلت عليه تعد

---

(١)انظر شرح الكافية للرضى ٢/ ٢٩١

(٢) مثل برجستراشر فى كتابه « التطور النحوى» .

اسمـا أو مصدراً مـؤولا على حد تعبـير النحاة ، وقد عبر عن ذلك سيبويه بقوله : «أما أنّ فـهى اسم ، وما عملت فـيه صلة لها ، كمـا أن الفعل صلة لأن الخفـيفة ، وتكون أنّ اسما . ألا ترى أنك تقول : قد عرفت أنك منطلق، فأنك فى موضع اسم منصـوب كـأنك قلت : قـد عـرفت ذاك وتقول بلغنى أنك منطلق فـأنك فى موضع اسم مرفـوع كأنك قلت بلغـنى ذاك: «فأنّ الأسماء التى تعمل فيها صلة لها ، كما أنّ أنْ الأفعال التى تعمل فيها صلة لها[١] وإذا أخذنا بهذا الرأى تكون إنَّ المكسورة الهمزة هى مقيدة التأكيد أما (أنَّ) المفتوحة الهمزة فـتكون مقـيدة الإيصـال أى جعل الجـملة معمولا لعامل قـبلها لايمكن أن يصل إليها إلا عن طريق (أنَّ).

والتـأكيد - بلا شـك - إضافة جـديدة لمعنى لم يكن موجودا من قبل فى الجملة، ولذلك قد لا أوافق ابن الأنبارى رحمه الله إذ جعل دخول إنَّ على الجـملة مما لا يغير المعنى ، وأقـول إن المعنى لم يتغـير ، بل زاد تأكـيـده وزيادة شىء عليـه لم يكن مـوجـودا من قبـل تقيـيـد له يقـول ابن الأنبارى فـى « أسرار العربـية[٢]» وأما مـا يغير اللفظ دون المعنى فـهو إنّ تقول : إن زيدا قـائم فـ (إنّ) قد غـيـرت اللفظ ولم تغير المعنى ، لأن معناها التأكيد والتحقيق، وتأكيد الشىء لا يغير معناه» .

(د) مقيد التمنى : وهو «ليت» يقول ابن الأنبارى فى كتابه المشـار إليه آنفا «فأما ما يغير اللفظ والمعنى فنحو «ليت» فتقول : ليت زيدا منطلق «فليت» قد غـيرت اللفظ وغيـرت المعنى ، أما تغيـير اللفظ فـلأنها نصبت الاسم ورفـعت الخبر ، وأما تغـيير المعنى فـلأنهـا أدخلـت فى الكلام مـعنى التمنى»[٣].

(هـ) مقـيد الرجـاء : وهو «لعل» وهى حـرف يفيـد معـانى مختلفة هى التـوقع والتـعليل والاسـتـفـهـام - كـمـا حكى الكوفيون- ، ولكن أشـهر هذه المعانى هو ترجى المحـبـوب والإشـفـاق من المكروه «وتختص بـالممكن ، وقول فرعـون» لعلى أبلغ الأسبـاب أسباب السمـوات «إنما قاله جهلا أو مخرقة وإفكا» على حد تعبير ابن هشام[٤].

(١) سيبويه ٣/١١٩ ، ١٢٠ (دار القلم)

(٢) تحقيق محمدبهجت البيطار (دمشق - ١٩٥٧ م) ، صفحة ١٣٠

(٣) السابق نفسه

(٤) مغنى اللبيب لابن هشام ١/ ٢٢٣ .

ولم أذكر هنا ما يفيد الرجاء من أخوات كاد ، وذكرتها فى مقيدات الزمن لأن أخبارها هناك لابد أن تكون فعلا مضارعا وإفادة أخوات كاد الرجاء مقرون برجاء حدوث الفعل، فهى بالزمن أشبه ، وأما لعل فهى ليست مختصة بالفعل بل قد يخبر عنها بالفعل أو بغيره، وإفادتها الرجاء من أصل وضعها .

(و) مقيد الاستدراك : وهو «لكنّ» وقد فسِّرَ إفادتها الاستدراك بأن تنسب لما بعدها حكما مخالفا لحكم ما قبلها ، ولذلك لابد أن يتقدمها كلام مناقض لما بعدها نحو : ما هذا ساكنا لكنه متحرك ، أو ضد له ، نحو ما هذ أبيض لكنه أسود،قيل أو خلاف ذلك نحو : ما زيد قائما لكنه شارب ، وقيل لا يجوز ذلك[1]وقد تفيد معانى أُخَر مع الاستدراك ، لكن معناها الغالب عليها هو الاستدراك .

(ز)مقيد التشبيه : وهو « كأن » وقد تكون (كأن) لإفادة الشك والظن أو التحقيق أو التقريب ، ولكن هذه المعانى كلها قائمة على المعنى الأصلى وهو التشبيه الذى يخرج عن مدلوله الأصلى إلى هذه المعانى الفرعية ، ولذلك يبقى هذا الحرف مقيدا للتشبيه فى جميع أحواله .

والجملة مع بعض مقيدات النفى (كلها ماعدا ليس) وكل مقيدات التأكيد والتمنى والرجاء والاستدراك والتشبيه لاتخرج عن اسميتها فهي جملة اسمية فى نظر النحاة قديما وحديثا ، وذلك لأن النحاة اعتبروا هذه المقيدات حروفا أو أدوات وقد درسها المتأخرون تحت عنوان «إن وأخواتها» وقد اهتموا بالتأثير الإعرابى فحسب فى التصنيف ، وكذلك «المشبهات بليس» لاتغير تصنيف الجملة الاسمية وتبقى لها اسميتها .

أما مقيدات الزمن وهى ما درست تحت عنوان «كان وأخواتها» و«كاد وأخواتها» فقد تردد النحاة القدماء فى نسبتها إلى الفعلية أو الحرفية ، فقد «ذهب بعض النحويين إلى أنها حروف وليست أفعالا ، لأنها لاتدل على المصدر ، ولو كانت أفعالا لكان ينبغي أن تدل على المصدر ، ولما كانت لاتدل على المصدر دل على أنها حروف»[2] ولعل الذى أوقع النحاة فى هذا التردد عدة أمور :

(١) السابق ١/٢٢٤، ٢٢٥ .

(٢) أسرار العربية لابن الأنبارى ١٣٢

١ - أنها تتصرف تصرف الأفعال فيصاغ من بعضها المضارع والأمر .

٢ - أنها تلحقها تاء التأنيث الساكنة ، وهم يعدون هذه التاء من علامة الفعل وتختص به .

٣ - أنها تلحقها تاء الفاعل وألف الاثنين وواو الجماعة فتقول كنت وكانا وكانوا ، كما تقول : قمت وقاما وقاموا وما أشبه ذلك .

ومهما يكن من أمر فقد اتفق النحاة على أن هذه الأفعال أفعال غير حقيقية ولهذا تسمى «أفعال العبارة» كما يقول ابن الأنبارى .

ولو أن النحاة اعترفوا بما يسمى «الأدوات المتصرفة» لما حدث مثل هذا الاضطراب والخلاف ، والذى أراه أن جملة «كان زيد قائما» أى المبتدأ والخبر الذى تدخل عليه «كان أو إحدى أخواتها» ينبغى أن تعد من الجمل الاسمية لعدة أسباب :

أولا : أن الجملة الاسمية مبهمة الزمان فإذا قلت «محمد كريم» فأنت تثبت الكرم لمحمد مطلقا دون تحديد زمن معين ، فإذا أدخلت «كان» أو إحدى أخواتها فأنت تحدد زمن هذا الإثبات أو تنفيه عنه إذا أدخلت «ليس» ولذلك قال بعض النحاة عن هذه الأدوات « بأنها لمجرد الزمن ولا دلالة لها على الحدث»[1] ويقول سيبويه: تقول :«كان عبد الله أخاك» فإنما أردت أن تخبر عن الأخوة ، وأدخلت كان لتجعل ذلك فيما مضى[2] ويقول المبرد عنها: إنها « فى وزن الفعل وتصرفه وليست فعلا على الحقيقة[3] لأنها خالية من الحدث ، وأنها دخلت على المبتدأ والخبر «لتخبر أن ذلك وقع فيما مضى ، وليست بفعل وصل منك إلى غيرك[4].

ثانيا : الفعل فى الجملة الفعلية يعد «مسندا» وهذه لاتعد مسندا فى جملتها ، وإنما المسند فى جملتها هو «الخبر» والمسند إليه هو اسمها ، فالإسناد -إذن- بين اسمها وخبرها ، وأما «كان»فهى أداة لإفادة الزمن فحسب كما سبقت الإشارة إلى ذلك

(١) السيوطى : الهمع ٢/ ١٦٥ (٢) سيبويه ١/ ٢١ .

(٣) المقتضب ٣/ ٣٣ (٤) انظر السابق ٢/ ٩٧ ، ٤ / ٨٦ .

ثالثا : إذا حذفت الفعل من الجملة الفعلية لم يستقل ما بعده فمثلا إذا قلت «شرب الطفل اللبن» وحذفت «شرب» لايصير الباقى جملة مفيدة فلا يقال «الطفل اللبن» ولكن إذا قلت «كان محمد حاضرا» وحذفت «كان» صار الباقى جملة مفيدة فتقول «محمد حاضر».

رابعا : يرى ابن جنى أنه لايلزم تأنيث كان لاسمها إذا كان مؤنثا لزوم تأنيث الفعل لفاعله إذا كان مؤنثا[1] للسبب السابق وهو أن ما بعدها لا يحتاج إليها احتياج الفاعل إلى فعله .

خامسا : لم يتفق النحاة على فعليتها مع أخواتها ، إذ يرى ابن السراج وثعلب حرفية (عسى) ويتفق ابن السراج والفارسى وابن شقير على حرفية (ليس) استنادا إلى عدم تصرفها فلا يأتى منها مضارع ولا أمر ولا مصدر ولاغير ذلك ، وذهب الزجاجي إلى أن كان وأخواتها حروف.[2]

سادسا : لم يخرج النحاة جملة الابتداء والخبر المنسوخة بـ (إن) أو إحدى أخواتها عن الاسمية ، ولذلك ينبغى ألا تخرج جملة الابتداء والخبر المنسوخة بـ (كان) أو إحدى أخواتها عن الاسمية كذلك .

سابعا : تستطيع أن تقول « أكل طفل تفاحة » فتأتى بالفاعل نكرة «طفل» ولكنك لا تستطيع أن تقول : « كان رجل حاضرا فتأتى باسم كان نكرة لأنه لا يجوز الابتداء بالنكرة إلا فى حالات معينة ليست هذه منها.

ثامنا : مما يدل على كون « كان وأخواتها» أدوات أنها تدخل على الأفعال كما تدخل الأدوات مع أنه « لا يلى فعل فعلا» كما يقول المبرد [3].

ولذلك عدها بعض الباحثين المحدثين أدوات منقولة من الفعل للدلالة على الزمن فى الجملة الاسمية التى تخلو من الدلالة عليه [4].

---

(١) انظر : الهمع ١/ ١٠ (٢) المقتضب : ٤/ ١١٠ (٣) انظر : د. تمام حسان « اللغة العربية معناها ومبناها » ١٣١ ود عبدالرحمن أيوب « العربية ولهجاتها » ص ٧٩ - ٨٢ .

لهذه الأسباب مجتمعة يسوغ لنا أن نعد الجملة المنسوخة بـ «كان» أو إحدى أخواتها - مثلها تماما «كان» وأخواتها - من الجملة الاسمية، كما تعد الجملة المنسوخة بـ «إن» أو إحدى أخواتها جملة اسمية كذلك.

وأما مثال جملة «ظننت عَمرا أباك» فإننا نجد كثيرا من الباحثين يعالجونه تحت الجملة الاسمية أيضا من قبيل أن الجملة فى أساسها هى «عمرو أبوك» وهى جملة اسمية ولكن المتكلم يشك فى نسبة الخبر إلى المبتدأ أو الأبوة إلى عمرو فى هذا المثال، ولذلك يصدر هذه الجملة بما يفيد الرجحان وهو «ظننت» أو «حسبت»، وقد يكون متيقنا من هذه النسبة ويريد الإخبار عن ذلك فيقول «علمت عمرا أباك» أو «رأيت عمرا أباك» فيصدر الجملة بما يدل على تيقنه أى يأتى قبل الجملة الاسمية بـ (علمت) أو (رأيت) أو غيرهما من أفعال اليقين، ولذلك نجد إمام النحاة سيبويه يقول عنها «هذا باب الفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعولين، وليس لك أن تقتصر على أحد المفعولين دون الآخر وذلك، قولك: «حسب عبد الله زيدا بكرا، وظن عمرو خالدا أباك، وخال عبد الله زيدا أخاك ومثل ذلك: رأى عبد الله زيدا صاحبنا، ووجد عبد الله زيدا ذا الحفاظ.

وإنما منعك أن تقتصر على أحد المفعولين هنا أنك إنما أردت أن تبين ما استقر عندك من حال المفعول الأول يقينا كان أوشكا[1]. فدخول «ظن» أو إحدى أخواتها - وهى أفعال الرجحان واليقين - على الجملة الاسمية لإفادة الشك فى نسبة المفعول الثانى - وهو الخبر فى الأصل - إلى المفعول الأول - وهو المبتدأ فى الأصل - وذلك إذا قلت مثلا: ظننت محمدًا حاضرا أولإفادة التيقن من ثبوت المفعول الثانى - وهو الخبر فى الأصل - للمفعول الأول - وهو المبتدأ فى الأصل - وذلك إذا قلت: علمت العلم نافعا، فجملة «محمد حاضر» و«العلم نافع» جملة اسمية، ولكن المتكلم أوقع على الجملة الأولى حالته الخاصة وهى الظن أو الرجحان وأوقع على الجملة الثانية حالته الخاصة من إفادة التيقن الحادث له وهو العلم بذلك، ولهذا يسوغ

(١) سيبويه ص ١/ ٨٨ .

لنا أيضا أن نعالجها تحت الجملة الاسمية ، بسبب أن جزأى الجملة الاسمية يعرض لهما تغيير يلائم الحالة الجديدة التى طرأت فيصيران مفعولين .

ولكنه مما لا يحتمل الجدل أن الجملة مع ظن وأخواتها جملة فعلية لأن للفعل فاعلا ، وبينه وبين الفعل إسناد أصلى ، وقد خفّت الإسناد بين المبتدأ والخبر اللذين تحولا إلى مفعولين ،وعلى أية حال يمكن أن يكون ذلك من التقييد بالمفعولية ، وقد ينحل الإشكال إذا أطلقنا على مثل هذا النوع «جملة فعلية اسمية» والإسناد فيها إسنادٌ مركب لأنّ بين الفعل وفاعله إسناداً، وبين «المفعول الأول» و«المفعول الثانى» إسناداً كذلك وباعتبار الإسناد الأول تعد جملة فعلية ، وباعتبار الإسناد الثانى تعد جملة اسمية .مصطلح « الجملة الفعلية الاسمية » مصطلح يصف هذا النوع من الجمل وصفا دقيقا ، ولما كان الإسناد الأول فعليا عدت الجملة فعلية وأغفل الإسناد الثانى[1] . فى هذا الذى قدمته شىء من إعادة النظر فى الوصف والتصنيف ، وهو فى كثير منه يعتمد على آراء لبعض النحاة السابقين ، ولاأريد أن أعيد هنا ما قاله ابن جنى عن النحو من أنه ليس دينا ولا عملا مسنونا فليس التفتيش والنظر فيه محرّما أو مجرّمًا ، وتكفى عبارته التى تعد مبدأ مهمّا وفى الوقت نفسه دعوة متجددة لإعمال الفكر وإجالة الخاطر وهى «فكلّ من فُرِق له عن علة صحيحة ، وطريقٍ نهجةٍ كان خليل نفسه وأبا عمرو فكرِه» وعلى الله سبحانه قصد السبيل .

محمد حماسة عبد اللطيف

الخبير بالمجمع

(١) انظر الفصل الثانى من كتابى « بناءالجملة العربية » دار الشروق .

قراءة متأنية

فى كتاب (معجز أحمد) لأبى العلاء المعرى

تحقيق الدكتور عبد المجيد دياب

عرض وتعليق للفريق / يحيى بن عبد الله المعلمى

تضمن كتاب (معجز أحمد) شرحاً وافياً لشعر المتنبى يتضمن أوجه إعراب الكلمات ومعانى المفردات ثم المعنى الإجمالى للبيت مما يجعل من قراءته متعة وفائدة للقارىء وقد صدَّر المحقق الكتاب بترجمة وافيه لأبى العلاء المعرى وترجمة أخرى لأبى الطيب وختم الكتاب بفهارس شاملة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والقصائد والمقطعات والأمثال والأقوال المأثورة وأسماء القبائل والجماعات والشعوب والأرهاط وفوائد من النحو والعروض والبلاغة وأسماء الأعلام من الأشخاص والأماكن والبلدان فى البقاع والبحار والأنهار والكتب والمراجع .

صدر هذا الكتاب منذ عشرة أعوام فى أربعة مجلدات يزيد مجموع صفحاتها على ألف وسبعمائة وعشرين صفحة ويلحق بها ما يزيد على مائتين وعشرين صفحة للفهارس .

وقد بذل المحقق جهداً كبيراً فى البحث عن نسخ متعددة لهذا الكتاب وفى معرفة ما إذا كان هو كتاب اللامع العزيزى الذى ألفه أبو العلاء المعرى فى شرح ديوان أبى الطيب المتنبى أم أنه كتاب آخر ، وخلص إلى أنهما كتابان مختلفان، وقد كتبُ اللامع العزيزى قبل معجز أحمد وليس معجز أحمد اختصاراً للامع .

وقد قسم المعرى فى كتابه شعر المتنبى إلى مجموعات حاول فيها أن يجعلها متفقة مع تاريخ إنشاء القصائد أو فترة إنشادها ، ولعله اتبع فى ذلك سنن المتنبى

الذى قسم قصائده على حسب أماكن إنشادها .

ففى الديوان : العراقيات الأولى والشاميات والسيفيات والكافوريات والعراقيات الأخيرة والعضديات ، ويتخلل هذا التقسيم زيادات من شعر المتنبى .

وقد كنت فى الندوة الأدبية التى يعقدها الأخ اللواء الدكتور أنور عشقى فى دارته العامرة مساء كل يوم خميس وتجاذبنا الحديث عن شعر المتنبى وشروحه فأخبرنى بأن لديه نسخة من (معجز أحمد) للمعرى فطلبت منه أن يُفضل بإعارتى إياها لقراءتها فأفضل بإهدائها إلىّ ، فبدأت فى قراءتها وعكفت على ذلك أربع ليال .

وقد لاحظت فى أثناء قراءتى لهذا الكتاب ملحوظات لا أزعم أن المعرى قد أخطأ فيها وإنما أرجع ذلك إلى الناسخ ، فالمعرى كما هو معروف لا يقرأ ولا يكتب وإنما يملى ما يقول على من يكتب ، ولا يستطيع أن يصحح ما أملاه تصحيحاً دقيقاً كما يفعل المبصرون الذين قد يفوت عليهم أيضاً بعض الأخطاء فلا يتنبهون إليها رغم حرصهم على تحرى الصحة والصواب .

١ - فى الصفحة (٩٠) من المقدمة للجزء الأول ورد البيت التالى من شعر أبى الطيب :

مِنَ الجآزر فى زىِّ الأعاريب
حمْر الحلا والمطَايَا والجَلابِيبِ

وقد كتب كلمة الجآذر بالزاى بدلاً من الذال وهذا خطأ ؛ فالجآذر جمع جؤذر وهو الغزال ، أما الجآزر فلم أقف لها على معنى .

وكتبت الحلا بألف ممدودة والصحيح أن تكتب بألف لينة لأنها جمع حليه لا حلوة .

٢ - فى الصفحة ٣٢ من الكتاب فى الجزء الأول ورد هذا البيت من شعر أبى الطيب :

تَبْكِى عَلَى الأنْصُلِ الغُمودِ إذا
أنْذَرَهَا أنهُ يُجَرِّدُها

وقد ضبطت كلمة (الغُمودِ) بكسر الدال والصحيح أنها بالضم لأنها فاعل مرفوع .

★★★

٣ - وفى الصفحة ٤١ ورد هذا البيت من شعر أبى الطيب :

أرَى مِنْ فِرِنْدِى قِطعَةً فى فِرِنْدِهِ

وجَودةُ ضَرب الهُمامِ فى جَوْدَةَ الصَّقْل

وقد وضعت بدل كلمة الهام كلمة (الهمام) وضبطت بضم الهاء ، ولا يستقيم وزن البيت ، ولا معناه بذلك . وقد أشار المحقق إلى أن فى نسخ الديوان كلمة الهمام وأن فى الديوان : الهام ، وليته أثبت الصحيح .

٤ - فى الصفحة ٦١ ورد البيت التالى من شعر الحكمى :

يادَعد قد أصبحت مبيضّةً كبِدِى

فاصبْغِى بيَاضاً بعصفْرَ العِنَبِ

ولا يستقيم وزن الشطر الثانى ولعل أصله : فاصبْغِيها بيَاضاً عصفْرَ العِنَبِ . والله أعلم . .

٥ - فى الصفحة ٧٠ ورد البيت التالى من شعر أبى الطيب :

دَرّ دَرُّ الصبّا أيّامَ تَجْرِيـ

ـرِ ذُيُولى بِدَارِ أثْلَةَ عودِى

ولا يستقيم الوزن إلا إذا وضعت همزة النداء قبل كلمة أيام فيكون البيت هكذا :

دَرّ دَرُّ الصبّا أأيَّامَ تَجْرِيـ

ـرِ ذُيُولى بِدَارِ أثْلَةَ عودِى

وقد جاء فى الشرح أن الهمزة الأولى همزة حرف النداء .

٦ - فى الصفحة ٩١ جاء بيت أبى الطيب:

مَا ضاقَ قَبلكِ خَلْخَالٌ على رَشَإٍ

ولاَ سَمِعتُ بِديبَاجٍ عَلَى كَنَس

بفتح النون فى كلمة كنس .

وقال الشارح : الكنس (بفتح النون) بيت الظبى ، وروى على كِنس ، وهو صفة الظبى أى ذى كِنس .

وضبطت كلمة كنس الأخيرة بكسر النون وقد سبق أن الكنس بفتح النون هو بيت الظبى وعلى ذلك فإن ضبطها بالكسر غير صحيح .

٧ - فى الصفحة ٩٦ ورد البيت التالى من شعر أبى الطيب :

أىُّ الملوكِ وهُمْ قَصْدِي ، أُحَاذِرُهُ

وأىُّ قِرْنٍ وهُمْ سَيفِى وهمْ تُرُسِى ؟

وجاء فى شرحه : " . . . وترسى الذى أحرس نفسى بهم " والصواب وهم تُرُسى الذين أحمى بهم نفسى ، بالجمع بدليل أنه قال : بهم ولم يقل به .

٨ - فى الصفحة ٣٠٣ جاء بيت أبى الطيب :

وأنَّكَ لا تجودُ على جَوادٍ

هِباتُكَ أن يُلقَّبَ بِالجَوادِ

وجاء فى شرحه : " أن هباتك أبت أن يقلب أحد بالجواد غيرك "

والصحيح هو : " أن يلقب بالجواد " .

٩ - فى الصفحة ٣١٢ جاء البيت التالى من شعر المتنبى :

لَحَاهَا اللهُ إلا مَا مَاضِيَيْهَا

زَمانَ اللّهْوِ والخَوْدَ الشَّمُوعَا

ولا يستقيم الوزن بوجود ما قبل ماضييها فتحذف .

★★★

١٠ - فى الصفحة ١٣ من الجزء الثانى ورد البيت التالى من شعر أبى الطيب :

لِجنِّيَّةٍ أمْ غَادَةٍ رُفِعَ السَّجْفُ !

لِوَحْشيَّةٍ ؟ لاَ ، مَا لِوَحْشِيَّةٍ شَنَفُ

وقد ضبطت كلمة (شنف) بفتح النون ولا يستقيم الوزن بذلك وينبغى أن تضبط بالسكون .

١١ - فى الصفحة نفسها ورد هذا البيت لأبى الطيب :

نَفُورٌ ، عَرَتْهَا نَفْرَةٌ فَتَجاذَبَتْ

سَوَالِفُهَا والحَلْىُ والخصْرُ والرِّدْفُ

وجاء فى الشرح : " أن هذه الجارية نفور فلئن رمقن طرفاً إليها ، نفرت منا . . . "

ولا يستقيم المعنى بهذا وإنما يستقيم إذا قلنا : فلئن رمقنا طرفاً إليها نفرت منا " .

١٢ - وفى الصفحة ١٤ أيضاً جاء بيت المتنبى :

وَخَيَّلَ مِنها مِرْطُها فَكأنَّمَا

تَثَنَّى لنَا خُوطٌ ولاحَظَنَا خِشْفُ

وجاء فى الشرح : " ... كأنما تمايل مرط بان " ولعلها خوط بان .

١٣ - فى الصفحة ١٨ جاء بيت المتنبى :

جَوَادٌ سَمَتْ فى الخَيرِ والشرِّ كَفُّهُ

سَمُواً أوَدَّ الدَّهرَ أن اسمهُ كَفُّ

وضبطت كلمة (سموا) بفتح السين والصحيح هو (سُمواً) بضم السين .

١٤ - فى الصفحة ٢١ ورد البيت التالى للمتنبى:

تَفكُّرُهُ عِلم ، ومَنطِقُهُ حُكْمٌ

وبَاطِنُهُ دَيْنٌ ، وظَاهِرهُ ظَرفُ

وقد ضبطت كلمة (دين) بفتح الدال ولا يستقيم المعنى بذلك وإنما بضبطها بكسر الدال .

١٥ - فى الصفحة ٧٥ ورد بيت أبى الطيب :

وامْسَحَا ثَوبَهُ البَقِيرَ عَلَى دَا

ئِكُمَا تُشفِيَا مِنَ الإعْلاَلِ

قد ضبطت التاء فى (تشفيا) بالضم بينما ضبطت الفاء بالكسر .

والصواب : إما ضبط التاء بالفتح وضبط الفاء بالفتح (تَشْفَيَا) أو ضبط التاء بالضم وضبط الفاء بالفتح (تُشْفَيَا) فتكون ألف الاثنين فى الأولى فاعلاً وفى الأخرى نائب فاعل .

١٦ - فى الصفحة ٧٨ ورد بيت المتنبى :

وَاغْتِفارٌ لَوْ غَيَّرَ السُّخطُ مِنهُ

جُعِلتْ هَامُهُمُ نِعَالُ النِّعَالِ

وقد ضبطت كلمة نعال بضم اللام والصواب فتحها لأنها مفعول به .

١٧ - فى الصفحة ١٢٧ ورد بيت المتنبى :

ومَهْمَةٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِى

تَعجِزُ عَنهُ العَرَامِسَ الذُّلُلُ

وقد ضبطت كلمة (مهمة) بتاء مربوطة فى آخرها ، وجاء فى الشرح : أن المهمة (بتاء مربوطة) هى المفازة والصحيح

أن الكلمة : (مهمه) بهاء مهملة لا بتاء مربوطة وقد تكرر هذا عدة مرات سنشير إلى كل منها فى موضعه .

١٨ - فى الصفحة ١٩٠ جاء هذا البيت للمتنبى :

مَنْ ليسَ مِنْ قَتْلاَهُ مِنْ طُلَقَائِهِ

مَنْ ليسَ مِمَّنْ دَانَ مِمَّنْ حَيَّنَا

وجاء فى الشرح أن (طلقائه) جمع الطلائق والصحيح أن (الطلقاء) جمع (الطليق) .

١٩ - فى الصفحة ٢١٠ جاء هذا البيت لأبى الطيب :

وَذَا انْصِرَافِى إلى مَحَلّى

آآذِنٌ لِى أيُّهَا الأميرُ ؟

وفى البيت بهذه الصيغة زحاف ولو عدل إلى : (آآذِنٌ أنت أيُّهَا الأمِيرُ) لاستقام الوزن .

٢٠ - فى الصفحة ٢٩٨ ورد البيت التالى لأبى الطيب :

وتَسْحَبُ الحِبَرَ القَيْنَاتُ رَافِلَةً

فى جُودِهِ وتَجُرُّ الخَيْلُ أرْسَانَا

وجاء فى شرحه : "ورافلة : متبخرة" .

والصحيح أن معنى رافلة متبخترة لا متبخرة .

٢١ - فى الصفحة ٥٢٤ جاء بيت المتنبى :

ورُبَّمَا أُشْهِدُ الطعَامَ مَعِى

مَنْ لاَ يُسَاوِى الخُبْزَ الذِى أكَلَهْ

وجاء فى شرحه أن : أشهد فعل مالم يسم فاعله والواقع أنه فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره أنا ولو كان مبنياً للمجهول لكانت الدال مفتوحة .

٢٢ - فى الصفحة ٥٣٦ وردت عبارة فى الشرح تقول : فكثر غاشيه وسائله ، وضبطت كلمة سائله بكسر اللام والصواب ضمها لأنها معطوفة على فاعل مرفوع .

★★★

٢٣ - فى الجزء الثالث فى الصفحة ٢٩ جاء بيت أبى الطيب :

فى سَبِيلِ العُلاَ قِتَالُكَ والسِّلْـ

ـمُ وهذَا المُقَامُ والإجْذَامُ

وجاء فى شرحه : " . . . فتنال معالٍ مع معاليك "

وقد ضبطت اللام فى (معال) بكسرتين تحتها والصواب أن تثبت الياء وتوضع فوقها فتحة (معالىَ) أو يكون التنوين بفتحتين (معالياً) .

٢٤ - فى الصفحة ٨١ ورد بيت أبى الطيب :

للهِ قَلبُكَ ! ما تخَافُ مِنَ الرَّدىَ
وتَخَافُ أنْ يَدنُوا إليكَ العَارُ

وقد وضع فى آخر كلمة (يدنو) ألف وليس لهذه الألف موضع فالواو فى (يدنو) ليست واو الجماعة على أن فى البيت ضرورة أوحيث تقدير الفتحة على الواو مع أنها تظهر على المعتل بالواو وكان يمكن أن يقال (أن يدنى) بألف لينة فى آخره ولكن يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره .

٢٥ - فى الصفحة ١٢٦ جاء بيت أبى الطيب :

يُقَصِّرُ عَنْ يَمِينِكَ كُلُّ بَحرٍ
وَعَمَّا لَم تُلقهِ مَا الاقَا

وقد ضبطت كلمة (تلقه) بضم التاء وسكون اللام وكسر القاف وكسر الهاء وبهذا الضبط يختل الوزن والمعنى .

والصحيح هو ضبط كلمة (تلقه) بضم التاء وكسر اللام وسكون القاف وضم الهاء فبذلك يستقيم الوزن والمعنى لأن كلمة (تلقه) من الإلاقة كما جاء فى الشرح وليست من الإلقاء .

٢٦ - فى الصفحة ٢٧٦ جاء بيت أبى الطيب:

هَذَا المُعَدُّ لِرَيْبِ الدهر مُنْصَلِتاً
أعدُّ هَذا الرأسِ الفَارِسِ البَطَلِ

وقد وردت كلمة الرأس معرَّفة مجرورة وهذا لا يستقيم وزناً ولا معنى ولا نحواً .

والصحيح هو (أعد هذا لرأس الفارس البطل) بحرف جر هو اللام وكسر السين بدون تنوين لأنها مضاف ولعل الأصوب أن تكون كلمة (أعد) على البناء للمجهول لأنها إذا كانت بصيغة الماضى لم يتضح الفاعل .

٢٧ - فى الصفحة ٣٥٦ جاء بيت أبى الطيب :

أَيَدْرِى مَا أرَابَكَ مَنْ يُرِيبُ ؟
وهَلْ تَرقَى إلى الفُلْكِ الخُطُوبُ !؟

وقد ضبطت كلمة (الفلك) بضم الفاء وسكون اللام ولا يستقيم المعنى بهذا الضبط فالفلك (أى السفن) معرضة للخطوب ولكن الصحيح هو (الفلك) بفتح الفاء واللام وهو لا ترقى إليه الخطوب فيما نعلم .

٢٨ - فى الصفحة ٣٨٧ جاء هذا البيت من شعر المتنبى :

قَدْ فَضَّلُوا بِفَضْلِكَ القَبَائلاَ

وقد ضبطت كلمة (فَضَّلوا) بتشديد الضاد والصحيح الذى يظهر من سياق القصيدة أن كلمة (فَضَلوا) بفتح الضاد دون تشديد لأنه ينسب الفضل إليهم ولا ينفيه عنهم .

٢٩ - فى الصفحة ٤٢٥ جاء بيت المتنبى :

وكيفَ تُرَجِّى الرُّومُ والرُّوسُ هَدْمَهَا
وذَا الطَّعْنُ أَسَاسٌ لَهَا ودَعَائِمُ !

وقد وردت كلمة (أساس) بهمزة مفتوحة غير ممدودة وبذلك لا يستقيم الوزن وإنما يستقيم إذا مدت الهمزة فصارت (آساس) .

٣٠ - فى الصفحة ٤٤٣ جاء بيت المتنبى :

اَذَا الحَرْبِ قَدْ أتعَبَتْهَا فَالْهَ سَاعَةً
لِيُغْمَدَ نَصْلٌ أو يُحَلَّ حِزامُ

وقد ضبطت كلمة (فاله) بفتح الهاء ، والصواب ضم هاء (فاله) دلالة على أن حرف العلة المحذوف هو الواو لأن المضارع (يلهو) لا (يلهى) .

٣١ - فى الصفحة ٤٦٤ جاء بيت المتنبى :

وفِيكَ إذَا جَنَى الجَانِى أنَـاةٌ
تُظُنُّ كَرَامَةً وهِىَ احتِقَارُ

وقد ضبطت كلمة (تظن) بضم التاء وضم الظاء ولا يستقيم المعنى بذلك فما

فاعل تظن ؟ ولكن الصحيح هو تظن بضم التاء وفتح الظاء على البناء للمجهول ونائب الفاعل مستتر يعود على أناة .

٣٢ - فى الصفحة ٤٦٥ جاء بيت المتنبى :

فَأَقْرَحَتْ الَمقَاودُ ذِفرَيَيْهَا
وَصَعَّرَ خَدَّهَا هَذَا العِذَارُ

وقد ضبطت كلمة أقرحت بسكون على تاء التأنيث ولا يصح ذلك لالتقاء الساكنين وإنما تحرك بالكسر .

٣٣ - فى الصفحة ٤٩٤ جاء بيت أبى الطيب :

قَارَعَتْ رُمحَكَ الرِّمَاحُ ولكِنْ
تَرَكَ الرَّامِحِينَ رُمحُكَ عُزْلاَ

وقد ضبطت كلمة (رمحك) فى الشطر الثانى بضم الحاء والصواب أن تكون الحاء مفتوحة لأن الكلمة منصوبة مفعولاً به .

٣٤ - فى الصفحة ٤٩٥ ورد بيت المتنبى :

وَلَكَشَفْتَ ذَا الحَنِينِ بِضَرب
طَالَمَا كَشَّفَ الكُرُوبَ وَجَلَّى

وقد ضبطت كلمة الحنينِ بكسر فى آخرها على أساس أن ذا بمعنى صاحب والحقيقة أنها اسم إشارة بمعنى هذا كما جاء فى الشرح وبهذا المعنى تكون (الحنين) منصوبة لأنها بدل من اسم الإشارة ذا .

٣٥ - فى الصفحة ٥٠٩ جاء بيت أبى الطيب :

وإذَا حاوَلَتْ طِعَانَكَ خَيلٌ
ابصَرَتْ أذرُعَ القَنَا أميَالاً

وقد ضبطت كلمة حاولت بسكون على اللام وفتحة على التاء ولا يستقيم الوزن بذلك ولا المعنى وإنما يستقيم بفتح اللام وتسكين التاء .

٣٦ - فى الصفحة ٥٤٨ جاء بيت المتنبى :

والنَّقْعُ يأخُذُ حرَّاناً وبَقْعتَهَا
والشمسُ تُسْفِرُ أحيَاناً وتَلتَثِمُ

وقد ضبطت كلمة (بقعتها) بكسر التاء ولا موجب للكسر وإنما يجب فتحها لأن بقعتها معطوفة على حران وهى منصوبة للمفعولية .

٣٧ - فى الصفحة ٥٦١ ورد بيت المتنبى :

إذَا تَذكَّرْتَ ما بَيْنِى وَبينكُمُ

أعَانَ قَلبِي عَلَى الشَّوقِ الذى أجِدُ

وقد ضبطت كلمة تذكرت بفتح التاء الأخيرة ولكن الصحيح هو الضم لأنها للمتكلم .

٣٨ - فى الصفحة ٥٦٥ ورد بيت عبدة بن الطبيب فى رثاء قيس بن عاصم المنقرى يقول فيه :

فَمَا كانَ قَيسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ آدم

ولكنَّهُ بُنْيانُ قَومٍ تَهَدَّمَا

والمعروف أن البيت هكذا :

فَمَا كانَ قَيسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ واحد

ولكنَّهُ بُنْيانُ قَومٍ تَهَدَّمَا

★★★

٣٩ - فى الصفحة ٥٧٩ جاء بيت المتنبى :

مَا لنَا كُلُّنا جَوِى يا رَسُولُ ؟!

أنا أهْوى وَقلبُكَ المَتْبُولُ

وقد ضبطت كلمة (جوى) بكسر الواو وبعدها ياء ولا يصح ذلك وإنما يصح أن يقال :

مَا لنَا كُلُّنا جَوٍ يا رَسُولُ ؟! بتنوين الواو وحذف الياء فالتنوين عوض عن الياء .

٤٠ - وفى الجزء الرابع فى الصفحة ١٩ جاءت أبيات لعبد الرحمن بن دارة يقول فى أحدها :

وَبِيعُوا الرُّدَيْنِيَّات بالخَمِرِ وَاقعُدوا

عَلَى الذّل وابتَاعُو المغَازِلَ بِالنبلِ

وقد ضبطت كلمة (بالخمر) بكسر الميم ولا يتفق ذلك مع الوزن وإنما حقها أن تُسَكَّن الميم . وجاءت فيها كلمة (وابتاعوا) بدون ألف الجماعة .

٤١ - وفى الصفحة ١٧٧ جاء بيت المتنبى :

جَزَى عَرَباً أمْسَتْ بِبَلْبِيسَ رَبُّهَا
بِمَسْعَاتِهَا تَقَرّ بِذَاكَ عُيُونُهَا

وجاء فى الشرح " وروى بِبُلْبَيْس " وهو مكان بأعلى الشام دون مصر على بحر القلزم .

قلت : وليست بلبيس بأعلى الشام ولا أدناه ، ولا تقع على بحر القلزم ، وإنما تقع على فرع النيل الممتد إلى مدن قناة السويس وهى قريبة من القاهرة ، وتقع فى محافظة الشرقية ، وليست قريبة من بحر القلزم ، وأبو العلاء معذور فى قوله هذا ، فما هو رحالة يجوب البلدان ، ولعله أخذ هذه المعلومات من كتاب : ياقوت الحموى « معجم البلدان » وهذا الكتاب لا يصح الرجوع إليه أو الاعتماد عليه فى تحديد المواقع ، واسألوا علامة الجزيرة ، الشيخ حمد الجاسر ، فهو قد وقع فى حرج من طلاب مدرسة فى ينبع ، كان يدرس فيها ، عندما اعتمد على قول ياقوت عن جبل رضوى ، أنه جبل قرب المدينة وأشار له أحد طلابه من خلال النافذة إلى جبل رضوى الذى يربض قرب ينبع ، وبعد هذه الملاحظة الجريئة لم يعد الشيخ حمد الجاسر ، يعتبر الكتب القديمة فى تحديد المواقع وإنما يذهب ويقف عليها ويحقق مواقعها بنفسه ، وقد أفاد بذلك من يقرأ كتبه عن المواقع فى جزيرة العرب فائدة عظمى .

وإنى أدعو أن ينتدب المجمع من بين أعضائه فريقاً يقوم بمراجعة المواقع المذكورة فى كتاب ياقوت ، ويصحح مواقعها ويحددها بمقاييس محددة بالأكيال والزوايا حتى يعود الكتاب مرجعاً صحيحاً للمعلومات .

٤٢ - وفى الصفحة ٢٣٨ ، جاء بيت لأبى الطيب هو :

وَمَنْ ضَاقَتِ الأرضُ عَنْ نَفسِهِ
حَرًى أن يَضِيقَ بِهَا جِسْمُهُ

وقد ضبطت كلمة (حرى) بفتحتين على الراء والصواب أن تكون الراء مضبوطة بكسرتين تحتها وأن تحذف الألف اللينة .

٤٣ - وفى الصفحة ٢٤١ جاء البيت التالى المنسوب للأخطل :

كأنّ يَدَيْهَا حِينَ جَدَّ نَجَاؤهَا

طَرِيدانِ والرِّجْلانِ طَالِبَتَا وِتْراَ

والصحيح هو :

كأنّ يَدَيْهَا حِينَ جَدَّ نَجَاؤهَا

طَرِيدانِ والرِّجْلانِ طَالِبَتَا وِتْرِ

بصرف النظر عن اختلاف الروايات فى صدر البيت .

٤٤ - وفى الصفحة ٢٥٧ ورد البيت التالى ، للمتنبى :

عَلَّى نَسَائك تَجلُوا...... مُنذُ سَنْبهُ

وقد وضعت ألف الجماعة بعد واو تجلو وليس لها موضع هنا .

٤٥ - فى الصفحة ٣١٤ ، جاء بيت أبى الطيب :

رَجَوْنَا الذِى يَرْجُونَهُ فى كُلِّ جَنَّةٍ

بِأَرْجَانَ حَتى مَا يِئسنَا مِنَ الخُلدِ

وقد وردت كلمة يرجونه بهاء الغائب والصحيح حذفها لئلا يختل الوزن .

٤٦ - فى الصفحة ٣٦٢ جاء بيت المتنبى :

لَا تَلْقَ أفرَسَ مِنكَ تَعرِفُهُ

إلَّا إذا مَا ضَاقَتْ بكَ الحِيَلُ

ووجود ما وبك فى الشطر الثانى أخل بوزنه فإما (ما) وإلا (بك) ليستقيم الوزن .

إلَّا إِذا مَا ضَاقَت الحِيَلُ (أو) إلا إِذَا ضَاقَتْ بكَ الحِيَل .

٤٧ - فى الصفحة ٣٩٧ جاء بيت لأبى الطيب من الرجز :

دَانِيَ الخَنَانِيص مِنَ الأشبَالِ

وقد ضبطت كلمة دانِى بفتحة على الياء وهذا يكسر البيت .

٤٨ - فى الصفحة ٤٣٢ ، جاء بيت للمتنبى :

نظرت من طبعه إلى ملكٍ

يغضى حماة الشامِ من خُلُقه

ولا يستقيم الوزن إلا بمد الألف من كلمة الشام فتصبح : الشآم من خلقه .

٤٩ - فى الصفحة ٤٣٣ جاء بيت للمتنبى :

وهَلْ أنَا بَعْدكُمْ عَائِشٌ

وقد بِنْتَ عَنّى وبَانَ السَّكَنْ ؟!

وقد ضبطت كلمة بعدكم بسكون الميم ولا يستقيم الوزن بذلك ، والصواب أن تضبط بضم الميم أو يزاد فى البيت كلمة من فيقال : (وهَلْ أنَا من بَعْدكُمْ عَائِشٌ) ليستقيم الوزن .

٥٠ - فى الصفحة ٤٤٢ ، ورد بيت لأبى الطيب :

نُوبِيَّةٌ لَمْ تَدْرِ أنَّ بُنَيَّهَا النُّوبِـ

ـبِىَّ بَعْدَ اللهِ يُعْبَدُ فى مِصرَا

والبيت بهذا الشكل فيه زحاف ، ويمكن أن يستقيم إذا كان هكذا :

نُوبِيبَّةٌ لَمْ تَدْرِ أنَّ بُنَيَّهَا النُّـ

ـوَيْبِىَّ بَعْدَ اللهِ يُعْبَدَ فى مِصرَا

وذلك بتصغير نوبية .

٥١ - وفى الصفحة ٤٤٣ ، جاء بيت لأبى الطيب :

فإِنْ بَلَغَتْ نَفْسِى المُنَا فَبِعَزْمِهَا

وإلا فَقَدْ أبلَغتُ فى حِرِصِهَا عُذْرا

وجاءت كلمة المنا بألف ممدودة والصحيح قصرها لأنها من أصل يائى .

٥٢ - وفى الصفحة ٤٤٤ ، جاء بيت للمتنبى :

بِيَدَىَّ أيُّهَا الأمير الأرِيبُ

لا لِشَىْءٍ إلا لأنّى غَرِيبُ

وقد ضبطت كلمة بيدى بفتح الدال وتشديد الياء ولا يستقيم الوزن بذلك والصحيح هو كسر الدال وسكون الياء .

★★★

وبعد :

فهذه اثنتان وخمسون ملحوظة لاحظتها ، أثناء قراءتى لهذا الكتاب النفيس ، وأرجو أن أكون قد وفقت فى بيانها .

والله الموفق ..

يحيى عبد الله المعلمى

عضو المجمع المراسل من السعودية



شخصيات مجمعية

استقبال ثلاثة أعضاء علميين جدد

في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء الموافق ٢ من ديسمبر سنة ١٩٩٢ م أقام المجمع حفلا لاستقبال ثلاثة أعضاء علميين جدد ، هم :

- الأستاذ الدكتور سيد رمضان هدارة
- الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد
- الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح

وقد بدأ الحفل بكلمة الأستاذ الدكتور محمود مختار في استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور سيد رمضان هدارة ، وتلاه الأستاذ الدكتور سيد رمضان هدارة فألقى كلمته .

وبعد ذلك ألقى الأستاذ الدكتور محمد يوسف حسن كلمة في استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد وتلاه الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد فألقى كلمته .

وأخيراً ألقى الأستاذ الدكتور محمود حافظ عضو المجمع كلمة في استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح وتبعه الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح بإلقاء كلمته .

وفيما يلي نص الكلمات التي ألقيت في الحفل .

كلمة المجمع فى استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور سيد رمضان هدّارة

للأستاذ الدكتور محمود مختار
عضو المجمع

السيد الأستاذ الكبير الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع :

السادة الزملاء الأجلاء أعضاء المجمع: سيداتى وسادتى ضيوف الحفل :

إنه لشرف أعتز به أن أنوب عن مجمع اللغة العربية العريق فى إلقاء كلمة الاستقبال والترحيب بدخول نجم من نجوم اللغة العربية العلمية إلى محرابه ليتبوأ مكانا بين سدنته ويحظى بشرف خدمة اللغة العربية الخالدة بخلود القرآن الكريم ، ذلك هو الأستاذ الدكتور سيد رمضان هدارة ، الذى أتوجه إليه بخالص التهنئة والتقدير على هذا الاختيار الذى صادف أهله ،والذى توج به عطاءاته وإنجازاته المطردة للغة العربية العلمية علىّ مدى امتد لأكثر من نصف قرن من الزمان منذ أن تخرج فى كلية العلوم بجامعة القاهرة وتجلت موهبته العلمية واللغوية حتى أضحى اليوم علما من أعلامها استحق عليه شرف الانتماء إلى هذا المجمع العريق عضواً عاملا فيه .

عمل الدكتور سيد رمضان هدارة خبيرا علميا بالمجمع فأ اللغة العربية العلمية بإنتاج وافر متميز فى مجال حضارى هام ، مجال يضعها فى مصاف اللغات المتقدمة فى العلوم والتقنيات الحديثة كما ظلت هى اللغة الرائدة فى العلوم الإنسانية والأدبية والاجتماعية على مدى قرون طويلة .

وإنى إذ أقوم اليوم بتقديم زميلى وأخى وابنى الدكتور رمضان هدارة عضوا عاملا بمجمع الخالدين أذكر كلمة ما زالت تتردد فى سمعى ، قالها رائد الفيزيقا الأول فى مصر الأستاذ مصطفى نظيف عند اختياره للدكتور سيد رمضان هدارة خبيرا علميا به عام ١٩٧٠ أى منذ أكثر من

عشـرين عاما ، إذ قـال : "أهدى المجمع زهرة ناضجـة فى العلم واللغـة" . كانت كلمته هذه وساما يسـجل له مكانته العلمية واللغوية مـعا ويبشـر بمستقبل وضـاء تحقق اليـوم فى خدمـة المجمع واللغـة العلميـة العربية .

والمجمع إذ يستقبل اليوم الدكتور سيد رمضان هدارة عضوا عـاملا به يستحق هو أيضا التـهنئة على حسن اخـتياره للأسـتاذ الذى جـمع بين العلم التطبـيـقى الحـديث وماحـققه من منجـزات خارقـة وبين اللغة العربـية الأصيلة ومـالها من قـدرات على التجدد المستمر ومواكبة ركب الحياة الحديثة فى كل زمان ومكان واتخاذ مكان لائق بين لغات العالم المتحضر .

وقد بدت المكانة العلمية للدكتور سيد رمـــضـــان هـــدارة تزهو منذ عـــام ١٩٤٢ بتخرجـه فى كلية العلوم طالبا متـميزا فى الفيـزيقا والرياضيـات ثم باحثا علمـيا فى الفيزيقـا فى مصر ثم فى إنجلترا متخـصصا فى أحدث مجـالات الفيزيقا وأهـمها وهو الأشعة الكونية التى نعلم أنها تغمر الأرض قادمة من أغوار الكون السحيق حاملة معها العـديد من أسراره وخـبـاياه التى تنم عن الإعـجـــاز المتناهى فـى الخلق والإبداع ، وأقام الدكتور رمضان هدارة أول تلسكوب لرصـد هذه الأشـعـة الكونيـة فى مـصـر لدراسة طبـيعـتها ومكوناتهـا وبخاصـة ما تحويه من ميزونات أى الجسيمات المشحونة الأولية ذات الكتلة المتوسطة بين الإلكترون والبـروتون. وكـانت مدرسـتـه هى أولى المدارس البحثـية فى مصر والبـلاد العربية فى هذا المجال .

ولما تجلت مواهبه العلمية ، تم اختياره لإنشاء أول مـعهد قـومى للفيزيقـا خارج الجـامعـات وهو المعهـد القـومى للقيـاس والمعايـرة عام ١٩٦٥ ليكون حجـر الزاوية فى خدمة جميع البحوث العلمية والتطبيقية والصناعية التى تعتمد على القياس الدقيق، وما زال المعهد صرحا من صروحنا العلمية الشـامـخة . وترالـت إنجازات الدكـتـور رمضـــان هدارة ونضجت قـدراته العلمـية فاختير أمينا عـاما لأكاديمية البحث العلمى والتكنولـوجـيـا لتنشـيط إقـامـة مـدارس للبحوث التطبيقيـة فيها ، وكان يطلق عليه دينامو الأكاديمية، وعند إنشاء وزارة البحث العلمى عين الدكتور رمـضان هدارة وكيلا أول لها للإسهام فى إرسـاء سياسة البحث

العلمى على أسس ثابتة ومستقرة لخدمة الاقتصاد القومى ووضع السياسات العلمية للبحوث المتقدمة ، ومن الجدير بالذكر أن هذه المراكز العلمية الرفيعة لم تشغله عن ممارسة نشاطه العلمى الأصيل ، فظل يوالى نشاطه أستاذا باحثا فى الإشعاعات المؤينة بالمعهد القومى للقياس والمعايرة حتى اليوم ، وقد وضع فيه حجر الأساس لإنشاء معهد قومى للإشعاع وقياساته .

وللدكتور سيد رمضان هدارة بصمات واضحة أخرى فى العديد من الهيئات العلمية فهو عضو مجلس بحوث العلوم الأساسية بالأكاديمية ، وهو نائب رئيس اللجنة القومية للفيزيقا فى مصر و عضو مؤسس لها . وعمل فى عدد من الهيئات والجمعيات العلمية ؛ منها الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والفيزيقية والجمعية الفيزيقية المصرية ، وهو من أنشط الدعاة إلى التعريف بأهمية العلم وعلاقته بالمجتمع ، حتى سجلت أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا اسمه بين رواد العلوم الفيزيقية فى مصر فى كتابها عن تأريخ العلوم فى مصر .

سيدى الرئيس - سادتى :

هذه صورة مقتضبة عن الدكتور سيد رمضان هدارة الأستاذ العلمى الفيزيقى .

أما صورة الدكتور سيد رمضان هدارة الأستاذ العلمى اللغوى فهى لا تقل بهاء وبريقا . فقد شغل منذ أمد بعيد بقضية القضايا فى العالم العربى وهى قضية اللغة العربية العلمية وتعريب العلوم حتى أصبح من أكبر دعاتها ، إيمانا منه بأن اللغة العربية هى الأمة العربية ، وأن العلم ليس دخيلا على هذه الأمة ، بل هو عنصر أصيل كامن فيها ، وفى هذا يقول الدكتور سيد رمضان هدارة فى أحد أحاديثه : إن اللغة العربية التى ظلت على مدى العصور لغة الدين والأدب والإنسانية والاجتماع صالحة صلاح الإسلام نفسه فى جميع جوانبه لحياة البشر ، لا يمكن أن تعجز أو تتخلف عن ارتياد آفاق العلم التطبيقى الحديث بنفس القدرة والكفاءة ، وهى وإن كانت قد تأخرت بعض الوقت عن هذا الركب الحضارى تحت ضغط الهجمات الاستعمارية الشرسة إلا أنها مازالت تحتفظ فى داخلها بعنصر الأصالة الكامن فيها ، أما المزاعم التى ينادى بها بعض أعدائها بقصورها عن مجاراة العلوم الحديثة فتلك

هى سياسة الغالب تجاه المغلوب ؛ لضمان تبعيته اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا . ويوالى الدكتور سيد رمضان هدارة رفضه القاطع لمثل هذه المزاعم السقيمة بكلمة فيها شيء من المرارة يقول فيها : "قد يكون من الطبيعى أن نسمع هذه النغمة المرذولة من أعداء يكيدون للأمة العربية ولكن المفزع حقا أن يكون نفر من بين هؤلاء الأعداء من بنيها عن قصد أو غير قصد" .

كل هذه الآراء والمزاعم عبر عنها الدكتور سيد رمضان هدارة ورددها فى عدد من المؤتمرات والندوات والإذاعات والمجلات فى أسلوب عذب قوى . ومن بين كلماته المأثورة عن تعريب التعليم بالكليات العملية الجامعية : "إن تلقى العلم بلسان أجنبى كارثة بعيدة المدى لإعاقة التقدم الحضارى ودعوة مرذولة لنشر التبعية والانتماء الفكرى وجريمة فى حق اللغة العربية" .

ولم تقتصر جهود الدكتور سيد رمضان هدارة على الأحاديث والمجلات، بل إنه أيدها وأرساها بجهود علمية بناءة فقد كان يحاضر فى موضوعات الفيزيقا بالعربية فى الصفوف الأولى بالجامعة وبالإنجليزية فى الصفوف العالية ، وكان قريبا لنفوس طلابه تلين فى عباراته أعقد المسائل بأى من اللغتين . وألف فيها الكتب الدراسية وترجم العديد من الكتب العلمية المرجعية أذكر منها .

– الطبيعة النووية لهيزنبرج وبه ٣٣٦ صفحة ونشر عام ٥٦

– الفيزيقا للجامعات (هارفى هوايت) وبه ١١٠٠ صفحة ونشر عام ٦٤

– تجارب فى الذريات (برانلى) وبه ١٩٠ صفحة ونشر عام ٦١

– أصوات لاتسمع (فوق السمعيات) (فدريا نستف) ١٨٣ صفحة ونشر عام ٥٧

– مقدمة فى الفيزيقا الذرية والنووية (سمات) ٩١٥ صفحة ونشر عام ٦٧

– المبادىء الأساسية فى الفيزيقا الذرية (بيرنجر) ٥٩٠ صفحة ونشر عام ٦٢

ومن تأليفه : خواص المادة والصوت ١٧٠ صفحة عام ٦٠

– الكهرباء المغنطيسية ٣٢٤ صفحة عام ٦٢

ولم ينس الناحية الثقافية العلمية فى أعماله فكتب فيها وترجم العديد من الكتب العلمية العالمية الثقافية أذكر منها:

– آفاق العلم (باول) ٢٤٣ صفحة نشر عام ٦٠

- المعرفة والتساؤل (فايسكوف) ٢٥٣ صفحة نشر عام ٦٢
- رحلة إلى الفضاء (دويرى) ٢٥٧ صفحة نشر عام ٦٢
- كوكب اسمه الأرض (جاموف) ٢٨١ صفحة نشر عام ٦٦
- حملة مشاعل التكنولوجيا (منستر) ١٦٧ صفحة نشر عام ٦٦
- الحياة والطاقة (أزيموف) ٤٥٨ صفحة نشر عام ٦٨
- هذا الهواء وهذا الماء (بلزويرت) ٢٠٦ صفحة نشر عام ٦٧
- الذرات والطبيعة والإنسان (هانز) ٦١٠ صفحة نشر عام ٧٢

ومن مؤلفاته الثقافية :

- الضوء والألوان ٧٣
- قصة الطيران ٧٢
- الزمن ٧٣
- الطاقة الذرية ٧٣
- باقة من الأضواء ٧٤

وعندما توج جهوده بانضمامه إلى مجمع اللغة العربية خبيرا علميا شارك مشاركة فعالة فى وضع مصطلحات الفيزيقا الحديثة والتعريف بها . وله آراء بناءة فى اختيار المصطلح العلمى العربى ، يقول فيها : "إن السلوك العلمى للفظ قد يكون مطاطا فى بعض التعبيرات الأدبية أو الشعرية أو الفنية التى تتطلب أحيانا تجاوز الدلالة الظاهرة إلى دلالة مجازية أوإيحائية لإضفاء لمسة جذابة من الجمال عليها ، إلاأن اللغة العلمية لها أسلوب محدد صارم الدلالة لايقبل الإيحاء أو الغموض أو اللعب بالألفاظ تحت أى مسمى" . وقد شارك الدكتور رمضان هدارة فى وضع أسس اختيار المصطلح العلمى بالترجمة وبالتعريب بما يضمن سلامة البنيان اللغوى العربى للمصطلح والتعريف بمدلوله تعريفا علميا معجميا سلسا .

بهذه الآراء والأعمال شارك الدكتور سيد رمضان هدارة فى إخراج عدد من المعجمات العلمية الفيزيقية بالمجمع أذكر منها :

- معجم الفيزيقا النووية والإلكترونيات ١٢٠٠ مصطلح
- معجم الفيزيقا الحديثة (جزآن) ٥٠٠٠ مصطلح
- معجم المصطلحات النووية للجنة الطاقة الأمريكية ١٠٠٠ مصطلح .

وعنى الدكتور سيد رمضان هدارة بموضوع الرموز التعبيرية والرسوم الإيضاحية والبيانية وكتابة المعادلات الرياضية باللغة العربية بأسلوب يتفق وطبيعتها ويفى بمتطلبات التطبيقات والتقنيات الحديثة ، وقد شارك فى إخراج كتاب الوحدات والدلالات والرموز للمجمع . وهو يشارك حاليا فى إخراج أكبر موسوعة للفيزيقا الحديثة سوف تشمل ٢٥ ألف مصطلح .

وسيداتى سادتى :

من أجل هذا التاريخ الحافل وهذا الإنتاج المتميز وهذه الجهود الوضاءة فى خدمة اللغة العلمية العربية اختار مجمع اللغة العربية الدكتور سيد رمضان هدارة وهو يرحب به ويستقبله اليوم عضوا عاملا يشغل كرسيا فى مجلسه بين رواده وسدنته عن جدارة ، فهنيئا له وللمجمع .

والله تعالى الموفق والمعين .

محمود مختار

عضو المجمع

كلمة العضو الجديد الأستاذ الدكتور
سيد رمضان هدارة
فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

أستاذى الدكتور إبراهيم مدكور

رئيس المجمع :

الأساتذة أعضاء المجمع :

سيداتى وسادتى :

قيض الله لى شرف الانضمام إلى زمرتكم وجعلكم السبب ، فله الحمد والشكر ، وإنى لأسأله جلت قدرته أن يجزيكم عنى خير الجزاء ، فمهما أوتيت من قوة البيان فلن أستطيع أن أوفيكم حقكم من العرفان بالجميل ، الجميل الذى بلغ ذروته بمنحى شرف صحبتكم فى أداء الرسالة المقدسة التى وقفتم حياتكم عليها. لقد ظللت أكثر من عشرين عاما أعمل فى رحاب مجمعنا هذا ، أنهل من فيض علمكم وأقتدى بكم وأسترشد بحكمتكم ، وها أنتم الآن تمنحوننى فرصة مواصلة المسيرة وتحققون أمنية غالية كنت أدعو الله دائما أن يحققها لى بأن أكون من خدام لغتنا العريقة ، وأسهم فى إزالة ما علق بها من غشاوة حجبت ثراءها ورحابتها عمن عجزوا عن رؤية ما فيها من قدرات تستطيع بها مسايرة كل عصر وكل حضارة.

سيداتى وسادتى :

لقد قدمنى أستاذى الدكتور محمود مختار بما رآه فىَّ من صفات ، وهذه هى رؤية عين الرضا ، وإنى أقولها كلمة حق إنه لولا أستاذى الدكتور مختار ما استطعت أن أخطو خطوة فى مسيرتى خلال الخمسين عاما الماضية ، فهو الأب الحنون والمعلم الأمين والخل الوفى يسعد بدفع أبنائه وتلاميذه وخلانه قدما ويزهو بهم ، يمدهم بالعلم والنصح ما وسعه ذلك . وإنى لأدعو الله أن يمتعه بالصحة والعافية ، وأن يحقق له الدعوات الصالحات التى يدعو له بها الأعداد التى لاحصر لها من أبنائه وتلاميذه لما أمدهم به من فيض علمه وكرمه .

سيداتى وسادتى :

شاء الله أن أخلف عملاقا عظيما ، هو أستاذنا الراحل عبد السلام هارون

رحمه الله، وهذا شرف أزهو به ، ولكنى أشفق على نفسى من العبء الذى يقتضيه هذا الشرف .

فإننى أعتقد أن الخلف محمل بأمانة ومسئولية ضخمة ، أقل ما فيها أن يتخذ من سلفه قدوة ، وأن لا يكون أبطأ منه خطى، ولا أقل عطاء . وهذا هو ما يؤرقنى فنحن أمام عملاق فى العلم والأدب والأخلاق والعطاء قلما يوجد له مثيل ، فسيرته مليئة بالأعمال والمنجزات التى لايضارعه فيها إلا القليل ، وإنى لأدعو الله أن يهبنى القدرة على أن لا يكون مستوى أدائى بعيدا بدرجة كبيرة عن مستواه .

وإننى لن أستطيع تناول سيرته العطرة فى هذا المجال لسببين أولهما : أن أى إنسان مهما أوتى من بيان لا يستطيع تلخيص هذه السيرة الثرية بالأعمال والمواقف تلخيصا يوفيها حقها فى الدقائق المتاحة ، والسبب الثانى هو أنكم ومجتمع المتخصصين أدرى الناس بالدرر التى تركها هذا العالم الجليل ، وفيض النور العظيم الذى أضاء به التراث لينهل منه كل من أراد أن يصل ماضينا بحاضرنا ، ولكنى أستأذنكم فى أن أتحدث عن بعض الخواطر التى تخطر ببالى كلما مر هذا الرجل بذاكرتى وكلما إستعرضت سيرته العطرة ، فهى مليئة بالنقط المضيئة التى تبهر العيون وتستحث الإنسان على أن يتخذه قدوة. فبادىء ذى بدء إننى اعتقد أن الله قد اصطفى هذا الرجل وجعله من الأخيار ، فلقد أنبته نباتا حسنا فى أسرة ذات فضل وعلم فهيأه بذلك للقيام بما قام من أعمال وما أخرج من درر ، وإلا فكيف نفسر اختياره مهنة من أشق المهن فى الأدب ، وهى مهنة تحقيق التراث التى تتطلب صبرا وأناة وأمانة بالإضافة إلى القوة الجسمانية ، وهى فى اعتقادى أشق من الدراسات الأدبية والإبداع والترجمة إذا أنها تتطلب فهما عميقا لأصول اللغة ومعرفة وثيقة بمؤلف الكتاب وأسلوبه ، واستيعابا للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والشعر والشعراء والنثر والكتاب ، وما إلى ذلك من معلومات ومعارف لا يستغنى عنها المحقق المدقق ، هذا بالإضافة إلى المشقة البدنية فى قراءة المخطوطات ومقابلة النسخ المختلفة للمخطوط الواحد ، والتحقق من التحريف والتصحيف ، وبالرغم من هذه المشقة كلها فقد حقق ما يربو على ١١٥ كتابا وذيلها بالفهارس ، وجدير بالذكر أن

بسماته واضحة على فن الفهرسة وإبداعه فيه لا يخطئه أي باحث ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كتب المقالات ، وأنتج البحوث وألف الكتب . لقد بدأ التحقيق وهو فى السادسة عشرة من عمره وظل يحمل الأمانة حتى توفاه الله وهو على أعتاب الثمانين ولم يشأ أن يؤثر نفسه بهذه الخبرة فى التحقيق فألف كتابا فى تحقيق النصوص ونشرها ليكون هاديا لمن يجد فى نفسه القدرة على انتهاج هذا النهج ، ولقد قدره المجتمع العلمى واعترف بعلمه وهو لا يزال شابا . ولعل أوضح دليل على ذلك انهيار القواعد والتقاليد الجامعية أمامه ، فلقد انتقل من مدرس ابتدائى إلى مدرس بكلية الآداب فى عام ١٩٤٥ أى بعد تخرجه فى دار العلوم بثلاثة عشر عاما ، ثم تدرج في سلك الوظائف الجامعية حتى الأستاذية ، ومن آيات التقدير أن مجمعنا هذا منحه جائزته الأولى فى التحقيق والنشر عام ١٩٥٠ ، كما ظفر بجائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب عام ١٩٨١ .

ولقد كان إلى جانب ذلك كله إنسانا ورعا عطوفا ، وسيرته مليئة بالمواقف التى تتجلى فيها رعايته لتلاميذه ونصرته للحق، ولعلكم بعد هذا كله تتفقون معى على أنه كان مصطفى وكان من الأخيار ،وأنه قدوة حسنة ، وطوبى لمن اقتدى به ونهج نهجه.

سيداتى وسادتى :

لقد قضيت فى رحاب المجمع كما أسلفت أكثر من عشرين عاما ، عملت خلالها خبيرا بلجنة الفيزيقا ، وتعلمت الكثير من أساتذتى الذين أعتز بالتتلمذ لهم، وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، أستاذ الفيزيقيين الأستاذ مصطفى نظيف رحمه الله ، وأستاذى الفاضل الدكتور محمود مختار أمد الله فى عمره ومتعه بالصحة والعافية ، وأستاذى الدكتور محمد مرسى أحمد رحمه الله والأستاذ الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش رحمه الله والأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس رحمه الله وأستاذى الفاضل الدكتور شوقى ضيف متعه الله بالصحة والعافية . لقد تعلمت منهم جميعا أصول المهنة ، وأدعو الله أن يوفقنى لأزيد من جهدى وأسهم فى مجالات أخرى غير مجال الفيزيقا ، وأعاهد الله على أن أبذل ما وسعنى من جهد فى خدمة لغة القرآن الكريم ، وأن أكون عند حسن ظنكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سيد رمضان هدارة

عضو المجمع

كلمة المجمع
فى استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور
عبد الحافظ حلمى محمد

للأستاذ الدكتور محمد يوسف حسن
عضو المجمع

الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور

رئيس مجمع الخالدين :

السادة الخالدون أعضاء المجمع :

أيها السيدات والسادة ضيوفنا الكرام :

إنه ليومٌ جدُّ عظيم ومرموق من أيام مجمع اللغة العربية المجيدة ، نستقبل فيه عضواً جديدا عظيماً ومرموقاً . هو علم من أعلام البيولوجيا ، مرجع عالمىٌ من مراجع علم الأحياء الدقيقة وطفيليات أمراض الحيوان منها على وجه الخصوص، أكاديمىٌّ ثبَت ٌ، معلّمٌ فذّ ، حاذق لفن الصحافة العلمية ، أسطورةٌ فى تبسيط العلوم الطبيعية والتثقيف العلمى للجماهير، مترجمٌ موهوب فنان . وهو أيضا محبٌّ للغة العربية الشريفة ، متيَّمٌ إثرَها ، كَلِفٌ بتقصى أسرارِها ، صارمُ الالتزام بقواعدها وأصولها، منقِّبٌ عن كنوزها ، خبيرٌ بمعادن جواهرها ، عارفٌ ببحور لآلئها ؛ عميقُ الإيمان بقدرتها على استيعاب العلوم الطبيعية تدريساً وبحثا . وشواهد هذا الحب وهذا الإيمان متمثلةٌ بجلاءٍ فى إنجازاته الكثيرة فى هذا المجال : من كتبٍ مؤلَّفة ومترجمة ، ومن بحوثٍ ومقالات علمية نشرتها له كبريات المجلات، واستضافته من أجلها مؤتمرات وندوات فى العالم العربى وخارجه،ومن تبحُّرٍ في تاريخ العلم العربىّ ، وعضوياتٍ مرموقة فى هيئاته ومحافله ، وأبحاث أصيلةٍ وفريدةٍ فيه؛أما إنجازاته العلميةُ المتخصصةُ فغزيرة وثرية ومتميزة ومنشورة فى مجلات علمية عريقة منتشرة فى أطوال المعمورة وعُروضها : بمصرَ والهند والولايات المتحدةِ الأمريكية ، وبريطانيا ، ورومانيا وهولاندا والكويت.وأما عضوياته العلميةُ والأكاديمية فمتنوعة ومرموقة فى مصر وفي خارج مصر .

ذلكم ، أيها السادة ، هو ، عبد الحافظ حلمى محمد الذى تحدث

الإنجليز منذ نيّف وثلاثين سنةً في كبريات دورياتهم العلمية عن رسالته للدكتوراه عندما نشرتها له كاملةً جامعة القاهرة باللغة الإنجليزية التي كُتبت بها ؛ فأشادوا بها عَرْضا ونقداً وتقريظا . وطار اسم «محمد» في الآفاق العلمية هناك بعد هذا العرض ، « ومحمد » هو اسم الشهرة العلمي لعبد الحافظ . وأشاد الباحثون والمطبقون في تخصص مالاريا الطيور في بحوثهم ودراساتهم بتعبيرات مثل « بنية محمد » لطفيلي كذا وكذا ، وغير ذلك من تعبيرات علمية تقترن باسمه في هذا المجال. ذلكم: عبد الحافظ حلمي محمد الذي عاد من بعثته العلمية في بريطانيا إلى مصر في أول العَقد السادس من القرن ليتدرج في مناصب الجامعة حتى تولى عمادة كلية العلوم بجامعة عين شمس في أواسط السبعينيات ؛ والذي تشعب وتنوع نشاطه الأكاديمي في الجامعة ، وفي الجمعيات العلمية ، والمؤتمرات ، ومحافل الفكر والثقافة ، ومضامير الصحافة العلمية والتثقيف العلمي للجماهير ؛ فكان فيها كلها العضوَ المبرِّز ، أو المقرر الحاذق ، أو المستشارَ السديدَ الرأي ، أو الخبيرَ النابه أو نائب الرئيس. شغل هذه المناصب في: المجمع المصري للثقافة العلمية ، في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، في أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا ، في جمعية علم الحيوان المصرية وأختها البريطانية ، في الأكاديمية المصرية للعلوم ، في مجلة «العلم» المصرية رائدا من رواد تأسيسها ومستشاراً لها منذ أول السبعينيات حتى اليوم ، وفي مجلة « العلوم » الأمريكية محرراً مرموقا ومترجماً مُجيداً ، وفي جمعية تاريخ وفلسفة العلوم المصرية أميناً عاماً بل راعياً دائما .

هذا ، أيها السادة ، « عبد الحافظ حلمي محمد » الذي لم يغب بعيدا عن وطنه منذ عودته من بعثته العلمية ، باستثناء مشاركاته في المؤتمرات العالمية التي يدعى لها ، إلا بعد تاريخ حافل يانع الثمر في خدمة الجامعات والهيئات العلمية والثقافية بمصر ؛ وإلا بعد أن توطدت مكانته الأكاديميةُ وذاع صيته العلمي ، وتخرجت على يديه أجيال من قادة البحث العلمي في وطنه الآن . وعندئذ لبى دعوة من دولة عربية ناشئة في مجال التعليم العالي والبحث الجامعي فأمضى بها

سنوات قدّم فيها خدمات علمية جليلة ، وأسهم بسخاء ونجاح فى إرساء قواعد التعليم العالى والبحث العلمى والثقافة العلمية الجماهيرية بها ؛ كما خدم هناك اللغة العربية فى مجال الاستعمال العلمى، أسهم فى كل هذه الميادين بآثار مشهودة ، مشكورةٍ له ومذكورة، ثم عاد إلى الوطن أستاذًا متفرغاً فى جامعته التى شهدت أوج نجاحاته وإنجازاته ؛عاد مرغوبا فى خدماته وخبراته هنا وهناك من كل المؤسسات التى أخلص لها العمل وأدى الأمانة ، سواء منها التى بالوطن أو التى فى الخارج ، وإن القائمين عليها ليقصدونه دائما أو يراسلونه طامعين في توجيهاته وآرائه وخبراته .

وما إن عاد عبد الحافظ إلى الوطن حتى عاوده الشوق القديم يدفعه بكل حرارة إلى محط اهتماماته وأحب معاهد نشاطاته إلى نفسه ، إلى مجمع اللغة العربية ولجنة علوم الأحياء به ، التى عمل بها خبيراً منذ أول السبعينيات ، فأخلص وتفانى وأبدع عدة سنوات حتى اخترتموه عضواً بين الخالدين .

هذه، أيها السادة ، أضواءٌ خاطفة فقط على منجزات عبد الحافظ حلمى العلمية ، ونشاطاته الثقافية ، واجتهاداته فى اللغة العربية لغة للعلوم ، وجهودِه فى نشر الثقافة العلمية ، لم أعدِّد فيها بالتفصيل أو الترتيب الزمنى شهاداتِه وألقابَه العلميةَ ووظائفَه التى تقلّدها وأبحاثه التى أنجزها ونشرها طَوال أربعة عقود من الزمان ، ولم أُحصِ فيها كتبه ومترجماتِه ورياداتِه فى الصحافة العلمية المحلية والعالمية ؛ فهذا كله كان بين أيديكم في ثَبَتٍ وافٍ مضيءٍ بتاريخه العلمى والوظيفى إبان ترشيحه لنيل عضوية مجمعكم الخالد . لكنّ ما هو جدير بألا يفوتنى التنويه به هنا والذى لا تسجله مثلُ هذه الأثبات الرسمية هو عبد الحافظ حلمى الإنسان ، والصديقُ ، ورجلُ المواقف الشجاعُ العاشقُ للحق ، وعبدُ الحافظ المربى والشخصية الموسوعية والثقافية .

وهيهات أن يكفى الوقت المتاح فى هذا المقام للإحاطة بكل ما ذكرت من شيمٍ كرام ؛ وهو فيها جميعا كارم عن كارم فقدكان والده - عليه رحمة الله - مربيًا نموذجيًا ذا تاريخ مشرِّفٍ فى مجال التعليم ، كما كان أيضا محاميا فذاً موهوباً

ذا حجة ساطعة وتاريخ حافل فى عالم المحاماة ، بعد أن ترك مهنة التعليم . وقد كاد عبد الحافظ أن يرث مهنة المحاماة عن والده من شدة ما طُبع عليه من حب فى دعم الحق وإظهاره لولا التحاقه بكلية العلوم . ولالتحاقه بها قصة طريفة ، فقد كان والده - رحمه الله - يرقب دون تدخل اختيار ولده لتخصصه فى السنة النهائية من المرحلة الثانوية . ويبدو أن الوالد كان مرتاحا لاختيار الفتى شعبة الآداب ودخوله فصلا فيها أنشأته المدرسة خاصة لمن يرغب التخصص فى اللغة العربية . ويعترف عبد الحافظ أن الناقدين من أصحابه أنكروا عليه هذا الاختيار ، وتكاثروا عليه متساءلين.هل يرضى أن يمضى حياته معلما للغة العربية ؟ ويعترف أيضا أنه لا يدرى لماذا لان لهم فنقل نفسه إلى شعبة العلوم ، ويبدو أن الوالد لم يرض فى أول الأمر عن هذا التحول حتى التحق الفتى بكلية العلوم ، ودرس علم الحيوان ، فرآه الوالد فيما يرى النائم يذبح جملا ويُخرج من جوفه أشياء كثيرةً ناصعة البياض ، فأوّل الرؤيا بأنها خير كثير يكتبه الله لولده فى دراسة علم الحيوان ، وقد تحققت الرؤيا ، ولو أن الوالد فى بعض المناسبات اللاحقة قال لولده إنه كان يصلح لدراسة القانون والاشتغال بالمحاماة ، فجاء رد الفتى بروح المحامى الأريب مدافعاً عن اختياره فى الوقت نفسه غير منكر ميله واستعداده الفطرى ، قال : « يا أبت إن القوانين الوضعية من صنع الناس ، أما الكائنات الحية التى اخترت دراستها فهى من صنع الله ،وأنا أحب أن أدرس مخلوقات الله » . ومع ذلك فإن عبد الحافظ مارس مهنة المحاماة بالفعل بعد أن تخرّج وصار أستاذًا لعلم الحيوان ! وإن كان ذلك بطريقة غير مباشرة . فقد أتاه صديق ذات يوم متبلبل البال من قضية له كان يائساً من إثبات حقه فيها ، فلما اقتنع عبد الحافظ ببراءته عكف على أوراق القضية وأعد مذكرة قدّمها الصديق للمحكمة فكانت سببا مباشراً لكسبه القضية. هذا موقف كان بساحة المحكمة ، لكن عبد الحافظ وقف نفسه دائما على الذود عن الحق ومساندة أصحابه فى كل مجال وبكل جهد وصدق.

وإذا تحدثت عن عبد الحافظ الإنسان فإنى أبخسه حقه إذا ظننت أنه يمكننى أن أجلىّ ولو بعض جوانب إنسانيته الراقية فى دقائق معدودات . وإنى لأحار فأسائل نفسى : هل أتكلم عن حلمه أم عن مروءته ونجدته ، أم أتكلم عن المفهوم العالى للصداقة عنده ، أم أتكلم عن إيثاره أم عن بشاشته وهشاشته ؟ أم أتكلم عن

تواضعه ؟ أم عن إيمانه وحسن تدينه ؟ أم أتكلم عن وفائه ؟ لكنني أختار هنا بعض الجوانب من كل هذا . فإذا ذكرت البذل والإيثار ، فهو مثال فيهما لم نعد نسمع عنه إلا فى كتب التراث . فما عرفت طوال خمسة وثلاثين عاما من صداقتى له أنه تقاعس يوما عن خدمة إنسانية يمكنه القيام بها سواء فى صورتها المعنوية أم المادية ، بل إنه ليذكِّرنى فى هذه الخَلَّة بهرم ابن سنان الذى قال فيه زهير بن أبى سلمى : « تراه ، إذا ما جئته ، متهلِّلاً

كأنك تعطيه الذى أنت سائله »

فقاصدوه من أصحاب الحاجة وطالبى المشورة لا يخيب قصدهم عنده أبداً ، يلقون عنده البذل الدافع والرأى النافع ، مضافا إليهما الابتسامة الحلوة والكلمة الطيبة والتمنيات الصادقة .

أما عن أمثلة وفائه فهى كُثر ، وأبرزها حديثه عن شيوخه ومعلميه وذكره الدائم لهم ، وعلى رأسهم معلِّمُه الأول والده عليه رحمة الله . كم سمعت منه عن أمثال عبد الحميد النجانى، وعلى الجندى، وأحمد فؤاد الأهوانى من معلميه الذين أثروا فى حياته فى مرحلة ما قبل الجامعة ومن أمثال كامل منصور، ومحمد ولى ، وحماد الحسينى، و شورت، رحمهم الله؛ ورشاد الطوبى ، ومحمود حافظ ، وجارنام : أطال الله في أعمارهم ومتعهم بالصحة من شيوخة الكبار فى مرحلة الجامعة ، يذكر لهم فضلهم دائما ويشيد بعلمهم ويثنى على خلقهم .

أما عن مفهومه للصداقة ، فأنا أعرف الناس به ، فإنه ليعرف المعنى الاسمى لها ، وإنه ليستميت ويضحى بالكثير فى سبيل الحفاظ عليها . وإنه ليخلص لصفيِّه النصح فيصارحه بخطئه إذا كان مخطئا ويحذره ويبصِّرُه ؛ وإنه ليشجعه بكل حماس ويسانده بكل قوة إذا رآه على جادَّة الحق . تقصده لتسرَّ إليه بذات نفسك فيحفظ السر ويمنحك المشورة والرأى الصائب ، وتلجأ إليه بهمومك من أزمة أو محنة فتجد عنده القلب المفتوح الحانى ، وتجد عنده السلوى والمواساة الصادقة ، والكلمة الحلوة التى هى بلسمٌ لجراح النفس .

لقد طالت زمالتى له على صداقة متينة عمراً طويلا نعمت فيها بكل هذا الصفاء والنقاء والمروءة ؛ كنا صديقين صدوقين في السراء والضراء ، وفى اليسر وحين الأزمات ، وكانت تدعم صداقتنا وتزيدها وثوقا اهتماماتٌ مشتركة علمية وروحية وحياتية ، وإن أقوى هذه الاهتمامات التى ربطت بين هذه المناحى جميعا لهى حبنا المشترك للغة العربية ،

اللغةِ العريقةِ المشرَّفة بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، اللغةِ الفاتنةِ الساحرةِ فى فنونها وعلومها . كم التقينا وسعدنا باللقاءات فى خدمة لغة الضاد فى مجال تثبيت مكانتها وشق طريقها وتمهيده للأداء العلمى : من تأليف وتبسيط للعلوم، وترجمة لأمهات الكتب العلمية حديثها وقديمها ،وإحياء وتحقيق للتراث العلمى العربى ،وتحرير للمقالات العلمية. وتخطيط وإصدار للمجلات العلمية ولم تعدم لقاءاتُنا تلك فى رحاب الضاد جلساتِ سمرٍ ممتعة واستمتاع بالروائع من نثر وشعر يرويها أحدنا ويستمع الآخر أويعلّق .

وجمعتنا أيضا صلات أخرى فكريةٌ طوال سنى صداقتنا فى مجالس أحياها اهتمامنا المشترك بعلم الحياة حديثها وقديمها ، وبعلم الأرض : مهدِ الحياة ومهبط العقل ومسرح التطور . ومجالٌ آخر كان يستهوينا الجلوس له ، ذلك مجال تاريخ العلوم الطبيعية وفلسفتُها وبخاصة عند العرب . وعبد الحافظ أستاذٌ مبرِّز فى هذا المضمار . وأخيرا وليس آخرا لا أنسى مجال تبسيط العلوم والصِّحافة العلمية ، كمْ جلسنا وخططنا وبحثنا ، وحلمنا . . فتحققت الأحلام وصار معظمها اليوم واقعا ملموسا .

أما عن عبد الحافظ الشخصية الموسوعية فحدث ولاحرج ، هو طراز نادر فى موسوعيته ، تجد ضالتك عنده فى أى مجال ، إن لم يكن فى الحال ، فبتزويدك بكتاب عنها أو مقال . سألوا برتراند راسل أعظم علماء وفلاسفة القرن العشرين عن المتخصص فأجاب : « هو من يعرف كلَّ شىء عن شىء ، ويعرف شيئاً عن كل شىء » ؛ وهذا خير تعريف لعبد الحافظ حلمى المتخصص المثقف ، الذى أقدمه لكم اليوم أيها السادة الخالدون ليأخذ مكانه علما بينكم ، يؤكد عظمة هذا المجمع الخالد فيما خلا وفيما سيأتى من السنين بمن يجتبى من قمم تجمع بين التعمق والعبقرية فى العلم ، وبين التمكن من اللغة وامتلاك ناصيتها . أقدم لكم الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمى محمد علما تفخر به ساحة الخالدين ، يعيد إلى الذاكرة عبقرية أحمد زكى ، وأستاذيةَ مصطفى نظيف ،وموسوعية عبد الحليم منتصر ، وتفرُّديةَ حامد جوهر . عاش هذا المجمع قلعة للأعلام ومدرسة للأجيال

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد يوسف حسن

عضو المجمع

كلمة العضو الجديد
الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد
في حفل استقباله عضوا بالمجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وليّ التوفيق والنِّعم . .

والصلاة والسلام على رسوله الأمين، الذى أوتى جوامع الكَلِم .

سيدى الأستاذ الجليل رئيس المجمع :

سادتى النُّجب أعضاء المجمع :

أعجِز عن التعبير عن عظيم امتنانى لكم ، وقد أذنتم لى أن أنتسب إليكم وأن أختلف إلى ناديكم ، بعد أن ظللت خبيرا بالمجمع يحوِّم حولكم رَدَحًا من الزمان ، ولا يُلمّ بمجلسكم إلا بضع مرات كلّ عام. ولكنْ ماذا يقول العيِيُّ فى حضرة المصطفين من أئمة الفصاحة وأمراء البيان ؟ ليس له، وقد انعقد لسانه ، إلا أن يَدَعَ فؤاده ينبض بعظيم الثناء عليكم وصادق الدعاء لكم .

أما أخى ، الدكتور محمد يوسف حسن ، فهو يطوِّق جيدى بمآثر جمة : قدّمنى إلى المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية منذ نحو ثلاثة عقود ، ثم زكّانى لديكم ، وها هو اليومَ يجمِّلُنى ويُطْرينى وهو يقدمنى إلى حضرتكم . . . وتلكم منه مِنّة أخرى ! وقد خلع علىّ الأخ الكريم من المديح ما لو صدّقت بعضه لملأنى تيها وغرورا . . «وكم فى العُرس أبهى من عروس» . وإنما هى عينُ الرضا، وإنما هو قلب الصديق المحب العطوف ، جزاه الله وجزى أساتذتى فى لجنة علوم الأحياء والزراعة، عنى خير الجزاء، ورحم عَلَمَيْن عظيمين منهم رحلا عنا هذا العام.

أيها السادة . . لقد كان طريقى إليكم طويلا متشعب السُّبُل ، ويضيق وقتكُم الثمين حتى عن التنويه ببعض معالمه ، فأكتفى بلقطات .

منذ أكثر من نصف قرن من الزمان ، كان الفتى فى الصف الرابع الثانوى ،

أوسنة شهادة الثقافة العامة . وذاتَ صباح ، جاء مفتش اللغة العربية (أو الموجِّه ، كما يتلطفون في وصفه هذه الأيام) ليختبر التلاميذ وأستاذهم . وطلب المفتش من يشرح قول الشاعر :

قبابٌ كما تُزجَى القباب على المها

ولكن من ضُمت عليه أسودُ

فبادر الفتى إلى الإجابة كما تعلَّمها ، ولكن بدا عليه أنه لم يقتنعْ ببعض ما فيها فأردف على استحياء قائلا : وكان الأولى بالشاعر أن يقول : تُرخَى القباب ، لا تُزجَى .... » . ولابدَّ أن الفتى قد أعجبه تقمُّصُ دور الناقد الأدبى ، كمن كان يقرأ لهم فى «رسالة » الزيات و«ثقافة» أحمد أمين ،فاستطرد قائلا : « ولعلها من تصحيف النُسَّاخ ! »

وهنا انقعس المفتش ، وكان سمهريًّ القوام ، وقال : «ما اسمُك ؟» وخيل إلى الفتى أنه قد دخل التاريخ وسُجِّل اسمه بين روَّاد النقد الأدبى عندما دوّن المفتش اسمه فى مفكرته الرسمية ذات الغلافِ السميك.

بل إن سذاجته صوّرت له أن هذه الواقعة كان لها فضلٌ فى فوزه فى مسابقة الأدب العربى التى عقدتها وزارة المعارف فى صيف ذلك العام !

وكان امتحانٌ تحريرى ، ثم امتحان شفوى رأس لجنته المجمعى الكبير الدكتور طه حسين نفسه . وسأل أحد أعضاء اللجنة الفتى : أيظن أن طه حسين يستطيع أن يكتب أدبا فكاهيا ساخرا ، إذا أراد ؟ فردَّ الفتى دون تردُّد : «نعم ، إنه يستطيع، وشاهدى ما قرأناه له الآن فى كتاب الأيام، وهو قوله : وكان الفتى يمشى حافيا فى نَعلَيْه ! » قالها وعيناه شاخصتان إلى عميد الأدب العربىّ . . . وارتاح باله وهدأ رُوعه حين رأى ابتسامته العريضة المشهورة ترتسم على وجهه .

وفى الربيع التالى ، سنة اثنتين وأربعين ، تسلَّم الفتى جائزته من وزير المعارف ، أحمد نجيب الهلالى باشا ، فى حفل متواضع فى ديوان الوزارة حضره أبوه أستاذُه ، رحمه الله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت الجائزة منحة مالية ، ومنحة دراسية فى الجامعة ، ومجموعة منتقاة من كتب الأدب ، يتوجها مصحف شريف فخم الطباعة .. وتضم مجلدين من «العقد الفريد» ، ومجلدا من «إمتاع الأسماع» للمقريزى ، و « مع المتنبى » لطه حسين ، و « ديوان حافظ إبراهيم » وجزءا من «شاهنامة الفردوسى» لعبد الوهاب عزام ، وكتابا مترجما ضخما عن «المجتمع ومشاكله» لجروف ساموبل داَو ، وترجمةً عربيةً لموجز تاريخ العرب لسيد أمير على، وترجمة عرَبية لرواية «الطِّلَّسْم» لسير وولتر سكوت ، وأخرى «للسيمفونية الريفية» لتوماس هاردى !

هذه كلُّها حزموها بشريط رقيق من سندس أخضر . ولم يكن هذا من الحزم فى شيء ، فسرعان ما انفك الرِّباط ، وانفرطت الكتب ، وبذل الفتى غاية جُهده فى لملمتها بين ذراعيه الواهنتين طوال الطريق ... فلما بلغ البيت كانت يداه ترتجفان حتى انسكب على ملابسه قدح القهوة الذى حاولت أمه ، رحمها الله ، إنعاشه به بعد هذا الإرهاق الشديد .

وقد عرف الفتى منذ ذلك اليوم أنه حُمِّل أمانةً ثقيلةً !

وقد قَصَصْتُ عليكم هذه الحكاية ، وأنا أتمنَّى عليكم ، وأنتم رعاةُ العربية وسدنتها الأمناء ، أن يكون للمجمع قولٌ وفعلٌ فى البحث عن الناشئة فى التعليم العام من الموهوبين فى اللغة العربية وتشجيعهم وتعهدهم ..هذا بين الأسباب الكثيرة التى أعلم أنكم تأخذون بها للنهوض باللغة العربية ورفعة شأنها .

ثم لما كان ما كانَ من التحاق الفتى بكلية العلوم ، بدلا من كلية الآداب أو دار العلوم ، ودَّع الفتى هواه وظنَّ «ألا تلاقيا» ولكن خاب ظنه لحسن الحظ ! ..

وذلك أننى بعد أن حزتُ الدكتوراه خرجتُ من وصاية كلية العلوم علىَّ ، مع ولائى لها ووفائى بحقوقها وحقوق العلم علىَّ ، وتأكدَّ لى أننى ، حيثُما مضيت، أحمل اللغة العربية فى فؤادى وعلى

كاهلى الضعيف ، وتحملنى اللغة العربية على متونها القوية . فكانت اللغة العربية عُدَّتى حين قدَّمتُ مقررات بلسانها الفصيح فى كليات العلوم بمصر وبعض البلاد العربية الأخرى - وكليات العلوم لاتزال معاقل للعجمة والرطانة ، وحين كتبت وحاضرت منافحا وداعيا إلى تعريب تدريس العلوم فى الجامعة، وحين نقلت إلى العربية عدداً من كتب العلوم ميَّسرة للقارئ العربى فى أسلوب يبرأ من غُربة أصله الإنجليزى ، على الرغم من التزامى المتزمت بالنص المترجم ، وحين ألفت للتعليم العام كتبا فى علم الأحياء بأسلوب يُقنع العقل ويستميل القلب . كذلك حين هممت لتسخير العلم لخدمة فهم تفسير القرآن الكريم والإسهام فى إعداد معجم علمى لألفاظه ، كانت اللغة العربية عونى فى ارتياد الكتب الجليلة الصفراء ، وفى تجنب مزالق التأويل المخالف للنص القرآنى الشريف . واللغة العربية هى التى مكَّنتنى من أن أفهم ويُفهَم عنى عندما شاركت فى مجالس البحث مع علماء الدين وفقهاء اللغة . ولما اتجهت نحو تجلية جوانب التراث العلمى العربى كانت العربيةُ هى الضوءَ الكاشفَ ومفتاحَ الُمعَمَّيَات . وفى فلسفة العلم ، تظل الأفكار حبيسةً مبهمة حتى تكتسى بأثوابٍ من العبارات البليغة الدقيقة ، ثم فى مجمعكم هذا الموقر كانت عربيتى ، وما زالت ، عُدَّتى وعتادى ، عندما أسهر اللياليَ الطوال منقبا عن مصطلحات عربية للعلوم المستحدثة ، متصيداً من ذخائر ألفاظ اللغة الصِّحاح الملاح !

وهكذا كانت اللغة العربية معى دوما وسيلةً وغايةً ، هى أشرف الوسائل والغايات . فاللغة العربية قد خدمت علمى، كما أننى خدمتها بعلمى ، لأسهم معكم ، ومع رفاق هنا وهناك ، فى تجديد حيويتها ، وهى التى أراد الله لها الخلود بحفظ كتابه العزيز إلى آخر الزمان . ومن عجب أن كلية العلوم ، قد انتهت بى إلى حصن اللغة العربية الحصين . «إنَّ اللهَ بَالِغُ أمرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شيءٍ قَدْراً».

فهأنذا بعد هذا السبح الطويل فى خضم الحياة ، آأرز إلى مجمعكم وألوذ به فى خاتمة المطاف ، مرددا قول راشد السُّلمِّى :

فألقتْ عصاها ، واستقر بها النوى

كما قرَّ عينا بالإياب المسافرُ

وقد وجدت بينكم نفسى ، كما يقولون فى هذه الأيام ، ولقيت عندكم هواى المفتقد ، متغنيا مع أبى تمام :

نقِّل فؤادك حيثُ شئتَ من الهوى

ما الحبُّ إلاّ للحبيب الأولِ

أيها السادة الأجلاء : فى هذا الزمان الذى اتسعت فيه آفاق المعرفة الإنسانية ، وتشعبت مباحث العلوم وأغرقت فى التخصص ، أصبح الإلمامُ بها ، بَلْهْ التمكُّنَ منها ، ضربا من المحال . ولكن مجمعكم يبلغ الكمال بتكامل أعضائه ، فالجسد لا يحسنُ أداء وظائفه بتكرار أعضائه المتشابهة ، وإنما بتنوعها . وقد أعجبنى ما اقتبسه بعضهم عن ابن قتيبة ، وهو قوله : «من أراد أن يتأدب فليتّسعْ فى العلم» والعلم هنا هو كل علم وكلُّ العلم.

وفضلا عن شرف غايته ، يخلد مجمعكم الكريم بلمسات البرّ والوفاء ، فهو جادٌّ فى غير جهامة ، حفىٌّ بأعضائه الجدد ، يستقبلهم باشا حانيا ، كما أنه يحسن وداع من ينتقل منهم إلى دار البقاء. وهو يقدم واجب الوفاء للراحلين على الترحيب بالقادمين . ثم إن له سُنَّةً حميدة، إذ أنه يوحى للخلف بذكر سلفه ، وهذه لَعمرى حكمة بالغة .

وسبحان خالق الموت والحياة . إننى أنضم إليكم شاغلا لمكان خلا بوفاة عَلَمٍ من أعلام الاقتصاد فى مصر والعالم ، وهو المغفور له الأستاذ الدكتور محمد زكى شافعى ، الذى لم أسعد بلقائه ، ولكننى شرفت بخلافتى إياه .

وقد تخرج سلفىَ العظيم ، المنصورىُّ النشأة ، فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، بمرتبة الشرف سنة اثنتين وأربعين . ثم

حصل منها على دبلوم القانون الخاص ثم دبلوم الاقتصاد فى سنتى أربع وأربعين وخمس وأربعين ثم أوفد إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث نال درجتَىْ الماجستير والدكتوراه فى الاقتصاد من جامعة برنستون سنتى ثمان وأربعين ، وخمسين ، وعاد من بعدها إلى الوطن مدرسا للاقتصاد بكلية الحقوق .

ولمَّا أنشئت كليةٌ للاقتصاد والعلوم السياسية سنة تسع وخمسين كان الشافعى، وهو لم يبلغ وقتذاك بعد الأربعين من عمره ، العميد الأول المبدع لها على غير مثال سابق فى الجامعات العربية ، فأرسى قواعدها ونُظُمَها وتقاليدها ، حتى أضحت بين أغر ما يتطلع الشباب إلى الالتحاق به من كليات الجامعات .

وفى سنة خمس وسبعين اختير الشافعىّ وزيرا للاقتصاد ، ولكنه لم يلبث أن عاد فى العام التالى إلى محراب العلم الأثير عنده فظل أستاذا ثم أستاذا متفرغا بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية إلى آخر عمره .

وكان لسلفى العظيم نشاط علمى كبير ، فقد نشر بين عامى خمسين وسبعين خمسة كتب باللغة العربية وكتابين باللغة الإنجليزية ، فى نُظُم البنوك والنقد والتنمية الاقتصادية ، كما نشر فى بيروت والقاهرة ستة عشر بحثا ، كان اهتمامه فى معظمها بقضايا النقد والتنمية الاقتصادية فى العالم الثالث .

وقد لمع الشافعى فى المحافل العربية والدولية ، فقد عمل أمينا مساعدا لجامعة الدول العربية للشؤون الاقتصادية من سنة ثلاث وسبعين إلى سنة خمس وسبعين ، كما مثَّل مصر فى مؤتمرات دولية فى جنيف والجزائر ونيودلهى ، وقام بأدوار رئيسية فى تلك المؤتمرات ، ودُعِىَ أستاذا زائراً لجامعة جراتز سنة تسع وستين ، بل إنه قد اختير خبيراً بالأمانة العامة للأمم المتحدة بنيويورك بين سنتى ثلاث وخمسين وست وخمسين ، ثم خبيراً لدى مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية سنة تسع وستين ،

وخبيراً لدى مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة الإنسانية سنة إحدى وسبعين . واختير الأستاذ الدكتور محمد زكى شافعىّ رئيساً للجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والإحصاء سنة ثلاث وثمانين . ثم توجت الدولة هذه المنزلة الرفيعة التى تبوأها الشافعىّ فى مصر وفى البلاد العربية وغير العربية ، وفى الهيئات الدولية ، فمنحته جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية .

وفى السادس عشر من أبريل سنة ست وثمانين ، قدم الأستاذ الدكتور أحمد عز الدين عبد الله الشافعىّ للمجمع ، هاهنا ، تقديما كريما شاملا استقيت منه ما لم أكن أعلمه عنه ، وكان الدكتور أحمد عز الدين زميلا له فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، فكان قَمِنًا بالدقة والإصابة حين تحدث عنه قائلا : «فوجدته شخصية واضحة لاخبئ عندها ، تتسم بالهدوء وطيب العشرة والأخوة ، والتواضع ، واحترام النفس واحترام الآخرين» .

وكان المجمع يعوّل على الشافعى فى أن يتابع الشوط وأن يستكمل ما بدأه الدكتور عبد الحكيم الرفاعى الذى كان قد وضع اللبنة الأولى فى المصطلح العلمى الاقتصادىّ - كما قال كبير المجمعيين الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور ، بعباراته البليغة الوجيزة .

ولكن لم يكد يمضى عامان حتى مرض الشافعىّ مَرْضَتَه الأخيرة فكاد يميتُها بالكتمان ، وكأنما أراد أن يأخذ زينته للقاء الله ، فتحلَّى بالرضا والاحتساب وحسن التسليم ، ولم يَدَع العلة تتراءى فى وجهه فما انقبضت أساريره ولا ضاقت ابتسامته ، ولا قَلَّت حلاوة حديثه ، كما قال عنه الدكتور أحمد السعيد سليمان ، رحمهما الله جميعا .

ولكن الشافعى كان قد أخلص فى عمله وأمدَّ المجمع بنوع جديد من المصطلح الاقتصادى فيه من شمول الفكر ، وعمق الفلسفة ، والتعرض لمشكلات الخلائق أكثر مما فيه من حديث التكاليف والشحن

والمخازن ، كما قال عنه أحمد السعيد ، هاهنا أيضا .

فقبل أن يغادر الشافعيُّ دنيا الفناء إلى عالم البقاء ، كان قد سجل فى مجمع الخالدين تاريخا مشرفا وعملا مجيدا وأسلمنى الشعلة متقدة وضيئة ، وإننى لأعاهدكم أمام الله على أن أحافظ عليها زاكيةً مضيئة ، حتى أسلمها إلى من يخلفنى حين يشاء الله .

أيها الحفل الكريم :

شكر الله لكم تفضلكم بشهود هذا الاجتماع ، وكريم إنصاتكم لى . . .

وجزاكم الله خير الجزاء . . .

والسلام عليكم ورحمة الله .

عبد الحافظ حلمى محمد

عضو المجمع

كلمة المجمع
فى استقبال العضو الجديد الأستاذ
الدكتور عبد العزيز صالح
للأستاذ الدكتور محمود حافظ
عضو المجمع

سيدى العالم الجليل رئيس مجمع اللغة العربية وشيخ المجمعيين :

سادتى العلماء الأجلاء :

سيداتى وسادتى :

عندما حان وقت الترشيح لعضوية المجمع من بين علماء مصر البارزين لمع فى ذهنى اسم عالم جليل برز فى علوم الآثار والتاريخ القديم وأبلى فيهما أحسن البلاء حتى غدا بين العلماء المعاصرين له فى هذا المجال أرسخهم قدما وأعمقهم أثرا وأعلاهم منزلة وقدرا ، ذلكم هو العالم الموسوعى الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح ، العميد السابق لكلية الآثار بجامعة القاهرة الذى نستقبله اليوم عضوا بمجمع الخالدين .

ولا أحسبك أيها الزميل العزيز إلا سعيدا حقا بهذه الثقة الغالية التى منحك إياها زملاء لك هم صفوة من الجهابذة والعلماء ، يقدرون علمك وخبرتك ومكانتك ، هذه الثقة أفسحت لك مكانا عزيزا فى هذا المجمع العظيم كعبة العربية وحصنها الحصين الذى حمل لواءها أكثر من نصف قرن عاليا خفاقا نحو السماكين ، ورفع علمها شامخا سامقا فى الخافقين .

ولست فى حاجة إلى القول إن المكانة التى تنعم بها اليوم وأنت بها جدير لمكانة رفيعة حقا طالما اشرأبت إليها الأعناق وتطاولت الرؤوس ، وكثيرا ما هفت إليها قلوب وتطلعت إليها آمال فأهنئك تهنئة خالصة عضوا بين سدنة اللغة العربية وحماتها فى مجمع الخالدين .

ولد زميلنا فى الثالث عشر من مايو عام ١٩٢١ وقد نشأ بحى الخليفة بالقاهرة ذلك الحى الشعبى القديم الذى قامت فيه

آثار إسلامية كثيرة متميزة تقدمتها مساجد ومشاهد بعض السيدات من عترة الرسول الكريم ومنهن سكينة ورقية وعائشة ونفيسة وبعض آثار شخصيات أخرى مثل صلاح الدين وشجرة الدر وقايتباى وشيخون والسلطان حسن وكثير مما من شأنه أن يزكى فى النفوس روح التدين وعبق التاريخ وحب الفنون الإسلامية .

وبعد أن حفظ ماتيسر من سور القرآن الكريم فى كُتّاب الحى ومدرسته الأولية بدأ تلميذنا دراسته النظامية فى مدرسة بنبا قادن الابتدائية ، وكانت هى وسميتها بنبا قادن الثانوية ضمن خمس مدارس تتبع الخاصة الملكية وتحرص على تميز مستوى الدراسة فيها ، كما تنمى الاستعدادات الشخصية لتلاميذها - ونظرا لتفوقه الأدبى واللغوى فقد كوفئ تلميذنا حينذاك بعدة مؤلفات وجوائز .

وفى دراسته الجامعية تخرج فى قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ثم أكمل دراسته فى علم المصريات القديمة فى المعهد العالى للآثار بالجامعة نفسها - وتزامنت بعض دراساته لعلم المصريات القديمة مع دراسة أخرى لدبلوم التربية والعمل لبضع سنوات مدرسا فى التعليم العام ونشر أولى مقالاته فى عام ١٩٥٠ بعنوان " آثار شارع المعز لدين الله " . . حيث شبه هذا الشارع بسجل مفتوح سطرت على صفحاته عن يمين وعن شمال معالم مجد قديم جمع بين مطالب الدنيا ومطالب الدين وشهد بروعة الفن الإنشائى والزخرفى المصرى فى عصوره الإسلامية المتعاقبة - وتوالت بعد ذلك بحوثه ومقالاته منذ تعيينه مدرسا مساعدا بكلية الآداب بجامعة القاهرة فى عام ١٩٥٣ ثم أتم رسالته للدكتوراه عن " التربية والتعليم فى مصر القديمة " وأجيزت بتفوق فى يونيه عام ١٩٥٦ وقد نشرها باسمه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى عام ١٩٦٦ وكانت هى الرسالة الأولى الموسعة فى ميدانها العلمى بمصر والخارج بعد أن كان أغلب ما يستشهد به فى تاريخ التربية والتعليم فى العالم القديم يستقى عادة من تراث الإغريق والرومان والصين دون مصر وحضارتها التليدة إلا فى مقالات قصيرة متفرقة .

أصدر الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح ٤٦ كتابا وبحثا علميا منشورا فى مصر والخارج باللغتين العربية والإنجليزية فى مجالات التاريخ والتربية والتعليم واللغات والآداب والعقائد والفنون فى الحضارة المصرية والحضارات الشرقية القديمة - وقد اتسمت هذه الدراسات بأمانة الأداء والصدق العلمى وعمق التحليل واتساع الأفق كما عبرت عن مدرسة فكرية مصرية متميزة تنفذ إلى روح الحضارة المصرية القديمة وتكشف عن حقيقة جوهرها فيما تبحث فيه من تاريخها وخصائص عقائدها ولغتها وآدابها وفنونها مع عقد المقارنات الموضوعية بينها وبين واقع الحياة الفعلية فى البيئات والمجتمعات المصرية والشرقية استهدافا لما يربط بين حاضرها وماضيها .

وقد صَوَّبت هذه الدراسات ذات المنهج العلمى الواضح المتكامل عديدا من المفاهيم الأجنبية عن الحضارة المصرية القديمة وخرجت بنظريات وآراء جديدة موثقة عدلت بها بعض المسلمات التقليدية فى ميدانها كما قدمت بعض الحلول للمشكلات التاريخية المتعلقة بها .

والكشوف الأثرية العلمية التى أجراها الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح ذات أهمية بالغة فقد كان له دوره فى الكشف عام ١٩٥٥ عن برديات مصرية بمنطقة تونة الجبل بالمنيا تضمنت نصوصا ديموطية تضيف الجديد عن نظم المعاملات فى القانون المصرى القديم كما كشف فى هضبة الجيزة منذ عام ١٩٧٠ عن آثار حى سكنى صناعى لقطاع من الطبقة العاملة المتصلة بمعبد شعائر الهرم الثالث وقد تضمن هذا الكشف مصنعا للبردى يعتبر فريدا فى نوعه كما عبرت بقايا مساكن هذا الحى عن المستوى الاقتصادى والحرفى لأصحابها خلال القرن ٢٣ قبل الميلاد .

ومنذ عام ١٩٧٦ توالت بحوثه ودراساته العملية للكشف عن المعالم الحضارية الرئيسية لمدينة أونو القديمة (أى هليوبوليس وعين شمس) أولى المراكز الكبرى للفكر والثقافة الجامعة فى العالم القديم وكشف منها حتى الآن عن بقايا ١٤٠ وحدة سكنية وإدارية وصناعية لقطاع من الطبقة الوسطى الدينية والمدنية خلال القرنين ١٢-١١ قبل الميلاد كما كشف عن

بقايا ثلاثة معابد وحصن ملكي من عصر الرعامسة وكان لذلك كله صدى علمي كبير في الأوساط الأثرية العالمية .

وتجاوز العطاء العلمي للدكتور صالح نطاق الحضارة المصرية القديمة فأصدر دراسات موسعة عن تاريخ وحضارة العراق وعن الحضارات العربية القديمة في شبه الجزيرة العربية بشمالها وجنوبها وبخاصة فيما يتعلق بحياتها الاجتماعية والصلات اللغوية والثقافية بين مصر القديمة وبينها - كما ألقى الضوء عن وجود تأثيرات معمارية وفنية مصرية قديمة واضحة في بعض المنشآت المعمارية للحيانيين والأنباط القدماء في مدائن صالح بشمال الحجاز منذ القرن الخامس قبل الميلاد وحتى القرن الأول الميلادي وذلك مما أرجع العلاقات الحضارية بين مصر وبينها إلى ما قبل بداية العصور الإسلامية بنحو ألف ومائتي عام وهو أمر له أهميته البالغة .

وللأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح نشاط كبير في الكثيرمن الهيئات الأدبية والفكرية والثقافية على الصعيدين القومي والعربي وعلى الساحة الدولية فهو عضو بالمجلس القومي للثقافة وعضو في شعب التعليم الجامعي والثقافة والعلوم الإنسانية والتراث الحضاري والأثري بالمجالس القومية المتخصصة وعضو بالمجمع العلمي المصري ونائب رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ورئيس شعبة البرديات المصرية القديمة في مركز الدراسات البردية بجامعة عين شمس ، وعضو لجنة الموسوعة الأفريقية للأعلام باليونسكو ، وعضو اللجنة التأسيسية للمؤتمرات الدولية لعلم المصريات كما أنه عضو في جمعيات بريطانية وكندية وألمانية عالمية متخصصة في الآثار وتاريخ الحضارة ، وقد حاضر وشارك في عدة ندوات ومؤتمرات عقدت في كمبردج ببريطانيا وجرينوبل بفرنسا وبرلين وتوبنجن ومونستر وميونيخ بألمانيا ومكسيكوسيتي بالمكسيك وتورنتو بكندا بالإضافة إلى بلاد عربية عديدة وبخاصة المملكة العربية السعودية التي رأس فيها أيضا قسم التاريخ بجامعتي الملك عبد العزيز والملك سعود .

وقد عمل الأستاذ الدكتور صالح مقررا للجنة مشروع معجم مصطلحات الآثار فى التعليم العالى بمكتب تنسيق التعريب بالرباط عام ١٩٨٦ كما كتب مجموعة من البحوث المتخصصة فى قاموس القرآن الكريم الذى تنجزه حاليا مؤسسة التقدم العلمى بالكويت .

وتكريما له وتقديرا لمكانته العلمية فقد خصصت هيئة الآثار المصرية العدد الخاص بعام ١٩٨٦ فى مجلة حولياتها الأثرية ليصدر باسمه .

وقد نال جائزة الدولة التشجيعية لعام ١٩٦٢ ثم كرمته الدولة أيضا بنيل جائزة الدولة التقديرية لعام ١٩٨٦ .

سيدى الرئيس :

سادتى الزملاء :

هذه لمحة عن حياة هذا العالم الموسوعى الذى نستقبله اليوم فى هذا المحراب عضوا وزميلا بمجمع اللغة العربية مجمع الخالدين ، وهى كما ترون حياة زاخرة بالعطاء والعمل المثمر البناء ، وإنى على يقين أنه بعلمه وخبرته ومكنته سيكون خير عون للمجمع ليمضى بقيادته الرشيدة وعلمائه الأعلام فى مسيرته الرائدة نحو إعلاء شأن العربية ودفعها إلى آفاق رحبة من التطور لتواكب الإيقاع السريع الذى نشهده اليوم فى تقدم العلم والمعرفة .

والله ولى التوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمود حافظ

عضو المجمع

كلمة العضو الجديد

الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح

فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

العالِم الجليلُ ، رئيسَ المجمع :

الزملاءُ الكرام ، أعضاءَ المجمع :

يشرفنى أن أتوجه بعظيم الحمد والإجلال ، ابتداءً ، لله العلى الحكيم ، أن أولانى ثقتكم الغالية ، حين تفضلتم مشكورين بانتخابى عضوا عاملا بمجمعكم الموقّر ، صَرْح اللغة العربية الشامخ ، الذى أحاط بأصولها العريقة ، وآدابها الوفيرة ، وعلومها الرائدة ، ومعاجمها المنوعة ، وبحوثها النامية ، مع مستويات الفكر العالمى المعاصر ، ومستحدثات التِّقْنيات والخبرات والمعارف .

ومع كل هذه المهام المنوطة بالمجمع ، والآمال المعقودة عليه ، وما تفضلتم بإنجازه منها مشكورين ، علماءَ المجمع ، كان طبيعياً أن يظل اللحاق بعضوية مجمعكم مطلباً عزيزاً ، وأملاً مرجواً ، لكل باحث مدقق ، فى علوم العربية وتراثها الكبير ، فضلاً عما تنهضون به من تعريب ألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم والفنون ، فى حاضرها المتنامى، وفى مستقبلها المنشود ، وهو ما نود الإسهام فيه بجهد متواضع ولكنه بأقصى الاستطاعة بمشيئة الله تعالى .

أما على المستوى الشخصى ، وما يتعلق بكرم المجمع والكلمة البليغة التى ألقيت اليوم فى استقبالى ، فلا أكاد أجد من عبارات التقدير اللائقة ما يفى بعميق امتنانى ، وجزيل شكرى للأخ العالم الفاضل ، الأستاذ الدكتور محمود حافظ ، على فيض حديثه عن شخصى المتواضع ، ونبل مشاعره الكريمة فى تقديمه لى بصفاتٍ وسجايا ، هو الأَوْلى بها ، وهو نِعْم القدوة فيها .

فله منى أخلص الثناء وصادق الوفاء .

السادة الأجلاء :

تقليد كريم من غير شك ، ما جرى عليه هذا المجمع الموقر ، مجمع

الخـالدين" ، من تأكـيـد صـلة الخلف بالـسلف من بـين أعـضـائه ، وتوثيـق الروابط الروحية بين كل عـضو وزملائه ، وما يتـمثـله هذا وذاك من معـانى الوفاء ، والتآخى فى الآداب والعلوم والإنسانيات ، تحت مظلة لغـوية كبـيرة ، يتـعاون فـيهـا صفوة من أعلام مصر وبقية البلاد العربية، وبعض علماء الاستشراق الكبـار ، تعاوناً علمياً صافياً مثمراً .

وجـرياً على هذا التقـليد الحـميـد ، أشرُفُ اليـوم بحديث مُجـملٍ عن علَمٍ من أعـلام المجـمع الراحلين ، أُوليتُ شـرف خلافته فى كـرسيه العلمى بالمجمع ، وهو المغفور له الأسـتاذ الدكتور محـمد مرسى أحمـد . وقد أمضى رحـمه الله زُهاء ربع قرن فى عضوية هذا المجمع منذ أن استقبله الأسـتـاذ العـلامة مـصـطفى نظيـف فى عام ١٩٦٢ ، إلى أن أبنّه وودعـه باسمـه واسم المجـمـع كـذلك الأسـتـاذ الجـليـل الدكتـور محمـود مختار فى نوفـمبر من عـام ١٩٨٩ .

وقد أشـادا بفضله فيـما نهض به من شئون التعليم والبحث العلمى ، والترجمة والتـأليف ، والإدارة الجامـعية ، ورئـاسة وزارة التعليم العالى .

وكان الدكـتور مرسى قد تميـز خلال دراسته الجامعية بنبوغه المبكر ، فبدأ مرحلة البكالوريوس فيها فى سن السادسة عشرة، وبعد أن اجتـازها بامتياز مـشرِّف أُوفد إلى جامـعة أدنبـرة التى أعفـته من التـحضـير لدرجة المـاجسـتير نظرًا لتفوقـه ، ومنحته درجة الدكتوراه وهو فى الثالثة والعشرين ، وحصل بعـدها على دبلوم التـخصص فى البحوث الرياضـية من جامعة كـمبردج - وهكذا عاد إلى جامعـة فؤاد الأول مدرساً للرياضة البحتة فى عام ١٩٣٢ ، وبعد أن اجتاز درجـة الأستاذ المساعد أصـبح أستاذا لها قـبل أن يتخطى الخامسـة والثلاثين من عمـره .

ولعل مـتطلبـات هذا النضج الفكرى المبكر والمتكرر ، قد أضـنـت جـسده نوعـاً مـا فناء بهـا لسنـوات طـوالٍ فى خـواتيم حياته ، رحمه الله رحمة واسعة .

ومن طـريـف مـا يـرويه عنه زمـيله الأستاذ الدكتور محمود مختار ، وهو صديقه الصدوق ، وصِنْوُه فى الدراسة والتخصص

والتعليم والبحث العلمى والسمعة الكريمة ، أن أستاذهما الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة منحه فى أحد اختباراته الجامعية مائة وعشرين درجة من مائة درجة ، مبررا ذلك بأنه قد أجاب على أسئلةٍ أكثرَ مما يتطلبه الحد الأقصى للدرجة .

ولن ندعى معرفةً وافيةً بما تخصص فيه الأستاذ الدكتور مرسى من علوم الرياضيات ، ويكفى التنويه بما عرف عنه من الحرص على اتباع المنهج العلمى والتفكير الرياضى . وكان التفكير الرياضى وثيق الصلة فى حد ذاته بالفكر الفلسفى خلال العهود الزاهرة من العصور القديمة ذاتها .

وكان من ذلك أن روى الفيلسوف الأشهر أرسطو أنه حضر ذات مرة مع زملائه محاضرة لأستاذهم أفلاطون عن "الخير" وكانوا يتوقعون أن يسمعوا فيها جديدا عن الفضائل أو الأمور الفاضلة ، وإذا بهم قد استمعوا إلى فلكٍ وحساب ، وكلام عن الواحد والمحدود ، وإذا بهذا كله ينفذ إلى أعماقهم ويجعلهم يفكرون فى الخير من حيث لا يحتسبون .

وقيل إن أفلاطون أعلن على مدخل أكاديميته قوله : "من لم يكن رياضياً لا يدخل علينا" ، وفى ترجمة أخرى "من لم يكن مهندسا لا يدخل إلينا" .

ولم تكن الرياضيات تعنى عنده الحساب والفلكَ والهندسةَ بأغراضها العملية ، بقدر ما كانت تعنى جوهرها الثابت ، والنظر إلى العدد فى ذاته ، لا العدد المحسوس أو المادى .

وننتقل من هذه المجاملة للرياضيات والمهندسين إلى مجاملة أخرى لقدماء المصريين ، وهى أنه رغم تقدم علوم الرياضيات عند الإغريق عاب أفلاطون على أسلافهم أنهم كانوا أقل عناية بالحساب من المصريين . وذكر فى مؤلفه عن "القوانين" من الطرق المصرية لتعليمه ، ما يعتبر لو صحَّ خبره مفخرة للحضارة المصرية القديمة .

وأخيرًا فلقد أثبت الأستاذ الدكتور محمد مرسى أحمد جدارة فى شتى المناصب الجامعية العليا التى أوليها عميدًا لكلية العلوم بجامعة القاهرة ، ووكيلاً لهذه الجامعة ، ومديراً لجامعة عين شمس ،

ورئيسا لجامعة القاهرة ، ووزيراً للتعليم العالى، ثم أمينا لاتحاد الجامعات العربية .

وكان من أوئل الداعين إلى إحياء التراث العلمى العربى ، وتعريب العلوم الحديثة ، وتعريب التعليم الجامعى ، ونشر الثقافة العلمية باللغة العربية ، كما كان من العاملين على توثيق الروابط بين علمائها وباحثيها عن طريق تبادل الصلات مع الجامعات العربية والأجنبية ، والاشتراك فى الندوات والمحافل العلمية ، وعضوية الجمعيات والمؤسسات الثقافية والمؤتمرات المتخصصة .

حضرات السيدات والسادة :

من المتفق عليه أن آفاق اللغة العربية مع ما اتصفت به من الرحابة والثراء ، والعمق والتنوع ، كثيراً ما يُستعان فى بعض مداخلها بما يناسبها من الدراسات التخصصية الأخرى .

ومن أقرب هذه الدراسات إلينا دراسات ألفاظ الحضارة ومصطلحات التاريخ والآثار بخاصة ، ثم الدراسات المقارنة بين اللغة العربية واللغة المصرية القديمة ، وبقاياها الدارجة فى المجتمع الشعبى المعاصر ، لا عن طريق المقارنات اللفظية للمفردات فحسب كما جرت عليه العادة حتى الآن ، وإنما كذلك عن طريق المقارنات بين قواعد اللغتين .

ومطلب آخر نود إنجازه باسم المجمع ، وهو إصدار معجم واف لمصطلحات الآثار فى صيغها الأجنبية والعربية . وقد سبق أن بذلت بعض الجهود فى مصر والمغرب لتحقيق هذا المطلب ، وشاركتُ فى بعضٍ منها ، إلا أنها لم تكتمل ، وتتطلب دفعات قوية لبعثها ، ونرجو أن نصل بها إلى حد الكفاية بمشيئة الله تعالى .

وشكرا لحضراتكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبد العزيز صالح
عضو المجمع

استقبال أربعة أعضاء لغويين جدد

فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأربعاء ٩ من ديسمبر سنة ١٩٩٢م عقد مجلس المجمع جلسة علنية لاستقبال الأعضاء اللغويين الأربعة الجدد وهم:

* الدكتور بدوى أحمد طبانة .
* الدكتور إبراهيم عبد الرازق البسيونى.
* الدكتور عبد السميع محمد أحمد .
* الأستاذ مصطفى عوضين حجازى .

وقد ألقى كلمة المجمع فى هذا الحفل الأستاذ إبراهيم الترزى عضو المجمع الذى قام باستقبال الأعضاء الأربعة الجدد معدّدا مآثر كل واحد منهم فى خدمة العربية وآدابها . وبعد أن فرغ الأستاذ إبراهيم الترزى من كلمته تلاه العضو الجديد الأستاذ الدكتور بدوى أحمد طبانة فألقى كلمته .

وبعد ذلك تحدث العضو الجديد الدكتور إبراهيم عبد الرازق البسيونى فألقى كلمته . وتلاه العضو الجديد الأستاذ الدكتور عبد السميع محمد أحمد فألقى كلمته .

وكانت آخر كلمات الحفل للعضو الجديد الأستاذ مصطفى عوضين حجازى .

وفيما يلى نص الكلمات :

كلمة المجمع

فى استقبال الأعضاء اللغويين
الأربعة الجدد
للأستاذ إبراهيم الترزى
عضو المجمع

أستاذى الجليل رئيس المجمع :

أيها السادة :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ،

وبعد :

فقد شرفنى زملائى أعضاء المجمع الأجلاء باستقبال كَوْكَبة دُرِّيَّةٍ من الأعضاء الجدد ، تنطلق باسم الله لتَدُورَ فى الفَلَك المجمعىّ ، كواكبَ وَضِيئةً مُضِيئة : وضِيئةً بحبِّهم لغةً اصطفاها الله لذكرِهِ الحكيم ، مُضِيئةً بعطائهم الجليلِ لهذه اللغة المُصطفاة ، وما نأمله منهم من عطاءٍ مجمعىٍّ منشود ، نتطلَّع إليه ، ونُعَوِّلُ عليه ، بعون الله تعالى وتوفيقه .

أيها السادة :

رَحَلَ عن المجمع أعضاء شوامخ من علماء الفصحى وشيوخها ، كابِرًا وراء كابر ، حتى تناقصَ عدد الأعضاء اللغويين ، فصاروا قِلَّةً تَنُوءُ بأعباءِ لجان المجمع ، بعد أن كانوا كثرةً كاثرةً ، ينهضون بتَبِعاتِ اللجان اللغوية ، باذلين لها نشاطاً أوْفَرَ وأوْفَى ، مع مشاركةٍ فى اللجان العلمية لا تَزِيدُهم رَهَقا . ثم فاءَ الله على المجمع بمن نستقبلهم اليوم من مشيخة علماء اللغة .

الشيخ الدكتور إبراهيم عبد الرازق البسيونى :

أولُ هذه المشيخة اللغوية أقبلَ إلينا من أزهرنا الشريف ، وهو الشيخ الدكتور إبراهيم البسيونى . . سادنٌ جليلٌ مِن سَدَنَة النحو والصرف بالأزهر ، ومن أوتادهما الرَّواسِى ، عكَف عليهما باحثًا دارسا ، يُنقِّى وِرْدَهما المَوْرودَ مِنَ شَوَائِبَ تراكمتْ فيه على مدى العصور ؛ لِيعودَ به إلى نَهْجِه العربىِّ الأصيل ، بعد أن غُمَّ هذا النهجُ على الدارسين فى تفريعات وتعقيدات ، وتاهتْ معالمُه فى تعليلاتٍ

زادتْه عِلَّة ، وتأويلات زادتْه ضَلَّة ، وافتراضاتٍ سقيمةٍ عقيمة ، أَوْغَلَتْ في افتراضاتها حتى قالوا : "خَرَقَ الثوبُ المسْمارَ" ، فاخترقوا بهذا المثال حاجزَ العقلِ والمنطق ، واستباحُوا حِمَى أعرق قاعدة نحوية ؛ وهي رفعُ الفاعلِ ونصبُ المفعول ، بحجة وضوحهما !

وكم شَقِيَ النحوُ كذلك حين أَبْحَرَتْ سفينتُه في بحار المناطقة ، فتَقاذَفَتْها تياراتُ التقديراتِ وافتراضِ العوامل ، فكانت صيحةُ ابنِ مَضاءٍ - في القرن السادس الهجريّ بالأندلس - صيحةَ إنقاذ للنحو من ذلك كلِّه ، وقد أَطْلَقَ هذه الصيحَة منَ مَحْبِسها بين رُكام المخطوطاتِ أستاذُنا الدكتور شوقي ضيف ، بتحقيقه كتابَ ابنِ مضاء : "الردّ على النحاة" .

فالشأنُ في أيِّ قانونٍ أن يُوضَعَ للتطبيق ، وكيف يُطَبَّقُ إذا اعتراه تعقيدٌ وغُموض ؟!

ولهذا كانت القوانينُ ضوابطَ واضحةً ليسهلَ تطبيقُها في المجتمعات والدُّوَل .. وأَوْلَى بالنحو - وهو قانون الكلام - أن يكونَ كذلك ، ليسهلَ تطبيقُه على الكلمات والجُمَل .

ولهذا نهض الشيخ إبراهيم البسيونيّ برسالةِ إحياء الدراساتِ النحويةِ في الأزهر مع صفوة من علمائه ، في طليعتهم شيْخاه : محمد على النجار ، ومحمد محيى الدين عبد الحميد ، ثم زميله الدكتور محمد رفعت فتح الله - وثلاثتُهم من أعضاء المجمع الراحلين - فلم يكونوا مجردَ سَدَنَةٍ لما كتبَه السابقون في النحو ، وبخاصةٍ في العصور المتأخرة ، حيث دار أكثرُها حول مُتُونٍ أخذ شارحوها في تفسير ألفاظها وتحليلها ، مُوغلين في استطرادات يستعرضون بها قُدراتِهم اللغوية والأدبيةَ والمنطقية ، فإذا بهم قد بَعُدُوا عن منهل النحو الأصيل !

أخذ شيخنا إبراهيم البسيونيّ مع هذه الصفوة من نُحاة الأزهر يُعيدُ الدراساتِ النحوية إلى شريعتها ، في نهجٍ علميٍّ قويم ، فهو يرى أن التجديدَ في مناهج علوم اللغة والنحو يجب أن ينهض على الأصول الثابتة ، للغتنا ، وألاَّ يخرج عن ضوابطها العامة في نحوها وصرفها ، وذلك حيث يقولُ في كتابه "رحلة مع القياس والسماع" : "إذا أردنا إحياءَ العربيةِ والمحافظةَ عليها على أُسُسٍ سليمة

ثابتة ، وإذا أردنا تيسيراً للنحو وتجديداً لمناهجه ، ووَضْع قواعده فى صورة حديثة تعتمدُ المنهجَ العلمىَّ طريقا ، فلا مناص من استعراض الأُصول التى نستمدُّ منها قوانينَ لغتنا ، ونَترسَّمُ هَدْيَها فى تطبيق كلامنا ، ثم نُسَجِّلُ من جميعها الظواهر ، ونتخذُ من هذه الظواهرِ القواعدَ التى تربطُنا بقرآننا ، وتراثِنا الحضارِّى الخالدِ فى جميع المجالات ، وأنواعِ المعارف والفنون" .

ثم يمضى الشيخ البسيونى فى الدعوة إلى التجديد قائلا :

" وعلى ذلك نستطيع أن نُحدِّدَ موقفَنا من النحاة السابقين ؛ فلا شك أننا محتاجون إلى النظر فيما استخلصوه من قواعدَ لنستهدى به ، ولا ريب أننا واجدون فى تراثهم الذى خلَّفوه لنا نماذجَ عاليةً من الفكر الرفيع الواسع الأفق ، وسنجدُ فيه أيضاً مالا يوافق عقليتنا ، ونستطيع أن نفيد من كل ذلك باحتذاء الصواب ، وتصحيح الخطأ ، وليس عيبهم أنهم ألَّفوا وتعمَّقوا ، وأتوا بالغَثِّ والسمين ، ولكن عيبنا أننا تَحجَّرنا على ما وصَلَنا من علومهم . وتَضاءَلْنا أمام عقولهم الجبارة وجهودهم الرائعة ، وارتضينا بالاتِّباع ، وجَنَحنَا إلى اجترار ما قرَّرُوه ، ونظرة "واحدةٌ" إلى إنتاجنا فى الميدان اللغوىّ - خاصة فى النحو - تُثبت خمولَنا وتكاسلَنا من قرون عديدة . إن المحافظة على ماَ ورَّثَه لنا الأقدمون إنما تكون بنشره وإذاعته ، وتغذيته بعناصر جديدة للحياة والنماء ، بالزيادة عليه ، ونفى ما فيه من ضعف ، أمَّا أن نُنَصِّبَه هياكل ، ونقومَ دونها سَدَنَة ، فإننا بذلك نُمكِّنُ له فى التجمد والتخلف ، وإذا بالركب يَمْضِى ، ويتركه حيث هو ، غير عابىءٍ بنُواح النائحين" !

والشيخ البسيونىّ لا يتوقف فى دعوته إلى التجديد عند حدود الدراسات النحوية والصرفية ، فهو يدعو كذلك إلى تجديد متن اللغة ، وإثرائها بألفاظ مستحدثة تعبر عن حضارة العصر ، بآدابه وعلومه وفنونه، ومخترعاته التى تَجِدُّ يومًا بعد يوم ، مادامت هذه الألفاظ المستحدثة لا تخرج عن سَنَن العربية ، وضوابطها العامة ، فيقول :

"الحياة نامية متجددة بما تشتمل عليه من أفكار وظواهر في شتى النواحي الأدبية والفنية والعلمية ، من مصنوعات ومخترعات لم تعرض للعرب فى حياتهم الساذجة ، فليس هناك بُدٌّ من التجديد والابتكار وتوليد الألفاظ .. وإن الطعن فى قيمة كلمة بحجة أنها لم تُذكر فى المعاجم أو أن العرب لم تستعملها فيه تَحْجيرٌ واسع ، وتجميد للغة من حيث يُراد لها النموُّ والثبات ، ولا بأس إذا تركنا لفظة عربية إلى أخرى مولَّدة ، إذا كانت الأخيرةُ أسهلَ وأخفَّ وأعذب ، ولنا فى العرب أنفسهم أُسوة ، حين تركوا كثيرا من كلماتهم إلى أخرى أعجمية" . .

ولا يفوت شيخنا البسيونى أن ينّوه فى كتابه هذا بقرارات المجمع فى تيسير بعض قواعد النحو وغير ذلك من شئون اللغة ، ويعلق على كثير من بحوث أعضائه .

وللشيخ البسيونىّ كتاب آخر فى النحو عنوانه : "النفى ومداخله فى كلام العرب" ، وله فى علم الصرف كتاب "المنهج الصرفى فى الإبدال والإعلام والتعريض والتقاء الساكنين والإدغام" ، واشترك مع الدكتور صبحي عبد الحميد فى تأليف كتاب "الهادى إلى تصريف الأفعال" .

وقد حَظِيَ "علمُ العروض" بالتفاتات من الشيخ عالج فيها بعض قضاياه .

ذلكم هو الشيخ إبراهيم البسيونى الذى صادَفَ يومُ مولده أن يكو مثلَ البارحة ، فقد ولد فى الثامن من ديسمبر فى العام الحادى عشر من هذا القرن ، بمدينة المحمودية فى محافظة البحيرة ، حيث تلقَّى تعليمه الأَوَّلِيّ ، وحفظ القرآن الكريم ، ثم التحق بالأزهر الشريف ، فتلقَّى تعليمَه الابتدائيّ والثانويّ بمعهد الإسكندرية ، وحصل على الثانوية الأزهرية عام خمسة وثلاثين ، ثم انتقل إلى القاهرة ليلتحقَ بكلية اللغة العربية ، وتخرَّج فيها بعد سنوات أربع ، واصلَ بعدها تعليمَه فى الدراسات العليا ، فى قسم تخصص المادة ، بشعبة النحو والصرف ، فحصل على شهادة العالمية بدرجة أستاذ (وهى تعادل درجة الدكتوراه) ، وبعد سنوات سبع أمضاها مدرساً فى معهد شبين الكوم الدينى عاد إلى كلية اللغة العربية مدرسا ، ثم ترقَّى فى سلَّم التدريس بها حتى حصل

على درجـة أسـتـاذ اللغـويات . وفى الستينيات أعيـر إلى الجامعة الإسلامية بليبيا ، فأمضى بها ست سنوات عاد بعدها إلى القاهرة أستاذاً بكلية اللغة العربية ، ثم اختير وكيلاً لها سنة ثلاث وسبعين ، وبعد ثلاثة أعـوام أحيل إلى المعـاش ، ليصـبح أستـاذًا متـفرغـاً بالكلية ، ورئـيسًا لقـسم اللغويات . وبحوثُ الدكتور الشيخ إبراهيم البسيـونىّ أكـثـرُها غيـرُ مطبـوع ، ولعلَّ تلامـيذه - وهم أسـاتذةٌ كُـثـر - ينهضـون بطبعها ؛ ليفيد البـاحثون من علم شيخهم الفَذّ ، الذى نهج لهم سُبُلَ تيسيرِ النحو ، وأخـذ يُجَـدِّد نسـيجَ اللغـة بيَدٍ حـاذقـةٍ صَنَّـاع !

الأستاذ الدكتور بدوى أحمد طبانة :

وثانى هذه المشـيخـة اللغوية أسـتاذى الدكتور بدوى طبانة ، وهو ذو نَسَبٍ عريقٍ فى علوم البلاغة العربية ، خَرَجَ علمُه مِن رَحِـمِهـا ، فكان علمُـه مِن أبَرِّ أبنائهـا ، انتمـاءً لأصولها البـيانيـة ، وولاءً لقِيَمِـها الجماليةِ والفكريـة . وبهذا الانتماءِ والولاءِ مضى علمُه البلاغىُّ يَشُقُّ آفاقَ النقد الأدبىّ ، قديمِـه وحديثِه ، ويُعـالج قضـاياه اللغويةَ والأدبية ، على نهجٍ علمىٍّ قـويم ، قوامُه رَصْدُ الظواهرِ وإحـصاؤها ، وتصنيفُـها ، وتأثيرُها وتأثرها ، كـاشفاً عمـا قد يكون بينهـا مِن وشـائجَ ظاهرةٍ وبـاطنة . . ثم يأخذُ فى تفسير هذا كله ، وتحليله وتعليله . . منتـهيًـا إلى نتائج لا تلبثُ أن تُصـبح لَبِنات وَضّـاءةً فى الصَّـرْح الشـامخ لعلوم البلاغة العربية!

وُلد الدكتـور بدوى طبانة فى الـثامن من سبتمبر عام أربعة عشر من هذا القرن ، فى ناحية "سِـرْسِنا" بمدينة "الشهداء" فى مـحافظة المنـوفيـة ، حـيث حفظ القـرآن الكريم ، وأمـضـى مـرحـلة الدراسـة الابتدائية. ثم رحـل إلى القاهرة . ليتـلقَّى تعليـمـه الشـانوى ، ثم التـحق بتجـهيزية دار العلوم ، التى أهَّـلَتْـه للالتـحـاق بدار العلوم حـيث تخـرَّج فـيهـا عـام ثمـانيـة وثـلاثين .

وبعد ثلاث سنـوات أمضاها مـدرساً بالمرحلة الابتدائية بوزارة المعارف رحل إلى العـراق ، للتدريس بدار المعلمين العاليـة ببغداد ، حـيث عُهِدَ إليه بتـدريس البلاغة العـربية ،

كان عُمـدةُ الدرسِ البلاغيِّ في مصر كتـاب "مِـفـتـاح العلوم" لـلسكَّاكيّ ، وشروح تلخيصه ، وفي مـقدمتها شرحُ السعد ، أما عـمدةُ الدرس البـلاغيِّ في العـراق فكان كـتـاب "الـطِّراز المتـضـمن لأسرار البلاغة وعلوم حـقائق الإعجاز" ، لمؤلفه يحيى بن حـمزة العلوى ،وهو أحد أئمـة اليـمن العلـمـاء في القـرن الثـامن الهـجـرى . وكان كـتـاب الطراز هذا هو الذى كُلِّفَ الشاب "بدوى طبانة" بتدريسه لطلاب دار المعلمين العالية ببغداد ، فعكف على دراسته وتدريسه ، مستغرقاً جهده في استيعاب مادته ومـسائله ، وما ورد بشأنها من آراء ، آخـذًا نـفـسـه بالرجـــوع إلى مصادرها في العديد من المؤلفات البلاغية.

وبهذا العكوف على كـتـاب "الطراز" ومصـادره البلاغيــة أخذ يتَـخلَّقُ مستـقبلُ المدرسِ الشاب ، مُبَشِّرًا بميلاد باحثٍ بلاغيٍّ فذّ ، أقبل على الدراسات البـلاغية القديمة يَشُـقُّ طريقًا لاحِبًا بين سُبُلها الوَعرة المتداخلة!

كـانت البلاغـة العربـية الجـميلة قـد اعتُـقِلَت اعتقـالاً غيـر جميل ، في مُـتونٍ شعـريةٍ وغيـرِ شعـرية ، أخَذَ شـارِحُوها يَصـولُون وَيجُـولُـون في حـلبـة الشـروح اللفظيـة ، التي تَراكَم عَجاجُها حتى ناءَ به كاهلُ الدرسِ البلاغيّ ، كـما رُمِيَتْ علومُ البلاغةِ بعلمِ المنطقِ وعلمِ الكلام ، فَـهَيْمَنا عليها طويلا ، حتى كادتْ تُصبح مجرداتٍ عقليةً في كثير من أُصولها البيانية !

وهكذا واجـه الشاب "بدوى طبـانة" درس البـلاغـة ، الذى كـــان يقـوم على أُصول وفروع ، وشروح متوارثة ، تَداخَل فـيهـا كثـير من العلوم ، وأخـذتْ تَجتَـرُّ أحكامًا وشـواهد ، غَشّاها ما غَـشّاها من تكرارٍ وجمود ، حتى صـارت تُعانِي غُربةً علمـيةً وأدبـية ، في عـصـرٍ أخذ يَمُـوجُ بحضارةٍ حديثة ، تَستنهضُ فيه روحَ التجديدِ والتقدم ، في علومه وآدابه وفنونه !

ولهـذا أخـذ بعضُ الأسـاتذة الرُّواد يتطلَّعـون إلى التماس نهجٍ علـميٍّ حديثٍ للبحث البلاغيّ ، يُطَهِّرُ البلاغةَ العربية من كل شوائبَ دخيلة ، ويُؤَهِّـلُها للقدرة على التـجديد والتـقنين لِمَا استـحـدثَه الأُدباءُ المعاصرون من أساليبَ وفنون .

وإذا كان الدكتور بدوى طبانة قد سبقه إلى معالجة البلاغة وتجديدها أساتذةٌ روّاد ، منهم أحمد الشايب ، وأحمد ضيف ، وإبراهيم سلامة ، وأحمد حسن الزيات ، وأمين الخولى - فإن الدكتور طبانة قد تفرّد بينهم بأن جَعلَ معالجَة كلّ قضايا البلاغة همَّه الأكبر ، وجعلَ من تجديدها وتطويرها غايتَه الكبرى ، فاستفرغ جُهْدَه ووقتَه للبحث البلاغىّ والنقدىّ ، ووَقَفَ عليه نشاطَه العلمىّ والتعليمىّ .

عاد من العراق إلى مصر بعد ستٍّ من السنين ، ليلتحقَ بقسم الدراسات العليا فى كلية دار العلوم ، ويحصل على الماجستير ثم الدكتوراه فى البلاغة والنقد الأدبى ، وتَتابَع تَدَرُّجُه فى التدريس الجامعىّ بكلية دار العلوم حتى وصل إلى درجة أستاذ لكرسىّ البلاغةِ والنقدِ الأدبىّ والأدبِ المُقارَن ، فرئيسٍ لهذا القسم ، ثم خَطَبَتْ علمَه جامعاتٌ عربية ، هى جامعةُ بغداد ، والجامعةُ الليبية ، وجامعةُ الإمام محمد بن سعود بالرياض ، فتخرَّج على يديه أفواج من أساتذة البلاغة والنقد الأدبىّ ، فى مصر والعالم العربى ، وقد عاد أخيراً إلى كليته (دار العلوم) أستاذاً غير متفرغ ، وعضواً فى مجلس إدارتها .

ذلكم الأستاذ الدكتور بدوى طبانة فارسُ البلاغة العربية ، الذى مازال - بحمد الله - يَشُدُّ قبضتَه القويةَ على لوائها ، وظلَّ أكثرَ من نصف قرنٍ يبذلُ فى سبيلها كلَّ طاقاته ، فكان عَطاؤه العلمىُّ والتعليمىُّ وافراً زاهرا ، عظيمَ الأثر فى إحياء البحث البلاغىّ ، وتأليف أقلام الباحثين حوله ، من تلاميذ : أساتذة البلاغة والنقد الأدبىّ، فى الجامعات العربية .

ومؤلفاتُ الدكتور بدوى طبانة غزيرةٌ متنوعة منها :

البيان العربىّ ، وعلم البيان ، ومعجم البلاغة العربية ، والتيارات المعاصرة فى النقد الأدبى ، ودراسات فى نقد الأدب العربى، وقدامة بن جعفر والنقد الأدبى ، وأبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية والنقدية ، وقضايا النقد الأدبى ، والنقد الأدبى عند اليونان ، والسرقات الأدبية ، ونظرات فى أصول

الأدب والنقد ، ومعلقات العرب ، وفرسان الحلبة فى الشعر العراقى الحديث ، ومعروف الرصافى ، وأدب المرأة العراقية ، وطلائع النهضة فى الشعر السعودى الحديث ، ودراسات نقدية ، ومن شعراء العصر ، والصاحب بن عباد ، وشاعرية أحمد محرم ، والمثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، والفلك الدائر على المثل السائر ، ومقدمة فى التصوف الإسلامى .

وله تحت الطبع :

البلاغة الجديدة ، ونظرات فى أصول الأدب والنقد ، وخواطر إسلامية . وإذا كان المَقامُ هنا لا يتيحُ أن نعرضَ لهذا الإنتاج الغزير المتنوع ، فلا يَفُوتُنا أن نُنَوِّهَ ببعض مؤلفاته الـفَذَّة فى علم البلاغة ، ككتابُه "علم البيان" دَرَسَ فيه مباحثَ هذا العلم على نحو جديد ، حيث عالَج كلَّ مبحثٍ فيه بدراسة تاريخية فنية نقدية ، مُوضِّحا أثَره فى الصِّياغة الأدبية .

ويعد كتابه "علم البيان" رأى أن يُرْدِفَه بكتابه "البيان العربىّ" الذى تَتَبَّعَ فيه علمَ البلاغة ، منذ نشأته فى رحاب القرآن الكريم ، للبحث فى إعجازه البيانىّ ، حتى استقامتْ لعلم البلاغةِ أُصولُه وقواعدُه ، ثم مضى معه فى نموه وتطوره، على يد أعلامه النابهين إلى عصرنا الحديث ، عارضاً مناهجَهم فى البحث البلاغىّ ، دارسًا مؤلفاتِهم ، مناقشاً آراءَهم ، كاشفًا عن تأثرهم بمن سبقهم ، وتأثيرِهم فيمن لحقهم ، مُنَوِّهًا بما يكونُ لهم من تجديد وتطوير فى الدراسات البلاغية .

والدكتور بدوى طبانة فى ذلك كله يتحرَّى سلامةَ النَّصِّ الذى يعرض له في أوثق مصادرِه ، ويُقيمُ ميزانَه النقدىَّ على قواعدَ أصيلةٍ قويمة ، ولا يتوقفُ عن الإدلاء برأيه فى كل قضية أو مذهب أو رأى ، فظهرتْ شخصيتُه العلميةُ المستقلةُ فى كل مؤلفاته بكل جَلاء ، فحين يُحدِّثنا عن العَلاّمة الفَذِّ عبدِ القاهرِ الجُرجانىِّ يقول:

"لعلَّ من الصواب أن يُقال إن عبدَ القاهر واضعُ أُسس المنهج التحليلىِّ فى دراسة البيان ، أو المعانى العقلية ، ومُسايرةِ العبارات لها ودَلالتها عليها . ولعلَّ هذا القولَ أكثرُ صدقاً وأكثرُ تقريراً للواقع من القول بأن عبدَ القاهر واضعُ

أساسِ علمِ البيان ، أو واضعُ أساسِ علم المعانى بالمعنى الاصطلاحىِّ الذى لاَ يعرف الناسُ سواه ، وقد رأينا أن عبد القاهر ، وهو رجلُ المعنى والفكرِ والمنطقِ لم يَتَخَلَّ عنه الذوقُ الأدبىُّ الذى يسيرُ بالقارئ نحو تَلَمُّسِ صفاتِ الجمالِ فى العمل الأدبىّ" .

ثم يَرى أن كتابَ "البديع" للخليفة العباسىِّ الشاعرِ العالمِ "ابنِ المُعْتَزِّ" أولُ كتابٍ فى البلاغة العربية بالمعنى الصحيح ، وأن كلمةَ "البديع" التى جَعَلَها ابنُ المعتزّ عنواناً لكتابه كان مفهومُها عامًا عند أهلِ الأدب ، يَشْمَلُ كلَّ ما عُرِفَ من فنون البلاغة ، ويَستدلُّ على ذلك بأن أولَ فنٍّ بحثَه ابنُ المعتزّ فى كتابه هو "الاستعارة" ، ثمَّ بَحثَ فى التشبيه والكناية ، وغيرِ ذلك من الفنون البلاغية ، ثم يقررُ الدكتور طبانة أن البلاغةَ لم تَعرف هذا التقسيمَ الذى انتهتْ إليه إلا فى القرن السابع الهجرىّ ، على يَدِ أبى يعقوبَ السَّكّاكِىِّ، صاحبِ "مفتاحِ العلوم" حيث جعلَ البلاغةَ علمين ، هما علمُ المعانى وعلمُ البيان ، وجعلَ علمَ البديعِ تابعًا لهما .

ولاَ يَسَعُنِى قبل أن أختتمَ كلمتى فى تقديم أستاذى الدكتور بدوى طبانة إلاّ أن أُشيدَ بمعجمه الفريد "معجم البلاغة العربية" الذى أَحْصَى فيه فنونَ البلاغة وأدواتِها ومصطلحاتِها ، والذى أَمْضَى فى إعداده أكثرَ من خمسة وعشرين عامًا ، وأخذ يُضيفُ إلى كل طبعة من طبعاته الأربع العديدَ من موادِّه المعجميةِ البلاغية ، وإنَّ هذا العملَ الجليلَ الذى نَهَضَ به وحده لهو من أعمال المجامع اللغوية ، وهو جدير بأن يُفيد منه مجمعُنا فى لجانه اللغوية ولجنة الأدب .

الأستاذ الدكتور عبد السميع محمد أحمد :

وثالثُ هذه المشيخةِ اللغويةِ الأستاذُ الدكتور عبد السميع محمد أحمد . . وهو شيخ أقام فى رِباط "مدرسة الألسن" ، التى أنشأها أولَ مرةٍ رائدُ الثقافةِ والتعليمِ بمصر فى العصر الحديث "رفاعة الطهطاوى" عامَ خمسة وثلاثين وثمانمئة وألف ، لتكونَ نافذةً تُطِلُّ منها مصرُ على أوربا ، بعلومها وآدابها وفنونها ، ثم أغلقتْها يَدُ السلطة الغاشمةِ الغَشيمة ، فأطْبَقَ عليها إهمالٌ ونسيان ، حتى صارت نَسيًا مَنْسيًا .

وعلى الرغم من افتتاح الجامعات ، جامعةً بعد جامعة ، حتى كادت تُغَطّى أقاليمَ مصر ، ظلَّ التعليم العالى بحاجة إلى "مدرسة الألسن" فأطَلَّتْ فكرةُ إنشائها من جديد ، وأُعِيدَ إنشاؤُها فى العام الحادى والخمسين من هذا القرن .

وُلد الدكتور عبد السميع فى السادس من نوفمبر من سنة خمس عشرة وتسعمئة وألف . فى القاهرة ، حيث تلقَّى تعليمَه الابتدائىَّ والثانوىَّ بالأزهر الشريف ، ثم التحق بدار العلوم ، وتخرَّج عام أربعين ، ليشتغلَ بالتدريس فى بعض المدارس الابتدائية والثانوية . ولكنَّ رغبةً عميقةً فى نفسه أخذتْ تُنازِعهُ ، منذ تخرُّجِه فى دار العلوم لدراسةِ اللغات ، فالتحقَ بكلية الآداب بجامعةِ القاهرة ، وحصل على دبلوم اللغات الشرقية فى فرع اللغات السامية القديمة ، ثم نال شهادة الدكتوراه فى اللغة الجعزِّية (الحبشية القديمة) .

وعُيِّنَ الدكتور عبد السميع مدرساً بمدرسة الألسن عام ستة وخمسين ، ومنذ عَمِلَ بها وهوُ يناضل حتى تَتَبَوَّأَ مكانتَها اللائقةَ بها بين كليات التعليم الجامعىّ ، فقد كان المتخرجُ فيها لا يَحِقُّ له أن يتجاوز درجةَ الليسانس إلى الدراسات العليا ، التى تُتاحُ لنظيرِه فى الكليات الجامعية . فكان على خرِّيج مدرسة الألسنِ أن يلتحقَ من جديدٍ بكليةٍ جامعيةٍ ، تُتِيحُ له الالتحاقَ بالدراسات العليا ، للحصول على الماجستير والدكتوراه !

واختير الدكتور عبد السميع وكيلاً لمدرسة الألسن عام سبعة وستين ، وعميدًا لها بعد عامين ، وهو لم يبرح حَلْبَةَ النضالِ من أجلها ، حتى أَحْرَزَ النصرَ عامَ انتصارِ مصر - عام ١٩٧٣ - فعبَّر بمدرسةِ الألسن إلى حرم الجامعة ، فصارت إحدى كليات جامعة عين شمس . وتابَعَ عبورَه الجامعىَّ ، فعبَّر بها مِن حَىِّ الزيتون إلى رحاب جامعة عين شمس ، حيث أنشأ لها مَبْنىً جديدًا فريدا ، حَمَلَ لَمساته الفنيةَ التى تُعبر عن طابَعِها العلمىِّ وتاريخِها العريق !

بهذا قَيَّضَ اللهُ تعالى لمدرسة الألسن عالِمَيْن جليلَيْن ، فكان لرفاعةَ فضلُ

الإنشاء ، ولعبدِ السميع فضلُ الإحياء ، حيث صارتْ كليةً جامعيةً مرموقة ، تؤدى رسالةَ مُنشئِها العظيم ، الذى أقام له الدكتور عبد السميع ندوةً علميةً باسم "ندوة رفاعة" ، وأعاد "غُرفةَ رفاعة" التى تُعنَى بترجمة الروائع الأجنبية من الآداب والعلوم ، كما أشرف على إصدار "صحيفة الألسن" التى تحفل ببحوث أساتذتها فى مختلف اللغات .

وها هوذا الدكتور عبد السميع لا يزالُ فى رِباط "كلية الألسن" - بعد إحالتِه إلى المعاش - أستاذًا متفرغا ورئيسًا لقسم اللغة الصينية بها .

وللدكتور عبد السميع بحوث عديدة متنوعة ، أجهدَنى تَتَبُّعُها فى مصادرها ، فمنها بحوث كثيرة ، لا مطبوعة ولا مجموعة - شأنُها فى ذلك شأنُ بحوثِ لشيخنا البسيونىّ - ومِن حقِّ هذه البحوثِ القيِّمةِ عليهما أن يُطْلِقَا سَراحَها ، فتخرج إلى الناس حتى يفيد منها الباحثون !

ومن البحوث المطبوعة للدكتور عبد السميع مؤلفه الكبير "قوانين الملوك" وهو دراسة مقارنة باللغتين العربية والجعزيّة (الحبشية القديمة) ، أثبت فيها بالأدلة القاطعة أن هذا الكتاب الذى يُعَدُّ الكتابَ التشريعىَّ الكَنَسِىَّ للكنيستيْن : المصرية والإثيوبية قد اقتبس مؤلفُه "ابنُ العَسّال" الكثيرَ من أحكام الفقه الإسلامىّ ، فقد كان "ابن العسال" - وهو مسيحىٌّ مصرىّ - أحدَ الكتاب البارزين فى الدولة الأيوبية بمصر ، فى القرن السابع الهجرىّ . ثم كتب الدكتور عبد السميع بَحْثَيْه : "الهبة فى القانون الإثيوبى" و "الوديعة فى القانون الإثيوبى" مؤيدًا بهما ما جاء فى كتاب "قوانين الملوك" .

وللدكتور عبد السميع بحثٌ فى "تعليم اللغة العربية غيرَ الناطقين بها" ، وبحوثٌ فى أُمَّهات المراجع التاريخيّة ، فى السيرة النبوية لابن هشام ، وتاريخ الأمم والملوك للطبرى ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ، وتاريخ ابن خلدون ، وتاريخ العلماء والرُّواة فى الأندلس لابن الفَرْضِىّ ، وغيرُ ذلك من البحوث .

وأختتمُ حديثى عن مؤلفات الدكتور عبد السميع بالتنويه بكتابة القَيِّم "المعاجم العربية" ، وهو دراسة تحليلية تاريخية ،

تُبرز الخصائصَ اللغويةَ لثلاثةَ عشرَ معجما ، بدءًا بمعجم "العين" للخليل بن أحمد ، وانتهاءً بالمعجم الكبير والمعجم الوسيط ، اللذيْن أخرجهما مجمعُنا . وقد أشاد الدكتور عبد السميع بجهود المجمع المُعجمية ، بعد دراسةٍ ضافيةٍ لهذيْن المعجمين ، منهجًا ومادة ، وقال فى المعجم الكبير :

"إن محاولة إظهار "المعجم الكبير" التى يُقدم عليها المجمعُ اللغوىّ بالقاهرة تستحق التقدير العظيم ، وينتظر الحريصون على اللغة العربية أن تجتمع الجهود وتتضافر حتى يتوالَى ظهور أقسامه ، واحدًا بعد آخر ، وليس من المنتظر أن يُعاصر الجيل الحاضر تمامَ هذا العمل ، فإن اللبناتِ التى تُوضَع الآن فى البناء ستحفز الأبناءَ إلى إتمام تشييده" .

ثم يقول : "واهتمام المعجم بتوضيح صلة اللغة العربية بأخواتها الساميات جدير بأن يضعه فى مكانة لم يُسبق بها ، وينبغى ألاَّ يضنَّ المجمع بمزيد من إيضاح هذه الصلة" .

ثم يختتم حديثه عن المعجم الكبير بقوله : "وطبيعىٌّ أن المعجم يستمدُّ مادتَه بما سبقه من كتب اللغويين ، وما سُجِّلَ من ثروة يصعب أن يُحاط بما هو موجود منها الآن ، ويتعذر بطريقٍ أَوْلَى ، أن يَحْدُسَ ما ضاع من كنوز عَدَا عليها الزمن ولعلَّ شيئا من هذا يجعل إصدار معجم تاريخىّ للغة العربية مهمة شاقة تحتاج إلى توزيع الأعباء ، و "تكليف" القادرين على أن يُسهموا فى إعداده فى إطار نَظِيم" .

ويسعدنى أن أقول للدكتور عبد السميع : إن لجنة المعجم الكبير بالمجمع تتطلعُ إلى انضمامه إليها ، لِتُفِيدَ من خبرته المُعجمية ، وتَشُدُّ جهودُه أَزْرَ جهودِ أعضائها وخبرائها ومُحَرِّريها ؛ لإخراجِ أوْفَى معجمٍ فى تاريخ العربية .

الأستاذ مصطفى حجازى :

وآخِرُ المشيخةِ اللغويةِ التى نستقبلها اليوم صديق حميم ، وزميل كريم ، هو الأستاذ مصطفى حجازى .. رفيقى القديم على درب المعجم الكبير .. قَيَّضَ الله لنا أن ندخلَ المجمع معًا فى يوم واحد .. ثم قَيَّضَ لنا أن نكون معًا فى عملنا المَجمعىِّ المُعجمىِّ .. حيث كان "المعجم الكبير" يَتخلَّقُ فى رَحِمِ لجنتهِ الكبرى ، التى كانت تَضُمُّ مشيخةً جليلة من أعلام العلماء فى اللغة العربية واللغات الشرقية والأدب ، والفلسفة والاقتصاد والقانون والشريعة ، ومختلف العلوم الطبيعية ، فكان عملُنا المُعجمىُّ الباكرُ مع هذه اللجنة مدرسةً معجميةً تَعلَّمنا فيها الكثير ، وكانت محاوراتهم الفَذَّةُ تكشف لنا آفاقًا جديدةً عديدة ، من العلوم والآداب والفنون ، تَزِيدُ "المعجم الكبير" نَماءً وثَراء ، وتجعلُه المعجم الأكبر للأمة العربية ، فى عصرنا الحاضر !

كنتُ ومصطفى نَديمَىْ لغة وأدب ، على مائدةِ "المعجم الكبير" ، نَتعاطَى ما فى بطون معاجم اللغة مِن فَرائد ، وما فى دواوين الشعر من شَواهد ، نُرْفِدُ بها معجَمنا الكبير ، فقد كُنّا زميلَيْن فى إعداد موادِّه ، ثم زميلَيْن فى مراجعة ما يُعِدُّ ، الزملاءُ مِن مُحَرِّرِى المعجم . وأشهد لقد وجدتُ مصطفى حاذقًا بالصناعة المعجمية ، فليس كلُّ عالمٍ باللغة أو النحو والصرفِ معجميًا ، فالمُعجمىُّ رَحّالةٌ لُغَوِىٌّ إلى مختلف مصادر المعرفة ، من معاجمِ أعلام وبُلدانٍ وحيوان ، وأدبٍ وتاريخٍ وحضارة ، ومصطلحاتٍ علميةٍ وفنية .. فالصناعةُ المُعجمية .. إذا كانت تقتضى علمًا واسعًا باللغة والنحو والصرف واللهجات ، فإنها تقتضى كذلك ثقافةً موسوعيةً بسائر العلوم والآداب والفنون .

ولد مصطفى فى العاشر من يناير سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة وألف ، فى قرية "برمبال" الجديدة ، بمحافظة الدقهلية ، وهى قرية رائد التعليم الحديث فى مصر « على مبارك » الذى يَضْرِبُ إليه مصطفى بِعِرْقِ خُؤُولَة . وتلقَّى تعليمه الأولىَّ بمدرسة القرية ، حيث حفظ القرآن الكريم

وجَوَّدَه برواية حفص عن عاصم ، فتَهَيأ بذلك للالتحاق بالأزهر الشريف طالبًا بمعهد دمياطَ الابتدائى ، ثم انتقل إلى معهد الزقازيق ليحصلَ منه على شهادة الثانوية ، التى أهَّلَتْه لدخول كلية دار العلوم ، حيث تخرَّج فيها عام خمسين ، وحصل فى العام التالى على دبلوم فى التربية وعلم النفس من المعهد العالى للمعلمين .

وبعد اشتغالٍ بالتدريس نحو سنوات عشر فى المرحلتين الإعدادية والثانوية ، انتقل إلى العمل بالمجمع محررًا بالمعجم الكبير ، وتدرَّج فيه حتى صار مديرًا عامًّا للمعجمات وإحياء التراث .

وأُعير عام ستة وسبعين إلى جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ، فشارك فى إنشاء "مركز البحث العلمىّ وإحياء التراث" ، ثم عاد بعد عام إلى المجمع ، وفى عام اثنين وثمانين أنْهَى عملَه المجمعىَّ ليبدأ عملَه فى الكويت ، رئيسًا لقسم التراث العربىِّ بوزارة الإعلام .

ثم عاد إلى القاهرة عام ثمانية وثمانين حيث عمل خبيرًا بالمجمع فى "المعجم الكبير" ، وعضوًا فى لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للثقافة .

وإنى إذ أُحدثكم اليوم عن مصطفى فحديثى حديثُ صديقٍ خبير ، وليس فى الناس أصدقُ حديثًا عن المرء مِمَّنْ أُتِيح له أن يَطَّلِعَ على خبايا نفسه ، ولا يُتاحُ هذا إلاّ لصديق . . وليس فى الناس أعرفُ بالمرء من صديقٍ لازَمه فى سرّائه وضرّائه ، وزامَلَه فى عمله وعلمه ، فسبَرَه وخبَرَه ، ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خبير !

لقد جَمَّلَ الله مصطفى بخلالٍ حميدة ، يطولُ فيها الحديث ، ولكنَّ خَلَّةً واحدةً تَبْرُزُ سامقة ، تَمُدُّ ظلالَها على سائر خِلاله ، وهى خَلَّةُ "الأناة" . . فكلُّ خُلُقٍ فيه يتَّسِمُ بالأناة ، والأناةُ تُنْضِجُ السلوكَ فإذا هو سَوِيٌّ رَضِيٌّ ؛ فهو لا يَجبَهُكَ بموقفٍ يُوقِعُكَ فى حَيْرة ، ولا يَبْدَهُكَ بأمرٍ يأخذُكَ على غِرَّة . . فأنت معه فى أمانٍ من نفسه ، ومن نفسك . . فى أمان من نفسه لأنك معه تَنْعَمُ بالطمأنينة ، وفى أمان من نفسك لأنها معه تَخْلُدُ إلى السكينة . . وصفةُ "الأناة" قد تَغَلغلتْ فى جَوانح نفسه ، حتى ظَهرتْ فى جَوارِحِ جسدِه ؛ فهو

يأخذُ كلَّ شيءٍ ويَدعُه فى هَوادة ورَوِيَّة ، يتحرَّكُ على مَهَل ، ويَمشى الهُوَيْنَى ، ويتحدَّثُ فى تُؤَدة ، بل إن ملامحَ وجهه تُعَبِّرُ عن انفعاله فى رِفق ، فلا تُسْتَفَزُّ ملامحُه باختلاجةِ غضب ، ولاَ تَكْفَهِرُّ ولا تَزْوَرّ ، فهو هادئٌ صبُور . . وقد أهَّلَتْه أناتهُ إلى أن يَلِجَ عالمَ اللغة العربية بخُطَى مطمئنَّة ، وأن يَتعرَّف تُراثَها فى مُثابرة ومُصابرة ، ويَعْركَ معاجمَها "مديمةَ حتى لانَتْ عريكتُها له ، فصارت له باللغة صلةٌ حَميمة ، غريبُها لَدَيْه مَألُوف ، وبَعيدُها منه قريب ، فكأنَّ بعقله جهازَ استشعارٍ لغوىّ ؛ فهو يُدْرِكُ أين تَكْمُنُ المادةُ اللغويةُ فى بطون المعاجم ، وأين يُسْتَدْعَى الشاهدُ من دواوين الشعراء . . وقد جعلَه ذلك كلُّه يُقْبِلُ على تحقيق نفائسِ من المخطوطات العربية إقبالَ الواثقِ الخبير ، فحقَّق كتاب "بهجة الزمن فى تاريخ اليمن" لابن عبد المجيد اليمانىّ ، وكتاب "المنازل والديار" لأسامة بن منقذ ، والجزء الأخير من كتاب "نهاية الأرب" للنويرى ، كما شارك فى تحقيق أجزاء عديدة من معجم "تاج العروس" للزَّبيدىّ ، الذى تُصدره وزارة الإعلام بالكويت ، وحقق الجزء العاشر من "المحكم" لابن سِيدَه ، وراجع كتاب "خَلْق الإنسان فى اللغة" للحسن بن محمد بن أحمد ، الذى حققه الدكتور أحمد خان ، بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

وقد أتاح له علمهُ باللغة الفارسية أن يؤلف كتابيْن : أولهما "صفحات عن إيران" ، بالاشتراك مع الأستاذ صادق نشأت ، والآخر "الدروس العربية لتلاميذ المدارس الإيرانية" .

وفى مجال النشاط المجمعىٍّ أشرف على إصدار الجزء الثانى من المعجم الكبير ، والمعجمِ الوجيزِ الذى قدَّمه فى طبعته الأولى بمقدمة ضافية ، وخَلَفَ المرحوم الأستاذ عبد السلام هارون فى الإشراف على طبع معجم ألفاظ القرآن الكريم . . وشارك المرحوم الأستاذ محمد شوقى أمين - عضو المجمع الراحل - فى إصدار الجزء الأول من كتاب "الألفاظ والأساليب" ، والجزءين : الثانى والثالث من كتاب "فى أصول اللغة" ، كما أشرف على العديد من كتب التراث اللغوى التى صدرت عن

المجمع ، وعلى إعداد فهارس لديوان الأدب للفارابىّ ، وفهارس لكتاب الجيم لأبى عمرو الشيبانىّ . وحقق للمجمع الجزءين : الأول والثانى لكلٍّ من كتاب "التنبيه والإيضاح المعروف بحواشى ابن برِّىّ على الصِّحاح" ، وكتاب "التكملة والذيل والصلة لما فات صاحب القاموس من اللغة "للزَّبِيدىّ" . كما حقق كتاب "الشوارد" للصاغانىّ ، وقد نوَّه المرحوم الأستاذ على النجدى ناصف - عضو المجمع الراحل - بتحقيقه كتابَ التنبيه والإيضاح ، حيث قال فى تصديره لهذا الكتاب :

"وقد نهض بتحقيق" حواشى ابن برِّىّ" الأستاذ مصطفى حجازى ، وهو لغوىٌّ متمرِّس ، يصحب اللغة ، ويُكِبُّ على النظر فيها ، درساً وبحثا ، وإعداداً وإشرافًا ، وقد آتى الحواشىَ من جهده وخبرته كلَّ ما تقتضيه دواعى الإجادة والإتقان ، تحريراً للنص وضبطًا لمفرداته ، وتخريجًا لشواهده ، فى تتبع لا قصور معه ولا اكتفاء" .

كما نوَّه المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام - نائب رئيس المجمع الراحل - بتحقيقه كتابَ "التكملة والذيل والصلة" ، فقال فى تصديره له :

"ومن حسنات المحقق أنه شرح - فى دقته المعهودة - منهج المصنف وفضلَه فى هذا الشرح أنه لم يجده مفصلا فى مقدمة المؤلف ، بل استخلصه من متابعة ما استدركه المصنف على القاموس" .

"أما المقارنة التى تخللت العمل ، بين منهجه وأسلوبه هنا ، وبين المنهج والأسلوب الذى كان المصنف قد اتبعه فى كتابه "تاج العروس" فتتجلَّى فى دقتها "شِنْشِنةٌ حجاريَّة" - إذا ساغ لى أن اصطنع هذا التعبير ، بعد خبرة طويلة ، وممارسة متواصلة ، للعمل السعيد الذى كان من حظى أن اشترك فيه مع هذا الزميل الكريم فى مجال التحقيق اللغوى" .

أما كتاب "الشوارد" الذى نال به الأستاذ مصطفى حجازى جائزةَ الدولة التشجيعية فى تحقيق التراث عام خمسة وثمانين ، فقد جاء فى تصديره قول

المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام :

"ومن الإنصاف ألاَّ أترك هذا التصدير دون أن أذكر قليلا من فضل محقق هذا الكتاب : الأستاذ مصطفى حجازى . لقد سعدتُ بلقائه والعمل معه فى مجال اللغة ، فى مجمع اللغة العربية ، قرابة ربع قرن ، فوجدتُه واحداً من أقلّ القليلِ الثِّقات فى اللغة ، الذين تتدفق معارفهم الوثيقة على أطراف ألسنتهم" !

أيها السادة :

هذه هى الكَوْكَبةُ الدُّرِّيَّةُ اللغوية من الأعضاء الجُدُد ، الذين أشرف اليوم باستقبالهم ، وكلٌّ منهم نابِهٌ نابغ فى فرع تخصصه العلمىّ ، ولكنَّ فروعَ تخصصاتِهم تَخْرُجُ كلُّها مِن أُرُومةٍ واحدة، هى لغتنا العربية . . فالاختلافُ هنا إلى ائتلاف ، والتَّنوُّعُ إلى تَجَمُّع ، والتَّعَدُّدُ إلى تَوحُّد ، وبهذا كله يتحققُ التكاملُ للعملِ المجمعىّ ، الذى نأملُ من الزملاء الجُدُد أن يُخْلِصُوا له قلوبَهم ، ويُخلِّصُوا له بكلِّ ما لديهم مِن علم ، وما فى طاقاتهم مِن عمل !

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إبراهيم الترزى

عضو المجمع

كلمة الأستاذ الدكتور إبراهيم البسيونى

فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

السيد الرئيس

السادة العلماء الأجلاء

تحية من عند الله مباركة طيبة وبعد

فإنه لشرف عظيم لى أن يقع اختياركم علىّ لأكون بينكم وواحدا منكم ، فالذى تختارونه معكم تطول قامته ، وترتفع هامته ، وكأنى بكم أيها السادة أردتم أن تكرموا رجلا عاش مع لغة الضاد قرابة خمسين عاما فى مواقع مختلفة تدريسا وإشرافا وإدارة .. فى الأزهر جامعا وجامعة ، وفى الصحافة تصحيحا ومراجعة ، فى داخل مصر وخارج مصر .. صحيح أننى نلت على امتداد حياتى تلك تقديرا كبيرا من الأجهزة التى عملت معها ، لكن اختيارى عضوا فى مجمع اللغة العربية هو واسطة العقد كما يقولون، وأرفع وسام يزدان به صدرى ، ويجمّل كل ما فات ، ويتألق به ما هو آت . ذلك بأنكم قادة الفكر ، ورواد المعرفة من كل لون ، وحماة الفصحى التى هى أشرف اللغات ، وأوسعها دائرة وأغزرها مادة ، إنكم تزينونها ببحوثكم القيمة ، وما تجيزونه من تعبيرات ، وما تثبتون من ألفاظ الحضارة وبهذا تذللون عَصيَّها وتطوعونها لمقتضيات العصر ، وتيسرونها للقارئين والدارسين والكاتبين ، دون أن تنزلوا بها عن مستواها ، ولا أن تنالوا من الصرح الشامخ الذى أقامه الأئمة من أهل التراث .. فكيف بالله لا يَشرف مع كل هذا من تختارونه عضوا معكم ولا يعظم شأنه فى الناس .. شكر الله لكم ، وبارك عليكم وسدد على طريق العلم والمعرفة خطاكم ، وأسأله تعالى أن يوفقنى ويعيننى على أداء واجبى نحو المجمع ورسالته لأكون عند حسن ظنكم وأهلا لهذه الثقة الغالية .

أيها السادة :

شاءت إرادة المولى جل وعلا أن أشغل مكان الأستاذ الدكتور تمام حسان .. والحق أن خلو المكان من هذا العالم الجليل يعد خسارة كبيرة ؛ نظرا لتمكنه وتعدد مواهبه، فبعد أن ظفر بدبلوم دار العلوم فى سنة ١٩٤٣ حصل على إجازة التدريس فى سنة ١٩٤٥، ثم أوفد فى بعثة إلى انجلترا للتخصص فى علم اللغة ونال الماجستير فى سنة ١٩٤٩ ، ثم حصل على الدكتوراه فى سنة ١٩٥٢ ، وعاد إلى مصر ليعمل مدرسا بقسم فقه اللغة بكلية دار العلوم .

وفى سنة ١٩٦١ ندب مستشارا ثقافيا بسفارة مصر فى لاجوس بنيجيريا ، وأنشأ صلات طيبة بين جامعات مصر وجامعاتهم .. وفى سنة ١٩٦٢ عاد إلى مصر وعين أستاذا للنحو والصرف والعروض فى كلية دار العلوم ، ووكيلا لها .. وفى سنة ١٩٧٢ عين عميدا لهذه الكلية وأنشأ الجمعية اللغوية المصرية وانتخب أول رئيس لها ، ثم أعير إلى جامعة محمد الخامس بالمغرب ، وظل هناك إلى عام ١٩٧٩م .

وجدير بالذكر أن الدكتور تمام كان مع علمه الفياض ، وطنيا يمتلىء قلبه بحب الوطن وحماسة الشباب ، ففى حرب ١٩٥٦ تطوع للقتال فى صفوف المحاربين لدحر العدوان الثلاثى ، على الرغم من أنه كان على أبواب الكهولة وأصر على ذلك إصرارا حازما جعل المسئولين عن المعركة يقبلون تطوعه وبوادر المشيب قد وخطت عارضيه .

وفى مجال البحث العلمى نتاجه موفور فقد ألف أربعة كتب هى : مناهج البحث فى اللغة ، واللغة بين المعيارية والوصفية ، واللغة العربية معناها ومبناها، وكتاب بعنوان الأصول .. كما ترجم عدة كتب أخرى من الإنجليزية إلى العربية .. وله بحث ممتاز نشر بمجلة الكلية بعنوان : منهج نحاة العرب ، وبحث آخر نشر بإحدى مجلات المجمع عنوانه «من طرق القرآن الكريم» وهو بحث جامع لفنون التعبير القرآنى من وجهتى اللغة أو البلاغة. جزاه الله خيرا على ما بذل للعلم والوطن من جهد مشكور ، ومد فى عمره وأعانه

وهو يؤدى فريضة الثقافة والمعرفة فى بلاد المسلمين .

وتبقى كلمة شكر وعرفان للأديب الأريب صاحب القلم الرشيق ، والعبارة الشائقة ، الذى يحمل روحا طيبة ، ونفسا مخلصة ، وأدبا جما ، وعلما نافعا الأستاذ الفاضل إبراهيم الترزى ، عضو المجمع ورئيس تحرير مجلته .. نشكره على تفضله بكل ما قال ، من بديع المقال ، فى كلمة الاستقبال ، والله من وراء القصد ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة الأستاذ الدكتور بدوى طبانة

فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

سيدى الرئيس الجليل

سادتى العلماء الأجلاء أعضاء مجمع الخالدين .

سيداتى وسادتى شهود هذا الحفل الكريم .

أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، له الحمد فى الأولى والآخرة ، له الحكم وإليه المرجع والمآب .

وأصلى وأسلم على من اصطفاه ربّه هاديًا ومبشرًا ونذيرا ، لينقذ البشرية من جهالتها العمياء ويقودها إلى المحجة البيضاء ، إلى صراط الله العزيز الحميد ، وأنزل عليه ذكرًا حكيما ، وقرآنا كريما ، بلسان عربى مبين ، وعلى آله الأطهار ، وصحابته الأبرار ، ومن تبعهم من المهتدين الهداة ، الذين آمنوا بالحق وكانوا له من الدعاة .

ونسأل الله تعالى أن يفتح لنا أبواب رحمته ونحن نلج هذا المحراب ، وييسر لنا صادق القول وصالح العمل ، لنلحق بركب الناجين من عباد الله الصالحين .

سيدى الرئيس الجليل

سادتى العلماء الأجلاء فى مجمع الخالدين .

عجب أن يعيا اللسان ، ويعجز البيان فى هذا اليوم المشهود الذى تستقبلوننى فيه ، وأحاول أن أعبر عن شكرى لكم واعترافى بعظمة صنيعكم ، وعرفانى بجميلكم ، وقد يزداد العجب إذا كان العىّ والحصر من رجل صناعته المحاضرة والمذاكرة والمحاورة ، أفنى فيها زهرة حياته .

والحقيقة أن الشكر الذى أحاول أن أزجيه إليكم ليس ألفاظا أو أجراس حروف تلوكها الأفواه ، وإنما هو تعبير عن مشاعر

تعتلج فى الصدر ، وعواطف يفيض بها القلب ، وأحاسيس تضطرب فى أعماق النفس ، ولا تقوى على الصعود إلى عذبات اللسان ، فما أعظم ما حبوتمونى من فضل ، وما أوليتمونى من ثقة توّجتم بها سعيى فى خدمة العلم ، وأتحتم لى بها هذا المقام المحمود بينكم لأكون حبة فى هذا العقد الفريد من سدنة اللغة العربية ، وهى ثقة أعتدّ بها ، وأعدها أسمى من كل منصب ، وأكبر من كل جائزة ، وأرفع من كل وسام ، لصدورها عن تلك النفوس الزكية ، والقلوب الكبيرة ، والعقول الواعية التى أودعها الله كنوز الحكمة ، وقطوف المعرفة النافعة .

وأسأل الله أن أكون أهلاً لها ، وأن يقدرنى على شكرها ، فإن من تمام نعمة الله على عبده أن ييسر له سبيل شكرها ، فإن شكر النعمة نعمة تضاف إلى نعمة :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمةً
علىّ له فى مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغُ الشكر إلا بفضله
وإنْ طالت الأيامُ واتصل العمرُ

وشكر المنعم سبحانه بلزوم طاعته ، وشكركم أيها السّادة لا يكون إلا بالعمل الدائب والجد الموصول فى خدمة الأهداف الشريفة التى تجردتم لخدمتها ، وعملتم لتحقيقها . وتلك مهمة أحسب لها ألف حساب ، وأشفق منها كل الإشفاق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم .

أيها السادة :

لقد كان فى طليعة الأهداف التى قصد إليها أولو الغيرة على تراث هذه الأمة الحراص على مقوماتها الأصيلة بإنشاء هذا المجمع المبارك الحفاظ على سلامة اللغة العربية ، والنهوض بها حتى تتسع طاقتها لاستيعاب متطلبات الحضارة التى لا تكف عجلتها عن الدوران ، والحاجة المتجددة فى مجالات الفنون والعلوم التى لا يتوقف ركبها عن المسير ، ما دام عقل الإنسان يعمل ويجدّ ويتأمل فى ملكوت السموات والأرض ، وما أودع الله فى مخلوقاته من آثار قدرته القادرة ، وأسرار حكمته البالغة .

وكان الذى دعا إلى التفكير فى إنشاء هذا المجمع وتحديد أهدافه هو الإشفاق على لغة العرب ، بعد أن ترددت دعوات مارقة خبيثة إلى زلزلة كيان العربية العتيد ، وتقويض هيكلها الراسخ ، متذرّعة لدعوتها بتعلات كاذبة ، وأسباب مفتعلة ، تغرى السذج من أبناء العربية بالزهد فى لغتهم والتنكر لها مما لم نسمع بمثله من أصحاب اللغات الأخرى .

ولا شك أنه كان للاستعمار دوره الفعال فى إشعال تلك الفتنة فى أوليات القرن الذى نعيش فيه بتشجيع أولئك المارقين - وهم من صنائعهم وعملائهم - على الجهر بتلك الدعوة الخبيثة . بل لقد كان من المستعمرين أنفسهم من زعم أن علة العلل فى تخلف العرب عن اللحاق بركب الحضارة تكمن فى استمساكهم باللغة العربية التى تعوقهم عن تحصيل العلوم والمعارف لعجزها عن استيعاب تلك المعارف الجديدة ، والتعبير عنها .واغتر بهم مخدوعون ومأجورون ينتسبون إلى هذه الأمة ، ويعيشون بين ظهرانيها . وغايتهم من ذلك تحطيم إرادة الأمة ، وإفقادها الثقة بمقوماتها الأصيلة ، وفى مقدمتها وحدة اللسان الجامع لشملها ، ولغة قرآنها ، وأحكام شريعتها ومستودع آدابها ، لأسباب لا تخفى !

وما يزال أعداء هذه الأمة يتربصون بها الدوائر ، ويزهدونها فى كل مأثور من تراثها ، حتى صارت معاول الهدم والإخراب أقوى من عوامل النهوض والبناء، حتى أثارت تلك الثورة الهدامة شاعرية شاعر النيل حافظ إبراهيم ، ودفعته إلى إنشاء قصيدته المعروفة التى أجراها على لسان اللغة العربية :

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى
وناديت قومى فاحتسبت حياتى

والتى قال فيها :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وماضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

وإذا كانت الحاجة إلى مجمع اللغة العربية قد برزت قبل إنشائه بسنين فإن أمتنا العربية تبدو اليوم أشد حاجة إلى هذا المجمع ، وإلى الجهد الصادق الذى يبذله رجاله الصادقون .

لقد حمل الاستعمار عصاه ورحل عن ديار العروبة يجر أذيال الهزيمة عندما صحا العرب من رقدتهم ، وأفاقوا من غفلتهم ، ولكنه خلّف وراءه بعض الأذناب المفسدين وتسلّلت إلى منابرنا الثقافية دعوات غريبة، بل دعوات مريبة ، أخذت تروّج للواقعية، وتدعو إلى العامية . وكأن أصحاب هذه الدعوات لا يعرفون من الواقعية إلا وجهها القبيح الذى يدعو إلى التحلل من القيم والأعراف التى تقوم عليها المجتمعات الإنسانية ، وهى أعراف وقيم تمثل حصيلة التجارب التى خاضتها كل أمة فى مسيرتها الطويلة عبر القرون ، وأخذت تهذبها ، وتنفى خبثها ، وتبقى على الصالح النافع منها ، لتبنى عليه كيانها ، وتجعل منه مقوّما لحياتها ، ودليلا علي وجودها ، وسمة مميّزة من سماتها .

ولكن هذه القيم أخذت تتهاوى قيمة بعد قيمة . وليس يعنينا فى هذا المقام حديث عما أصاب القيم الدينية ، أو القيم الخلقية ، أو القيم الاجتماعية ، ولكننا نكتفى بإشارة سريعة لما أصاب لغتنا وأدبنا، فقد كثر الدعاة إلى العامية بدعوى أنها لغة الجماهير ، وأصبحنا نقرأ ونسمع صيحات التمجيد والإطراء لما يسمى «الأدب الشعبى» ، وكان الأحرى أن يسمى «الأدب العامى» حتى يتحدد المفهوم ، لأنه ليس من شرط الآداب الشعبية كما عرفتها الآداب الإنسانية كلها أن تكون بلغة العوام. وتلك قضية ليس هذا مجال تفصيلها ، ولكنا نقول إن هذا اللون قد حظى بكثير من العناية حتى صارت له أقسام خاصة فى بعض جامعاتنا ، وتخصص فى دراسته عدد من الباحثين حصلوا على أعلى الدرجات الجامعية .

ولا بأس عندنا بدراسة هذا الأدب على أعلى المستويات على أنه تراث أو سجل لأحداث أو تقاليد حياة لبعض الشعوب ليلحق بالمصادر التاريخية لتلك

الشعوب ، أو يلحق بعلم الاجتماع لأنه يصور حياة هذه المجتمعات وتطورها عبر العصور . وذلك أولى من دراسته على أنه أدب عربى ؛ لأنه لا تجتمع فيه خواص هذا الأدب الذى هو قبل كل شىء تعبير لغوى ممتاز .

وقد يسمى الشعر العامى فى بعض مواطن العروبة «الشعر النبطى» ولا بأس عندنا بهذه التسمية التى تفصله عن الأدب العربى ، وإن كان يكبر عندنا أن يكون منشدوه عربا يعيشون فى قلب الجزيرة ، حتى لقد نضطر إلى أن ننشد مع فيلسوف المعرّة قوله :

أين امرؤ القيس والعذارى
إذ مال من تحته الغبيطُ
استنبط العُرْب فى الموامى
بعدك واستعرب النبيطُ

ثم كانت بدعة «الأدب الهادف» الذى يساير الواقعية فى الفكرة كما يساير الواقعية فى العبارة . إلى غير ذلك من العلل والآفات التي أصابت لغة العرب وأدبها فى الصميم ، وهان شأن الملتزمين بجادة الصواب فسكتوا على الخارجين عليها ، وربما جاروهم فى بدعهم مخافة أن يوصموا بالرجعية أو التخلف أو الجمود ، وهى أوصاف طالما نبز بها أهل الجد والحفاظ فى هذا الزمان .

ولا يرجى لكشف هذه الغمة إلا مجمعكم الموقر ، وعلماؤه العاملون .

* * *

وبعد ، فإننى أشكر لأخى وصديقى العالم الأديب الأستاذ إبراهيم الترزى ما حيّانى به ، وما خلع علىّ من شمائله التى أرانى عاجزا عن بلوغها .

وإذا كان فى نقاد الأدب من يتردد فى قبول الغلوّ فى المعانى والأوصاف ، فإن فيهم من يذهب إلى تفضيله على الحدود الوسطى ، ويرى فيه توجيها إلى الغايات المثلى التى ينبغى أن يسعى إليها الساعون ، ويعمل لمثلها العاملون .

وكذلك أراد صديقى إبراهيم الترزى بأدبه المعهود أن يوجهنى نحو المثل الرشيدة التى نتطلع إليها جميعا .

وهو فى الحالتين مشكور مأجور على ما أثنى به ، وما وجّه إليه .

سيداتى ، سادتى :

يذكرنى هذا الموقف المشهود فى رحاب هذا المجمع المكين بأساتذة كبار من رجاله العاملين سبقوا إلى دار البقاء بعد أن أبلوا خير البلاء فى إرساء دعائمه ، وتوطيد أركانه ، وإعلاء بنيانه ، وكلهم من أولى العزم ، وأقطاب العلم . رحمهم الله جميعا ، ولا حرمنا أجرهم .

ويذكرنى بطائفة من فضلائهم المقدّمين أحسنوا الظن بهذا الضعيف ، فقدمونى إليكم وفى طليعتهم من الراحلين أساتذتنا الكبار الدكتور على عبد الواحد وافى ، والدكتور عبد الحليم منتصر ، والدكتور محمد مهدى علام ، أجزل الله مثوبتهم ، وأنزلهم منازل الأبرار فى جنات النعيم .

والله يحفظكم . ويبارك أعماركم وأعمالكم .

وكلمته عن سلفه الأستاذ عبد العزيز محمد

« وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم »

(الأنعام ١٦٥)

« ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون »

صدق الله العظيم (يونس ١٤)

وهكذا خلق الإنسان ليحيا ما قدرت له الحياة فى دنيا الابتلاء والاختبار التى يتفاوت فيها البشر بمقدار ما كسبوا من الحسنات ، وما اجترحوا من السيئات ، يجيئون ثم يمضون فى أجيال متلاحقة يقفو بعضها بعضا ، ويكون أسلاف وأخلاف ، وسرعان ما يصير الخلف سلفًا . وطوبى لمن اعتبر ، وويل لمن غرّه السّراب ، واتبع هواه فكان من الغاوين .

وقد قضى الله بحكمته البالغة أن أقوم بينكم هذا المقام ، وأشغل فراغا كان يملؤه

سلفى المرحوم الأستاذ عبد العزيز محمد ، وأؤبنه بكلمات أرجو أن توفيه بعض حقه، وإن حقه لعظيم .

وما أشبه موقفى هذا بموقفه يوم استقبله هذا المجمع الموقر وهو يؤبن سلفه الأستاذ الجليل حامد عبد القادر رحمه الله، وموقف الأستاذ حامد عبد القادر وهو يؤبن سلفه عيسى اسكندر المعلوف . حلقات متصلة يقفو بعضها بعضا فى تاريخ هذا المجمع ، وفى ذلك عبرة أى عبرة لمن يريد الاعتبار .

والمرحوم الأستاذ عبد العزيز محمد علم من أعلام هذا المجمع الموقر ، وهو عالم كبير ، وفقيه خطير ، عملاق من جيل العمالقة فى فقه القانون ، وقطب من أقطاب القضاء فى مصر ، وصل فيه بجدّه وذكائه واستقامته وإخلاصه إلى القمة التى بلغها عدد من أعلامه المعروفين فى تاريخ القضاء المصرى فى هذا القرن من أمثال عبد العزيز فهمى ومحمد كامل مرسى وعبد الرزاق السنهورى وغيرهم من الأعلام النابهين .

ولا غرو أن يبلغ هذا المبلغ بعد أن أخلص حياته الطيبة المباركة لخدمة العدالة محاميًا يدافع عن المظلومين ، ويستردّ حقوق المغلوبين ، وقاضيا يفصل بين المتخاصمين ، وأستاذا يفيد طلابه فى جامعتى القاهرة وعين شمس وفى جامعة بغداد من خبرته الواسعة ومعرفته العميقة بالقانون وبأصول التقاضى ، وباحثا محققا، ومؤلفا خبيرا له آثاره المذكورة فى فقه القانون المدنى الذى ألف فيه كتابين يعدان فى مقدمة المراجع التى يعتد بها ، ويعتمد عليها .

وفى الفترة التى قضاها فى العراق أستاذا فى كلية الحقوق بجامعة بغداد كتب شرحًا للقسم العام من قانون العقوبات العراقى وشرحًا آخر للقسم الخاص من ذلك القانون .

ولم يكفه ذلك الجهد المضنى الذى بذله فى المحاماة والقضاء والتدريس الجامعى والتأليف ، بل إنه أسهم فى تعديل كثير من القوانين التى يجرى عليها

القضاء المصرى ، كما أسهم فى تعديل قانون هذا المجمع ، وفى كثير من الأعمال النافعة التى تتصل بتخصصه وثقافته القانونية المتبحرة .

ذلكم أيها السادة هو الرجل الذى ودّعه بالأمس مجمعكم الكريم ، بعد هذه الصفحة الحافلة بجلائل الأعمال التى سجّلها فى كتاب التاريخ بالعرق والكفاح ولزوم الصراط المستقيم .

وما أظن أننى استطعت الوفاء له بما هو أهل له من الثناء والإطراء ، أو القيام بما ينبغى لمثله من التأبين أو الرثاء .

وأعترف أننى لا أستطيع أن أضيف جديداً إلى ما قرره العالمون بسيرته ، والمتتبّعون لمسيرته من جهابذة القضاة وفقهاء القانون الذين أجمعوا على إكباره ، وأشادوا بفضائله ، وقيامه بواجبه بإخلاص وكفاية وتجرّد ، وفى صمت الحكماء الذين لا يعرفون الدعوى ، ولا يراءون الناس ، ولا يستجيبون إلا لداعى الحق ، ونداء الضمير .

ويصفونه بسعة العلم ، وغزارة المعرفة، والتثبُّت ، والأناة ، وقوة الحجّة ، وسلامة المنطق ، وغير ذلك من الفضائل اللازمة لمن يلون أمور الناس ، ويعملون على إصابة الحكم ، وإحقاق الحق .

أيها السّادة :

إن البحث عن المعرفة هو عمل الصفوة من البشر ، والوصول إلى الحقيقة هدف من أهم أهداف الإنسان العاقل الرشيد الذى يتطلع دائما إلى الكمال ، ولكنه لا يدّعيه ، وغاية الفيلسوف العاشق للحكمة التى وصفها رسول الله ﷺ بأنها ضالة المؤمن ينشدها فى كل زمان ومكان .

وكان السفسطائيون يقولون إنهم هم الحكماء ، وإنهم معلمو الحكمة للناس ، حتى كان سقراط الذى قال متواضعا إنه ليس حكيما ، وإنما هو محبّ للحكمة !

وكذلكم أيها السادة كان الأستاذ عبد العزيز محمد واحداً من عشاق المعرفة، الباحثين عن الحقيقة فى ترفع ، وفى بعد

عن الزهو أو الإدلال بما يوفق إليه ، فقد جمّله الله بالتقوى ، وزينه بالفضائل النفسية وفى مقدمتها فضيلة التواضع التى هى حلية المتمكنين من العلماء العاملين ، حتى كان التواضع سمة من سماته البارزة، وكأنه غريزة من غرائزه التى طبع عليها .

وقد أحلّه هذا المحل الرفيع تواضعه وترفّعه ، وحبّه للعلم ، وكلفه بالمعرفة التى عاش طالبًا لها ، وساعيا إليها ، وحريصا عليها منذ نعومة أظافره حتى استوفى أجله المقدور .

ولم يجد الأستاذ عبد العزيز محمد فى تعريفه لنفسه فى الكلمة التى ألقاها على هذا المنبر يوم استقباله فى هذا المجمع خيراً من قوله الذى عبّر فيه عن هذا الشغف بالمعرفة فى عبارته الوجيزة فى لفظها ، العظيمة فى دلالتها :

«ولو أذن لى أن أقدم نفسى لقلت : طالب معرفة ناشئا وشابا وكهلا ، هجر بلده فى الصعيد فى السابعة حيث لم يجد سبيلا لما يبغى ، وأقبل على القاهرة حيث بدأ تعليمه ، وحيث أتم دراسته فى الحقوق ، وظل طالب معرفة حين مارس المحاماة ، وحينما جلس للقضاء . وكان ذلك فى كل عمل تولاه ، وها هو «ذا» يسعى فى كهولته إلى مجمعكم الموقر طالبًا المزيد من المعرفة ، راجيًا أن تكرموا وفادته ، وأنتم لذلك أهل» !

تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه ، وجزاه خير ما يجزى به العلماء العاملون .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

بدوى طبانة

عضو المجمع

كلمة الدكتور عبد السميع محمد أحمد

فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

السيد الرئيس

السادة الزملاء

سيداتى سادتى :

يطيب لى أن أمثل بينكم الآن ، وإنها لأمنية غالية عزيزة أن أقف هذا الموقف فأخاطب جماعة العلم وأساطين الأدب وأفذاذ المعارف فأشكر لهم كل الشكر اختيارى لأكون بين هؤلاء الأفاضل أغترف مما يغترفون وأسهم كما يسهمون ، وأشكر للأستاذ الجليل الدكتور رئيس المجمع الموقر موافقته على انتخابى ومصادقته على هذا الرأى .

وأشكر للأخ الأستاذ إبراهيم الترزى هذه الكلمات الجميلة التى قدمنى بها لإخوانى السادة ، لقد أضفى علىّ من سجاياه ومن أخلاقه ، ووهبنى ما لا أستحق ، فشكرا له ألف شكر .

وبهذا القدر أذكر للأستاذ الجليل الدكتور محمد توفيق الطويل علمه الغزير وفضله الكبير ، فقد كان فيلسوفا شغف بالفلسفة والأخلاق ، وكتب وألف وحاضر ، وقاد صفوة من أبنائه فى الجامعة بعد أن تخرج فى كلية الآداب بالقاهرة ، فعين معيدا بها وتنقل فى سلك التدريس حتى صار رئيسا لقسم الفلسفة بالكلية ، وعبر مصر إلى الخارج معارا وأستاذا زائرا فى كلياتها وجامعاتها ، وانتهى به المقام فى جامعة الكويت نحو ست سنوات بين سنتى ١٩٧٨ و١٩٨٤ ، وجذبته المؤتمرات والندوات العالمية والمجلس الأعلى للثقافة مقررا للجنة الفلسفة والاجتماع . وشغل المكان الذى كان يشغله الدكتور منصور فهمى ، والدكتور أحمد لطفى السيد والأستاذ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور رئيس

المجمع الحالى الدكتور مدكور والدكتور عثمان أمين ، فكان خليفة لأهل الفلسفة الذين قدّموا لهذا الفرع من فروع المعرفة الخير الكثير وأناروا للشادين طريقهم وبسطوا لهم قواعده .

والمجمع فى حاجة إلى شتى التخصصات ، فيضم ، كما يضم الآن ، اللغويين والأدباء والعلميين والقانونيين والفلاسفة والفنيين والتشكيليين ، وغيرهم. وقراراته ملزمة ، وآراؤه واجبة ، وإن كنا نرى الآن عزوفا عن بعض قراراته وآرائه فليس هذا خطأ المجمعيين .

وإذا كان الدكتور الطويل قد ألف فى مبدأ حياته العلمية كتاب « الأحلام فى الفكر الإسلامى » ، وقدمه الأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق ، فإن مؤلفات وأعمال وخبرات الدكتور الطويل سارت فى نفس الدرب ، درب الفلسفة والأخلاق، فأخلص لهذا الفرع من فروع المعرفة . يقول فى ختام كتابه «فلسفة الأخلاق» : إن الإنسان هو الكائن الأخلاقى الوحيد ، لأنه من بين سائر الكائنات هو وحده الذى يمكن أن يضيق بواقعه ، ويتطلع جادا واعيا إلى ما ينبغى أن تكون عليه حياته . . إن الإنسان لا يكون مميزا عن سائر الكائنات بغير مثل أعلى يدين له بالولاء «وولاؤنا للدكتور الطويل يكون بذكره كلما عرضنا لما قصد له ، وتطلبنا من الإنسان أن يتحلى به حيث يكون .

والمجمع يجدد شباب اللغة ، ويحيى ما اندثر فيها أو قبع بين صفوف المؤلفات والمراجع ، أو ما أخفاه الزمن والحاجة إليه ماسة ، أو ما تردده الألسنة الآن ويحتاج إلى التصويب ، أو ما يهتدى إليه العلم من مصطلحات جديدة . ووسائل العلم الموروثة تفيد فى إرجاع هذه المصطلحات إلى قواعد اللغة أو تجد وسائل أخرى لاحتضانها وضمها إلى ثروتها .

واللغة كائن حى ، يتطور وينمو ، ويتسع ، فيضم فيما يضم ، هذه المصطلحات الجديدة ، ويخضعها لأساليب اللغة العربية ، لغة المجمع ، وهو يعلم تماما أن العربية حافظت على قواعدها ونظامها أكثر من ستة عشر قرنا ، وأنها

لغة علم وفن وهى لا تضيق بالمصطلحات الجديدة ، لأن القرآن الكريم قد جاء حافظا لها من اندثار ، أو تخلف ، أو اختفاء كما اختفى غيرها أو غاب عن التداول ، أو توارى إلى جديد يحجبها .

وإن النظرة العلمية غير المتحيزة تعترف بما للغة العرب من تفوق ، والمستشرقون أنفسهم يفد كثير منهم إلى العواصم العربية أساتذة زائرين ، أو أعضاء فى المجامع . وليس ببعيد أن نرى فى مصر أمثال ماكس ماير هوف المتجنس بالجنسية المصرية ، أو كارل بروكلمان الباحث العربى أو نللينو أو برجشتراسر أوليتمان .

حقا بدأ العرب عند ظهور الإسلام بترجمة كتب اليونان فى الطب والكيمياء والفلسفة ، وكذلك فعلوا مع الفرس والهند ، ولكنهم ، وبعد أن انتشر الإسلام واستقر الحكم العربى ، نجد العقل العربى المتفتح يظهر ، ويبتكر ، وتترجم كتبه إلى اللغة اللاتينية لغة العلم إذ ذاك . وتُرجِم فيما تُرجِم إلى اللاتينية كتب اليونان وغيرهم التى حفظها العقل العربى ، وعن طريق العرب حفظت الكنوز والذخائر ونقلت إلى أوربا وانتقل إلى أوربا كتاب الخوارزمى فى الحساب عن طريق إسبانيا ، وقامت فى أوربا مدرسة علمية جديدة تعرف باسم «مدرسة الخوارزميين» .

وقد أعجب ليوناردو ، الذى حضر من بيزا إلى باجة الواقعة على ساحل الجزائر الممتد على البحر الأبيض المتوسط ، بشرح أستاذه العربى حين قال له : إن أساتذة المدارس العليا فى بغداد والموصل كانوا يكسرون بين العددين المكتوب أحدُهما فوق الآخر عن طريق خط بينهما ، وتعلم كذلك حساب الأس (٢×٢=٤) وحساب الجذور مثل ٢ وهى جذر ٨ أو ٤ وهكذا ، وزار دور الكتب فى دمشق والإسكندرية ، كما تناقش مع علماء القصر فى القاهرة وقد ولد ليوناردو حوالى سنة ١١٨٠ فى بيزا [(صـ ٦١) فضل العرب على أوربا – لمؤلفته : سيجريد هونكه – ترجمه إلى العربية د. فؤاد على حسنين] .

وهولاكو المغولى، الذى خرّب بغداد وأشعل فيها النيران ، لم يكن مقتنعا بعلم الفلك الذى عنى به العرب ، واتخذ من ناصر الدين الطوسى (١٢٠١ - ١٢٧٤) الذى كان فى خدمة الأمير الإسماعيلى الذى قتله اتخذه وزيراً لماليته ، وشرح ناصر الدين لهولاكو نظرية المرصد ، فمنحه بعد إنشائه مبلغا كبيرا من المال ، وكان ناصر الدين يتابع سير النجوم والكواكب فى السماء زهاء ثلاثين عاما من حياته ، وكان فى مرصد ناصر الدين كرة مشتملة على خمسة أطواق من النحاس لقراءة مواقع النجوم ، وأول هذه الأطواق هو دائرة نصف النهار ، وكان مثبتا فى الأرض ، والثانى خط الاستواء ، والثالث سمت الشمس ، والرابع خطوط العرض ، والخامس الاعتدالان .

والأمثلة كثيرة على اهتمام العرب بالعلوم وعلى تعصب بعض الناظرين إليهم من زوايا مختلفة ولئن تخلفوا بعض الشىء عن إخوتهم علماء الغرب وأخذ الأخيرون علمهم وتجاربهم ، وتطويرهم لما نقلوه من اليونان والرومان والفرس والهند ، فعذرهم أن العلم لا وطن له ، وأن النهضة التى ترى الآن فى أوربا وأمريكا يرجع الفضل فى بقائها وحفظها وتطويرها إلى العرب ، كما يرجع الفضل إليهم فيما ابتكرته عقولهم وملاحظاتهم المستمرة وتجاربهم .

أيها السادة :

لقد كان الدكتور توفيق الطويل معنيا بالشئون الإسلامية ، وبالعرب وكان يضرب الأمثال بهم ، ويعود إليهم ، لقد كان خليقا به أن يحتل مكانه فى مجمع اللغة العربية ، وكان خليقا به أن يحمل مشعل الثقافة الفلسفية فيه ، وأن يصير عضواً فى لجنة الفلسفة بالمجمع ويشرف على إعداد القاموس الفلسفى للطبع .

أيها السادة :

لكم جميعا صادق الشكر لتفضلكم لاختيارى عضوا فى هذا المجمع العلمى ، وللأستاذ الدكتور رئيس المجمع أصدق الشكر وأعمقه .

وللأخ الأستاذ إبراهيم الشكر لتفضله بهذه الكلمات أضفاها علىّ .

والسلام عليكم ورحمة ا

كلمة الأستاذ مصطفى حجازى

فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سيدى الرئيس الجليل

سادتى أعضاء المجمع الأجلاء .

أيها الحفل الكريم :

أرى لزاما علىّ أن أتقدم إليكم بجزيلِ الشكر ، وعظيم التقدير ، لما أوليْتمونى من شرفٍ كبير بانتخابى عضوًا فى هذا المجمعِ العريقِ ، فصَيَّرتمونى زميلاً لكم ، أحملُ معكم أمانةَ الحِفاظِ على هذه اللغةِ الشريفةِ ، وأتحملُ معكم عِبءَ النهوضِ بها، لتبقَى على الزمن خالدةً خلودَ كتابِها المعْجِزِ، الذى «لا يأْتيه الباطلُ من بينِ يديهِ ولا مِنْ خلْفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد» ولتواكبَ فى تَطَوُّرِها ركبَ الحضارةِ المعاصرةِ فى مَسيرته المسرعةِ ، ووثَباته المتلاحِقةِ ، ولتجمعَ إلى أصالةِ ماضيها العريقِ حداثةَ حاضرِها الجديد ، فتصيرَ قادرةً على التعبيرِ عن كل مستحدَثٍ فى شَتَّى فروعِ العلمِ وأنواعِ المعرفةِ ، وتلك هى رسالةُ مجمعِكم الموقّر.

سادتى : لقد سعدتُ كلَّ السعادة حين هَتَف بىَ الزميلُ الفاضل الأستاذُ إبراهيم الترزى ليزُفَّ إلى نَبأ فوزِى بثقتِكم الغاليةِ ، التى أعتزُّ بها ، وأرجو أن أكونَ أهلاً لها ، فشرحَ بذلك صدرِى ، وغمرَ بالسعادة نفسِى ، ولا غَرْوَ أن كان سرورِى بهذا الفوزِ عظيمًا ، فلقد جاءَ بعد أن استُؤْذنَ لى عليكم - من قبلُ - مرتين ، قالَتْ كلتاهما وما نالَتْ ، وكانتا عارِضًا من الآمالِ أخلَفَ وَدْقُه ، وسحابًا من المُنَى كذب برقُه ، وعدتُ بعدهما من اليأسِ على مثلِ قابَيْ قوس ، لولا بقيَّةٌ من أملٍ عاشت تغتذِى بقولِ محمدِ بن يسيرٍ الرِّياشىِّ :

لا تيـــأسَنَّ وإن طالَت مطالبـةٌ
إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترَى فَرَجَا
أخلِق بذِى الصبرِ أن يحظَى بحاجَتِه
ومُـدْمِنِ القَرْعِ للأبوابِ أن يلجَـا

ثم كـانت هذه هى المرَّةَ الثـالثـةَ التى يُستَأْذَنُ لى فيها عليكم ، وفاءً بالسنَّةِ الشريفة فقد قال - عليـه الصلاةُ والسلام - : «إذا استَـأذنَ أحـدُكم ثلاثـًا ، فلم يُؤْذَنْ له ، فليرجع» وهأنتُم أولاءِ - أكرمكم الله - قد أذِنتُم لى ، فـالسلامُ عـليكم ورحمـةُ الله وبركاته .

سيدى الرئيس ، سيداتى وسادتى :

إنه لتقليد حسـنٌ ، وسُنَّةٌ حميدةٌ تلك التى جَـرى عليهـا مجـمعُكم الموقَّـر ؛ إذ جعل من رُسـومِه أن يُقِيمَ مـثلَ هذا الحفل لاستـقبالِ عُضْـوِه الجديد ، وأن يُنِيبَ عنه واحـدًا من أعـضـائِه ، ليُلْـقِىَ كلمـةً فى استقـبالِه ، يقدِّمُه بهـا إليكم ، ويعرِّفُ به لديكم ، ومضت هذه السُّنةُ مـحمودةً منذ قامَ هذا المجمعُ العريقُ إلى اليـوم ، وشيئا فشيئًا صارَ هذا التقديمُ أقربَ إلى التكريم، وأصبـحَ ذلك التعـريفُ أشبَهَ بـالتقيـيم ، وأحسَبُنِـى سمعتُ الآن - فيمـا كرَّمَنِى به الزميلُ الفاضلُ الأستاذُ الترزى - من الثناءِ والإطراء مـا يملأُ النفس زَهْوًا وعُـجْـبًـا ، حتى ظَنَنْتُه يتحدثُ عن إنسانٍ آخرَ لَيْسَنِى، وتمَنَّيتُ أن أكونَه ، وأخـشى أن تكون عينُ الرِّضا قد غلبت الـصديقَ المخلصَ ، حتى أرَتْهُ مِنِّى مـا لا أراهُ من نفسِى التى أعـرفُ قَدرَها ، «ومـا هلكَ من عَرَفَ قدر نفـسِه» كـما يقـولُ الرسـولُ الكريم ، ورضىَ الله عن أبى بكر الصديق ، فقـد كان إذا مُدِح دعا ربَّهُ فقال : «اللهم اجعلنى عندك خيراً مما يَظُنُّون ، واغـفر لى ما لا يعـلمون» . وأُشْهِدُكم - أيهـا السادة - أنَّنى ما زلتُ - كما كنتُ من قبل - طالبَ علم ، شَرُفْتُ بالعملِ فى مجمعِكم هذا نَيِّفًا وثلاثين سنةً؛ محررًا ، فرئيسَ تحرير ، فمراقبًا ، فمديرًا، فخبيرًا ، وكان هذا المجـمعُ جامعَتِى الثانيةَ التى تَخَرَّجْتُ فيهـا على مـشيخةٍ عظيمـةٍ مـن أعضـــائه الأجــلاَّء ، أذكـر منهم - ولا أحصـيهم ، فـهـم زيـدٌ علـى مـئةٍ - فيـهم : أحمد لطفـى السيد ، والعـقّاد ، وطه حسين ، والزيّـات ، وأمين الخولى ،

وعلى عبد الرازق ، ومحمود تيمور ، ومحمد فريد أبو حديد ، ومحمد عوض محمد، وأحمد بدوى ، ومحمد خلف الله أحمد ، ومحمود شلتوت ، ومحمد على النجار ، وعبد الرحمن تاج ، ومحمد محيى الدين عبد الحميد .

واستحدثت فى هذا المجمع صلةً جديدةً بأساتيذَ لى قُدامى ، تَلْمَذْتُ لهم فى دار العلوم - فى الأربعينيات - أذكر منهم أستاذىَ الجليل رئيسَ المجمع الدكتور إبراهيم مدكور ، - حفظه الله ورعاه - وأذكر من الراحلين الخالدين : إبراهيم مصطفى ، وزكى المهندس ، وعبد الحميد حسن، وحامد عبد القادر ، ومهدى علام ، وعطية الصوالحى ، وعلى النجدى ناصف ، وعلى السباعى ، وعلى الخفيف ، وعلى عبد الواحد وافى ، وعباس حسن ، وعلى الجندى ، وإبراهيم أنيس .

أولئك أشياخى فمَنْ لى بمثلهم
وأنّى لهم مِثْلٌ على أبَدِ الدهرِ ؟!

كما أُتيح لى - فى هذا المجمع - مَدَدٌ من معارفَ شتّى - فى غير مجالِ اللغة والأدبِ - أقدَنُها من أعضاءٍ كانوا فُقهاءَ فى القانون ، من أمثالِ : عبد الحميد بَدَوى ، والسنهورى ، وعلى بدوى ، ومحمد مصطفى القُلّلى ، ومن نَوابغ الأطبَاءِ الأعضاء : أحمد عمّار ، ومحمد كامل حسين ، ومحمد أحمد سليمان . .

ومن زملائهم العلماءِ ، فى الصيدلةِ والكيمياء ، وفى علوم الطبيعةِ والأحياء ، وفى التاريخ والجغرافية . . كنت أستمعُ إلى هؤلاءِ وهؤلاء ، وهم يتحاورون فى لجان المجمع ، وفى مجلسه ، ومؤتمره ، فأفيدُ منهم أكثرَ مما يستفيد طُلاّبُهم فى حلَقاتِ الدرسِ ، وفى قاعات الجامعة ، ثم مَضَوْا جميعًا إلى ربهم ، محمودةً سِيرُهم ، خالدةً آثارُهم ، وكأنّهم من عنى شوقى بقوله :

كانوا أجلَّ من الملوكِ جلالةً
وأعزَّ سلطانًا وأفْخَمَ مظهرًا

أيها السادة الأجلاء : لقد شرفتمونى حين منحتمونى ثقتكُم الغالية ، فصيرتمونى زميلاً لكم ، ثم زِدْتمونى شرفًا حين بوأْتمونى كرسيًا شَغَله قبلى صديقٌ عزيز ،

وعالمٌ فاضل ، هو المرحوم الدكتور أحمد السعيد سليمان ، الذى ترجعُ صلتى به إلى سنة ١٩٦٣ حين اختاره المجمعُ خبيراً للمعجمِ الكبير فى اللغات الشرقية ، وكان عملُه معى فى المعجم يقتضينا أن نلتقىَ - فى المجمع كل أسبوع - مرةً أو مرتين ، وكنتُ كلَّما التقيتُ به آنستُ من علمه وأدبِه ما يُقرِّبُه من نفسِى ، ويحبِّبه إلى قلبِى ، فلم تلبث صلةُ العملِ هذه أن تحوَّلت إلى صداقةٍ حميمة ، ومودَّةٍ كريمة، دامت بيننا تنمو وتزدهرُ على الأيام إلى أن اختارَه الله لجوارِه ، فافتقدتُ برحيله أخًا مخلصًا ، وصديقًا وفيًّا .

وإنى لأذكر له - رحمه الله - أنه كان يتعجَّلُ عودتِى إلى المجمع من عملى فى الكويت ، ولم أكد أعودُ حتى بادرَ إلى ترشيحِى - ومعه أصدقاءُ فضلاء - لعضويَّةِ مجمعِكم الموقر ، ولن أنسى يوم قابلنى غداةَ الانتخاب - بعد ترشيحى للمرةِ الأولى - فتبسَّم ضاحكًا ، وهو يقول : «فرقت دُوه» ودُوه فى الفارسية - كما تعلمون - تعنى اثنين ، يريد صوتين. ثم لقينِى بعد ذلك بعام - عقب ترشيحى للمرةِ الثانية ، وغداةَ يومِ الانتخاب - فمازحنى متمثِّلا بقولِ أبى النَّجْم :

* والشمسُ قد كادَتْ ولَمَّا تَفْعلِ *

وأردفَ قائلا - صادقًا أو مُجاملا - : «فى هذه المرة فرقت يك» ويك - فى الفارسية، كما تعلمون - تعنى واحدًا ، ثم قال : لا بأس ، ولا يأس، «والتالته تابته» كما يقولُ المثل ، فقلتُ له: إن شاء الله . ثم كانت الثالثة ، فصحَّتْ نبوءتُه ، بعد أن فاتَتْنِى - برحيله - زَمالَتُه:

وقد كنتُ أرجُو أن أمَلاّه حقبةً
فحالَ قضاءُ الله دُون رَجائيا

سادتى الأجلاء : وجريًا على سنةِ المجمع فى حديث الخالف عن السالف ، أذكر لكم ما رواه لى سَلَفِى - الدكتور أحمد السعيد - من سيرته الذاتية ، فقد حدَّثنى أنّه ولد فى مدينة المنصورة سنة ١٩٢٤ وكان أبوه من أهلِ القرآن ، رجلاً صالحًا متديِّنًا ، يشتغلُ بتجارة الغلال ، وكان معروفًا بالصدق والأمانة ، يرعى الله فى تجارته ، ويتحرَّى الحلال فى كسبه ، فبارك الله له فى مالِه وولدِه وأهلِه ، وقد حَرَصَ هذا الوالد الصالح على أن يأخذ

ولده بحفظ القرآن الكريم ، وتجويده ، فاستظهرَ منه فى سن مبكرة قدراً غير قليل ، وكان ينسخُ ما يحفظُ من المصحفِ فى اللَّوْحِ أوّلاً - على عادة أهل زماننا - فجاد بذلك خطُّه ، واستقام بالقراءة لسانُه ، وفَصُحَتْ بالحفظِ لُغَتُه ، فكانَ له من كل ذلك ما أورثه ثقةً فى النفس جعلته - على صِغَرِ شخصِه بين زملائه - يبدو كبير الشَّخْصِيَّة ، وظلّ متميزاً بين أقرانه فى دراستِه الابتدائيةِ والثانَويَّة . ثم التحق بكليةِ الآداب فى جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٤٠ فاختارَ قسم اللغة العربية التى أحبَّها ، وشُغف بها ، فتخرّج فيها سنة ١٩٤٤ وهو فى العشرين من عمره ، ولعله كان أصغرَ دفعته سنّا ، وعقب تخرجِه عملَ مدرسا للغة العربية فى مدرسةٍ للبنات من مدارس التعليم الحر ، ولم يلبث بها إلا قليلا حتى عُيِّنَ فى وِزارة الشئون الاجتماعية فى إدارة الدِّعاية والإرشاد ، ثم فى إدارة الجمعيّاتِ الخيريّة . وكان إلى عمله هذا طالبًا مجتهداً فى معهد اللغات الشرقيةِ الذى حَصَلَ على دبْلُومه - المعادل للماجستير - فى سنة ١٩٤٧ وكان الأولَ على قسم اللغة التركية ، فرشحته كليةُ الآداب للحصول على درجة الدكتوراه فى الدراسات التركية من السربون ، فسافر إلى باريس سنة ١٩٥٠ واقتضاه الموضوعُ الذى اختاره لدراسته السفرَ إلى تركيا ، فرحل إليها ، وأقام بها عشرين شهراً متنقِّلاً بين مكتباتِ استانْبُول وأَنْقِرة وقُونِيَة، يجمع مادة رسالته ، ويجوِّدُ لغته التركية حتى أتقنها ، واطَّلع على كثيرٍ من تراثها، ثم عاد إلى باريس، فسجَّل موضوعَ رسالته لدكتوراه الدولة ، وكانت من قسمين :

الأول - وهو الرسالة الرئيسية ، وعنوانها : «العقائد السِّرِّيَّة للبكتاشية» وهى إحدى الطرقِ الصوفية التركية ، وأشرف عليها المستشرقان الفرنسيان : ماسِينْيون ، وچان ڤال .

والقسم الثانى - وهو الرسالة التكميلية ، ترجمة نص تركى عنوانه «دفتر العشّاق» المنسوبُ إلى المتصوفِ التركيِّ المعروفِ بعبدِ الله المغاوِرى ، ذى الشهرة

الشعبية لدى القاهريّين ، والمدفون بهَضبَة المقطم ، وأشرف عليها الأستاذ «لويس بازان» .

وقد أثنت لجنةُ المناقشةِ على عمله ثناءً طيبا ، ونَوَّهَت بالجهدِ العظيمِ المبذولِ فى الرسالتين ، تأليفًا وتحقيقًا وترجمةً ، ومنحته دكتوراه الدولة بمرتبةِ الشرفِ الأولى سنة ١٩٥٦ فكان أولَ مصرى نالَ هذه الدرجةَ العلميةَ الرفيعة ، فى الدراسات التركية ، كما كان أولَ مصرى يُدَرِّسُ اللغةَ التركيةَ وآدابَها ، وكان أساتذتُها قبلَه من الأتراك .

وعاد الدكتور أحمد السعيد إلى مصر فى أغسطس سنة ١٩٥٦ فعيِّن معيدًا بكلية الآداب ، ثم صار مدرسًا ، فأستاذًا مساعدًا ، فأستاذًا لكرسى اللغاتِ الشرقية، فرئيسًا للقسم ، ثم أستاذًا غير متفرغ بعد بلوغه الستين ، وإلى أن لَقِي ربَّه راضيًا مرضيًا .

ولقد كان فى حياته الجامعية مثالَ الأستاذِ القُدوةِ ، يخلصُ فى عمله ، ويحرصُ على نفعِ طُلاَّبِه ، ويرعَى النابغين منهم ، ويحثُّ أبناءَه طُلاَّبَ الدراساتِ العليا على الاستزادة من العلمِ بهذه اللغةِ التركية ذاتِ الصلاتِ الوثيقَةِ بتاريخنا الحديث ، فنَهَضَت على عهده الدراساتُ التركيةُ والفارسيةُ ، وتخرجَ على يديه نحوٌ من ثلاثين دارسًا ، أشرفَ على رسائلهم للماجستير وللدكتوراه ، وكان فى إشرافِه نعم المعينُ للطالبِ ، يساعدُه فى اختيارِ الموضوع ، ويرسُمُ معه منهجَ الدراسة ، ويرشدُه إلى المراجع والمصادر فيها ، ويظلُّ يرعاه حتى يقدِّمَه إلى لجنة المناقشة ، معتزًا به ، فَرِحًا بنيلِه درجتَه ، يراه ثمرةً يانعةً لغرسه الطيب ، وما كان أسعدَه حين يتحدثُ عن أبنائه هؤلاء ، فخورًا بما بلغوه من مناصبَ مرموقة ، بين هيئات تدريسِ اللغات الشرقيةِ فى جامعاتِ القاهرة ، وعين شمس ، والأزهر .

وكان للدكتور أحمد السعيد شرفُ تمثيلِ جامعةِ القاهرةِ فى المؤتمر الدولى الثامنِ والعشرين للمستشرقين ، الذى عقد فى كانبرًا باستراليا سنة ١٩٧١ وكان الوحيدَ الذى ألْقَى بحثين فى هذا المؤتمر ،

كما دُعِيَ أيضـا للمؤتمر الدولى للدّراسات التركية الذى عقد بأنقرة سنة ١٩٨٥ وألقى فيه بـحثًا عن «الصحـافة التركية فـى عهد محمد علىّ» وشارك أيضا فى مؤتمرِ التراث الشعبى فى الأدب التركـى المنعقدِ فى أنقرة سنة ١٩٨٩ وأسـهـم فـيـه ببـحـثـه عن «المُخَلَّفاتِ الوثنية فى ملحمة بَطّال غازى».

السـادةُ الأعضـاء : هذه مـلامحُ من شخصيّة الدكتور أحمـد السعيد الجامعية ، أجملتها فى إيجاز ، أما شخصيتُه المجمعيّة، فقد كان رحمه الله - كما عهدتموه - دائبَ النشـاط ، ماضِىَ العـزيمةِ ، وحين اختـير خبيـرًا للمعجم الكبير فى اللغات الشـرقية سنة ١٩٦٣ - أقبـل على عمله مـخلصًا ، وأبدى مـن الكفـــاية لما نُدِبَ لـه ، ومن المعرفةِ بالعربية وآدابها ما لَفَتَ إليه الأنظار، وجَذَبه إلى دائرةِ الاختيار ، فانتخب عُضوًا فى سنة ١٩٧٩ وشغَل الـكرسىَّ الذى خلا بوفاة المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس ، فكان خيرَ خَلَفٍ لخيـرِ سلفٍ ، ومضى راشدًا ، يبذل جهـدَه ، وينشدُ الكمالَ فيـما يطلب منه ، وراح يُسهمُ فى لجان المجمع المختلفة، فكان عضوًا فى لجان المعجم الكبير ، وفى ألفـاظ الحـضـارة ، وفى لجنة الكيـمـيـاء والصيدلة ، وفى الأحياءِ والزراعة ، وصار مقـررًا للجنة التاريخ والآثار . وتشـهدُ له هذه اللجان بسَعَةِ المعرفة ، وصدقِ التعاون، كمـا يعرفُ له المجلسُ والمؤتمر إسهـامَه فى جِدٍّ وإخلاصٍ ، وإيثارَه المجـمع بجُلِّ وقتِه وجهده .

ولقـد اختـاره المجـمع ممثـلا له فى مؤتمرين :

أحـدهـمـا : المؤتمر الذى أقـيم فى بودابست احتفالا بمرور مئة سنة على ميلاد عضـو المجمع المراسل المسـتشـرق المجرى «عـبـد الكريم چرمـانوس» وحـالت دون سفـره ظروفٌ ، فبـعـث إلى المؤتمر ببحـثه الذى كتبه بالفرنسية .

والآخـر : المـؤتمر الذى أقـيم فى السربون سنة ١٩٨٩ - احـتفالا بمرور مـئة عـام على ميـلاد رئيس مجـمعنا السـابق الدكـتور طه حـسين ، وحـال دونَ سفـره مـرض طارىء ، فبـعث إلى المؤتمر بحثًـا

طريفا فى بابه ، كتبه بالفرنسية عن «طه حسين ناثرًا نحويًا» .

أما بحوثُه المجمعية فمنها بحثُه الذى ألقاه فى مؤتمر المجمع للدورة السادسة والأربعين فى «تأصيل بعضِ الدخيل من أسماء الملابس والأطعمة فى كتاب الجبرتى» .

وبحثُه الآخر الذى أسهم به فى مؤتمرِ المجمع للدورة الخامسةِ والخمسين وعنوانه: «ألفاظٌ حَضارية بَطُلَ استعمالها» .

وأما إنتاجه العلمى فقد انتظم مجالات ثلاثة :

(أ) الأول : فى التصوف والعقائد الباطنية لبعض الأتراك ، وصدرت له فيه الدراسات التالية :

١ - العقائد السرية للبكتاشية (بالفرنسية) .

٢ - دفتر العشاق : رسالة للصوفى التركى «عبد الله المغاورى» ترجمها عن التركية .

٣ - المَوْلَوِيّة : آدابُها ومراسِمُها - مستنبطة من المثنوى - (بالفرنسية) .

٤ - وَحْدَة الوجود ، وبعض الأفكار الباطنية لإسماعيل حقى البرسوى مترجم عن التركية .

(ب) والمجال الثانى : فى الدراسات اللغوية والأدبية ، وله فيه الدراسات التالية:

١ - أوزان الشعر التركى وأشكاله (مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة) .

٢ - المخلفات الوثنية فى الأدب الشعبى التركى (بالفرنسية) ط القاهرة وليدن .

٣ - تأصيل ما ورد فى كتاب الجبرتى من الدخيل (ط دار المعارف - القاهرة) .

(جـ) والمجال الثالث : فى التاريخ والوثائق ، وقد صدر له فيه :

١ - مخطط لتكوين أرشيف إقليمى للعالم العربى (حوليات آداب عين شمس).

٢ - تاريخ الترك فى آسيا الوسطى - مترجم عن التركية (ط القاهرة) .

٣ - قيام الدولة العثمانية - مترجم عن التركية - (ط القاهرة) .

٤ - تاريخ الدول الإسلامية ، ومعجم الأسر الحاكمة - فى جزأين - (ط القاهرة) .

٥ - التيارات الدينية والقومية فى تركيا المعاصرة (ط القاهرة) .

٦ - الوثائق التركية التاريخية الخاصة بمشكلة طابا ، ترجمها بتكليف من وزارة الخارجية المصرية .

سيداتى وسادتى :

لا أحب أن أطيل عليكم بسردِ الإنتاج العلمى للمرحوم الدكتور أحمد السعيد ، فهو كثير ، وحافلٌ بكل مبتكر وطريف ، وحسبى أن أضَمِّنَ كلمتى هذه قائمةً بأسماء الكتبِ التى ألّفها ، أو ترجمها ، والبُحوثِ التى نشرها ، والمؤتمراتِ التى حضرها . غير أنه لا يفوتُنى أن أشيرَ إلى أن المجمع - جريًا على عادته فى الترشيح لجائزة الدولة التقديرية - عرف للدكتور أحمد السعيد قدرَه وفضلَه ، ورآه أهلاً لها ، فرشحه مجلسُ المجمع - فى سنة ١٩٩٠ - لنيل هذه الجائزة ؛ لتكون تتويجًا لعطاء علمى وثقافى ، استمر قرابةَ نصفِ قرنٍ فى المجمع ، وفى جامعات القاهرة ، وعين شمس ، والأزهر ، وفى جامعة الإمام محمد بن سعود ، وجاء تقديرُ الدولة له بعد رحيله ، فمَنَحَت اسمَه جائزةَ الدولةِ التقديرية فى الآداب لسنة ١٩٩١ فكان ذلك تقديراً لعطائه ، وعزاءً لأهلِه ، وتكريمًا للمجمع الذى رشحه لها.

وبعد :

فهذا - أيها السادة - هو سلفى ، المرحوم الدكتور أحمد السعيد سليمان ، وما أظنُّكم حين أحلَلْتمونى محلَّه ، قدَّرتم أننى سوف أسُدُّ مَسدَّه ، أو أغْنِى غَنَاءَه فى تخصُّصه «وأين أمامةُ من هند ؟» ولكننى - فيما يُرْجَى منى - سأمضِى معكم - إن شاء الله - مخلصَ النيّة ، صادقَ العَزِيمة ، باذلاً الجُهدَ كلَّ الجهد ، ما وسِعَت الطاقةُ، وأعانت العافية ، فيما بقى من سِنِى عُمْرِى ، واللهُ من وراءِ القصدِ ، «وما توفيقى إلاّ بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب» والسلام عليكم ورحمة الله .

مصطفى حجازى

عضو المجمع




من أنباء المجمع



* تجديد انتخاب الدكتور إبراهيم مدكور رئيسا للمجمع لمدة أربع سنوات :

صدر قرار الأستاذ الدكتور رئيس مجلس الوزراء رقم ٢٣٤٣ بتاريخ ٥/١٠/١٩٩٤ ، باعتماد تجديد انتخاب الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور رئيسًا للمجمع لمدة أربع سنوات قادمة .

* أعضاء جدد :

أولاً - العاملون :

صدر قرار السيد الأستاذ الدكتور رئيس مجلس الوزراء رقم ٢٣٥٦ لسنة ١٩٩٤ م باعتماد انتخاب ستة أعضاء عاملين جدد بالمجمع وهم :

١ - الأستاذ الدكتور/ أحمد مستجير مصطفى .

٢ - الأستاذ الدكتور/ على محمد الحديدى .

٣ - الأستاذ الدكتور/ محمد الأمين بسيونى .

٤ - الأستاذ الدكتور/ محمد السيد غلاب .

٥ - الأستاذ الدكتور/ أحمد على سالم الصباغ .

٦ - الأستاذ الدكتور/ حسن محمود عبد اللطيف الشافعى .

وقد تم استقبال الأعضاء الثلاثة (١ - ٣) فى جلسة المجلس المنعقدة فى ٢١/١٢/١٩٩٤م .

وتم استقبال الأعضاء الآخرين (٤ - ٦) فى جلسة المجلس المنعقدة فى ٢٨/١٢/١٩٩٤م .

ثانيًا - المراسلون :

صدر قرار الأستاذ الدكتور وزير التعليم رقم ١٢٤٢ بتاريخ ١٨ من سبتمبر ١٩٩٤م باعتماد انتخاب عشرة أعضاء مراسلين جدد من العرب والمستعربين وهم :

- الأستاذ الدكتور/ شاندور (إسكندر) فودور (المجر)

- الأستاذ الدكتور/ عبد الله يوسف الغنيم (الكويت)

- الأستاذ الدكتور/ فردريكو ليمهاوس (هولندا)

- الأستاذ الدكتور/ فولفو دتريش فشر (ألمانيا)

الأستاذ الدكتور/ محمد إحسان صالح النص (سورية)

الأستاذ الدكتور/ محمد محمد بنشريفة (المغرب)

- الأستاذ الدكتور/ محمد هيثم الخياط (سورية)

- الأستاذ الدكتور/ محمود محمد السيد (سورية)

- الأستاذ الدكتور/ محمد المختار ولد إباه (موريتانيا)

- الفريق الأستاذ/ يحيى بن عبد الله المعلمى (السعودية)

وافق مجلس المجمع على اختيار السادة الأساتذة التالية أسماؤهم خبراء جددًا بلجان المجمع :

*** لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية :**

الدكتور فاروق عبد الجواد شويقة ، أستاذ الدراسات الأثروبولوجية بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية ، والدكتور محمد عبده محجوب ، وكيل كلية الآداب للدراسات العليا بجامعة الإسكندرية .

*** لجنة الحاسبات :**

الدكتور إيهاب السيد عبد الهادى طلخان المدرس بقسم الحاسبات بكلية الهندسة بجامعة القاهرة .

*** لجنة المعجم الوسيط :**

الدكتور ضاحى عبد الباقى المدير العام السابق للمعجمات اللغوية وإحياء التراث.

*** لجنة المعجم الكبير :**

الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف أستاذ ورئيس قسم النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم .

الأستاذ محمد على الزميتى رئيس قطاع المجمع السابق .

*** لجنة التاريخ والآثار :**

الدكتور صالح أحمد صالح الأستاذ المتفرغ لترميم الآثار بكلية الآثار بجامعة القاهرة .

* لجنة الرياضيات :

الدكتور محمد عبد الحميد عامر أستاذ الرياضيات البحتة بكليـة العلوم بجامعة القاهرة ، والدكتور ناصر على حسن أستاذ الرياضيات بكلية البنات بجامعة عين شمس .

* لجنتى النفط والجيولوجيا :

الدكتـور عبـد العزيز عثـمان سـلامة الأستـاذ المتفـرغ بقسم التـعدين والبـترول بكلية العلوم بجامعة عين شمس .

* الجوائز :

فاز ثلاثة من أعـضاء المجـمع بجائزة الدولة التقديرية لعام ١٩٩٤م :

وهم الأساتذة :

١ - الدكتور/ محمود على مكى فى الآداب .

٢ - الدكتـور/ كمال محمـد دسوقى فى العلوم الاجتماعية .

٣ - الدكتـور/ أبو شادى الروبى فى العلوم الطبية .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

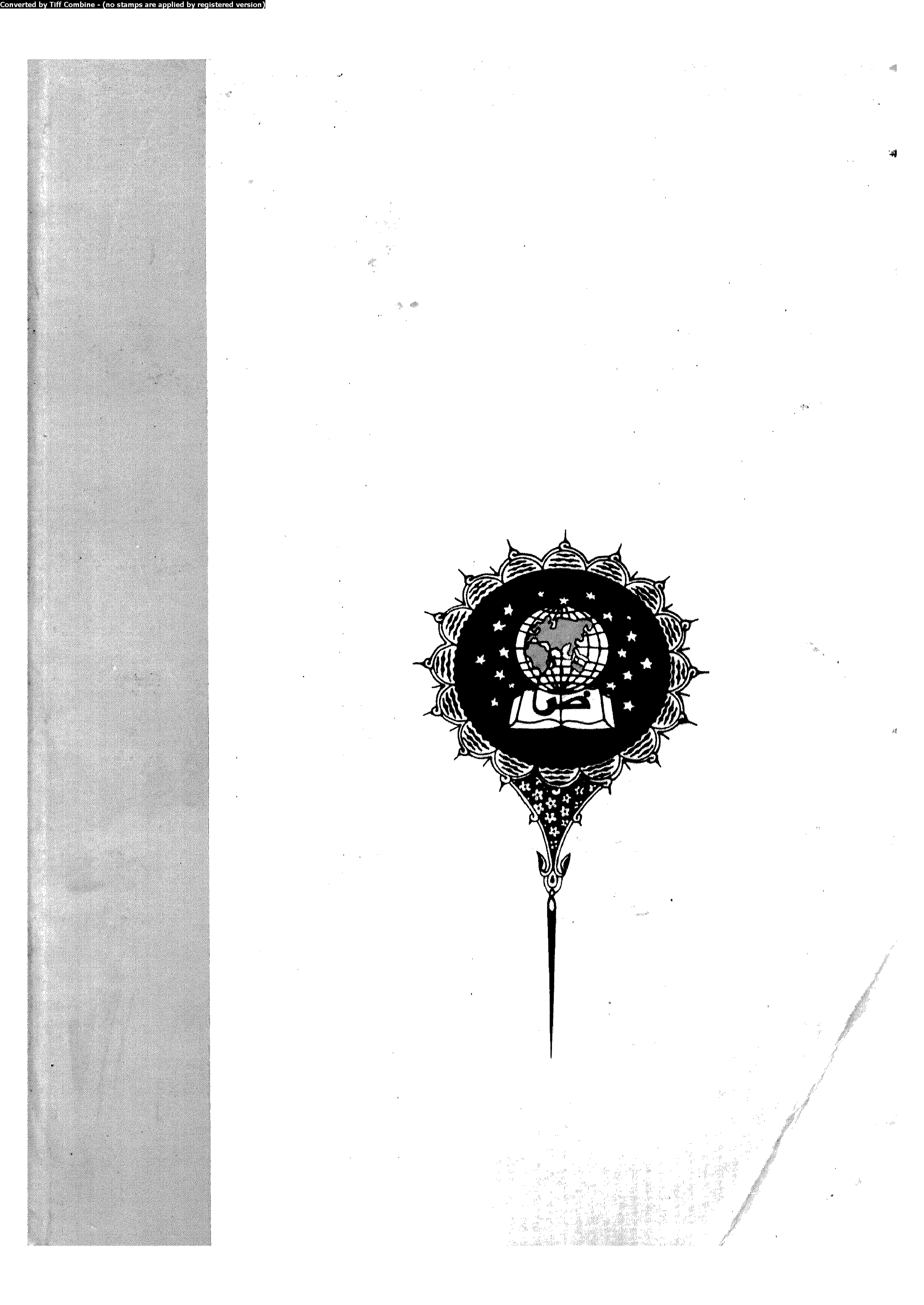
مهندس / إبراهيم السيد البهنساوى

رقم الإيداع بدار الكتب ٦٣٢ / ١٩٩٧

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٤٢٧٦ - ١٩٩٧ - ٢٠١٤




ص